



# الشرق الأوسط

في  
مؤلفات الأمريكيين  
جمع مجيد حوري















# الشرق الأوسط

في

## مؤلفات الأمريكيين

### المؤلفون

جورج سارتون	رشارد إتنجهاوزن
كوينسي رايت	فيلكس بوشنسكي
وليم دياموند	روجر سولتو

أشرف على جمعه وتحريره

مجيد خدوري

راجعته

محمد مصطفى زيادة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (مما دار التبرع سابقاً)

القاهرة ١٩٥٣



هذه الترجمة إلى اللغة العربية

مرخص بها

مصلحت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك - القاهرة)

على ترخيص خاص بترجمة ونشر فصول هذا الكتاب من المؤلفين والناشرين.

تشمل حقوق الطبع والنشر مقالة ريتشارد إتيانجهاوزن المسجلة سنة ١٩٥١.

(Copyright, 1951, Princeton Univ. Press)

ومقالة كوينسى رابت ، وهي منقوطة في سنة ١٩٥٣ .

(Copyright 1942, Univ. of Chicago Press)

المترجمون :

عمر فروخ

محمد مصطفى زيادة

جعفر خياط

## تعريف بالمؤلفين والمترجمين

من هم ؟

يرغب القراء أن يعرفوا شيئا عن مؤلفى الكتب التى يقرأونها ،  
وتحقيقا لهذه الرغبة تنشر مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر  
( نيويورك — القاهرة ) تعريفا بجميع الذين شاركوها فى اخراج هذا  
الكتاب .

### المؤلفون

جورج سارتون

(George Sarton)

أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية ،  
وهو من الثقات فى هذه المادة ، وفيها ألف كتباً عديدة . ونشر سارتون  
أبحاثاً مفردة فى فلسفة العلوم والفنون الآسيوية ، والثقافة العربية ، فى مجلة  
ايزيس التى تعد أهم مجلة لتاريخ العلوم فى الولايات المتحدة الأمريكية  
وأوروبا . ونال سارتون جوائز ودرجات علمية كثيرة ، على سبيل التكريم ،  
من مختلف الجامعات والجمعيات العلمية فى أنحاء العالم .

رتشارد اتنجهاوزن

(Richard Ettinghausen)

أمين قسم الفن الاسلامى فى متحف فرير للفنون (Freer Gallery  
of Art) فى واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية . وهو كذلك رئيس  
تحرير مجلة الفن الشرقى (Ars Orientalis) المخصصة بأبحاث



الفنون الشرقية عامة ، ومؤلف بحث عنوانه الكتب والمجلات المنشورة  
باللغات الغربية فى شؤون الشرق الأوسط ، فى مطبوعات المجلس  
الأمريكى للجمعيات العلمية (American Council of Learned Societies).

كوينسى رايت

(Quincey Wright)

أستاذ القانون الدولى بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ،  
ورئيس سابق للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية ، واتحاد الأساتذة  
الجامعيين الأمريكين ، والجمعية الدولية للعلوم السياسية . وله  
بحوث ومؤلفات عديدة فى تاريخ العلاقات الدولية .

فيلكس بوشنسكى ووليم دياموند

(Felix Bochenski and William Diamond)

يعمل كل من هذه المؤلفين الاختصاصيين خبيراً فى قسم المعاملات المالية  
الخاصة بالشرق الأوسط وآسيا ، فى بنك التسليف الدولى فى واشنطن ،  
بالولايات المتحدة الأمريكية .

روجر سولتو

(Roger Soltau)

مؤلف ومؤرخ معروف فى دوائر الجامعة الأمريكية فى بيروت  
بلبنان ، واشتغل بالتدريس فى هذه الجامعة سنوات عديدة حتى  
وفاته ، سنة ١٩٥١ م .

مجيد خدورى

أستاذ العلوم السياسية بجامعة جونز هوبكنز فى واشنطن  
بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومدير الأبحاث بمعهد الشرق الأوسط  
فى واشنطن . وهو من الخبراء فى شؤون الشرق الأوسط ، وله مؤلفات  
فى الشريعة الإسلامية ، وفى تاريخ العراق الحديث .

### عمرفروخ

أستاذ بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت ، وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق ، وجمعية البحوث الإسلامية فى بومباى بالباكستان ، وله مؤلفات وبحوث معروفة فى الدوائر العلمية بالشرق الأوسط .

### محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ورئيس قسم التاريخ بهذه الجامعة ، وله بحوث ومقالات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى . وهو الآن أستاذ زائر بجامعة فلوريدا ويوطاه بالولايات المتحدة الأمريكية .

### جعفر خياط

مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية ببغداد ، وهو مترجم كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق .

### سعيد خطاب

مدرس بكلية الفنون التطبيقية بالقاهرة ، وهو الذى قام على تصميم غلاف هذا الكتاب ، ونال جائزة فرانكلين لهذا التصميم .



## محتويات الكتاب

صفحة	
ك - ع	تصدير مجيد خدورى . . . . .
٦٠-١٠١	الفصل الأول حضارة الشرق الأوسط للثقافة الغربية تأليف جورج سارتون ، وترجمة عمر فروخ
١٠٧-١٠٦	الفصل الثاني الفنون والآثار الإسلامية . . . . . تأليف رتشارد انتجهاوزن ، وترجمة محمد مصطفى زيادة
١٤٠-١٠٩	الفصل الثالث السياسة الدولية في الشرق الأوسط . . . . . تأليف كوينسى رايت ، وترجمة جعفر خياط
١٨٢-١٤١	الفصل الرابع تطبيق مشاريع التنسى في الشرق الأوسط تأليف فيلكس بوشنسكى ، ووليم دياموند ، وترجمة جعفر خياط
٢٠٢-١٨٣	الفصل الخامس دروس من الشرق الأوسط . . . . . تأليف روجر سولتو ، وترجمة عمر فروخ
٢٠٣	قائمة ببعض المؤلفات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط . . . . .





## تصدير

عندما أعلنت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر ( نيويورك القاهرة ) برنامجها الكبير ، وهى مؤسسة ثقافية أمريكية غرضها التعاون الثقافى بين قادة الفكر فى الولايات المتحدة الأمريكية وبلاد العربية ، قام مستر ديتس سميث ، مدير هذه المؤسسة ، برحلة الى الشرق الأوسط ، وزار معظم عواصمه . وتحدث مستر سميث فيما تحدث الى كثير من المعنيين بالتعاون الثقافى بين الشرق والغرب ، للقيام على ترجمة طائفة مختارة من البحوث والدراسات الأمريكية الخاصة بشئون بلاد العربية ، واخراجها فى كتاب واحد ، لاطلاع القارئ على تناج الفكر الأمريكى فى سهولة وقلة عناء .

ثم طلب الى مستر سميث أن أقوم على جمع مواد هذا الكتاب ، فأخذت شاكرًا فى اختيار بحوث دالة على مختلف الجهود العلمية الخالصة فى ميادين التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة .

وسوف يلحظ القارئ خلو هذا الكتاب من بحث مختار فى التربية والتعليم ، وليس معنى هذا أن الفكر الأمريكى لم ينتج شيئًا فى هذه الناحية الهامة فى شئون الشرق الأوسط ، ولا سيما أن الخبراء الأمريكيين مشهورون ببحوثهم التربوية عامة . وانما آثرت الاختصار على موضوعات الفصول المذكورة فى صفحة محتويات الكتاب ، نظرا لوجود ترجمة عربية طيبة لكتاب أمريكى فى التربية عنوانه التربية فى الشرق الأوسط العربى ، تأليف رودريك ماثيوز ، أستاذ التربية فى جامعة بنسلفانيا ، ومتى عقراوى ، مدير التعليم العالى بوزارة المعارف العراقية سابقا ، وترجمة أمير بقطر ، أستاذ التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . ( المطبعة العصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م ) .

والبحوث التي يراها القراء هنا — في ثوب عربي — مختارة من عدد من الكتب والمجلات الأمريكية الكبرى ، ومؤلفوها مترازون بالدقة والأمانة والعدالة العلمية ، وهم مشكورون لسماحهم أن تقوم مؤسسة فرانكلين على اختصار بعض هذه الفصول وتعديلها ، قبل تقديمها للنقل الى العربية ، رغبة في اخراجها واضحة للقارئ العربي .

والفصل الأول من هذه البحوث من تأليف الدكتور جورج سارتون ، أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية . وأصل هذا الفصل محاضرة عامة ألقاها المؤلف في واشنطن تحت اشراف مكتبة الكونجرس ومؤسسة جورج كايزر ، وهو من ترجمة الدكتور عمر فروخ ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وأستاذ بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت بلبنان . والفصل الثاني دراسة في الفنون والآثار الاسلامية ، ومؤلفه أخصائي مشهور هو الدكتور رتشارد انتجهاوزن ، عقب محاضرة ألقاها في موضوع الفنون والآثار الاسلامية في مؤتمر ثقافي بجامعة برنستون سنة ١٩٤٧ م ، ثم نشره في الكتاب الشامل لبحوث هذا المؤتمر ، وعنوان هذا الكتاب « المجتمع والثقافة في الشرق الأوسط » . ونقل هذا الفصل الى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وذلك أثناء اقامته أستاذا زائرا بجامعة فلوريدا ويوظاه بالولايات المتحدة الأمريكية . ويلى هذا فصل موضوعه مستقبل الشرق الأوسط ، ومؤلفه الدكتور كوينسى رايت أستاذ القانون الدولي بجامعة شيكاغو . وأصل هذا الفصل محاضرة ألقيت في مؤتمر الشرق الأوسط في جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ ، ثم نشره المؤلف في السنة التالية في كتاب البحوث الخاصة بذلك المؤتمر . على أن المؤلف رأى أن يضيف الى بحثه بعض المتجددات قبل ترجمته ، ثم قام على الترجمة الدكتور جعفر خياط ، وهو مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية .

والفصل الرابع من هذا الكتاب بحث دقيق في عدة مشروعات اقتصادية بالشرق الأوسط ، على غرار مشروعات وادي التنسي بأمريكا ،

وهي المشروعات التي أدى نجاحها في الولايات المتحدة الى تفكير المفكرين في شئون التعمير والاصلاح الزراعى ، في غير أمريكا من البلاد . وهذا الفصل من تأليف اثنين من خبراء بنك التسليف الدولى في واشنطن ، وهما الدكتور فيلكس بوشنسكى والدكتور وليم دياموند ، والفصل نفسه مأخوذ من مجلة الشرق الأوسط في واشنطن ( المجلد الرابع ، ١٩٥٠ ) . وقام على ترجمة هذا البحث كذلك الأستاذ جعفر خياط .

أما الفصل الخامس وهو الأخير ، فمن تأليف الأستاذ روجر سولتو ، وهو منشور في مجلة التاريخ الانجليزية ( العدد ٢٢٥ ، سنة ١٩٤٠ م ) . ومؤلف هذا الفصل انجليزى قضى عشر سنوات من حياته في التعليم بالجامعة الأمريكية في بيروت ، وكانت وفاته سنة ١٩٥١ ، وهو مؤرخ معروف لدى خريجي هذه الجامعة ، ومنهم الدكتور عمر فروخ صاحب الترجمة لهذا الفصل .

ونظرا لصعوبة الاتصال بالدكتور عمر فروخ والدكتور جعفر خياط من أجل بعض الأعمال التحضيرية قبيل ارسال أصول هذا الكتاب للطبعة ، ولضرورة القيام على اعداد محتويات الكتاب وتنسيقها كلها في صورة واحدة ، قبل الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يقوم على ذلك العمل أملا في اخراج الكتاب في صورة نهائية جديرة بالقارئ العربى الجديد ، بجميع بلاد العربية ، واعتمد في عمله على ما أبداه مؤلفو هذه الفصول لمؤسسة فرانكلين أولا من الترحيب بكل تعديل من شأنه أن يوضح محتويات هذا الكتاب للقارئ ، وهو ما حرص المترجمون أنفسهم على الأخذ به . ( انظر ص ٤ ) .

وعسى أن تكون هذه الفصول المختارة ، بعد تطويع أسلوبها وتحريرها ، وترجمتها وتنسيقها ، حافزة للقارئ العربى أن يستزيد من الاطلاع على بحوث ثقافية أخرى من مؤلفات الغربيين ، لمعرفة صلات الثقافة الإسلامية في الشرق الأوسط بثقافات الأمم المعاصرة لها ، في

مختلف الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية ، ولتقدير ما يستطيع تبادل المعرفة بين الأمم أن يصل اليه من الخير العام المشترك .

واذ وضحت طريقة اختيار هذه الفصول وترجمتها الى العربية للقارىء العربى الجديد ، ينبغي أن أشير هنا الى ما طرأ على الفكر الأمريكى من تطور فى العصر الحاضر . ذلك أن العلاقات الثقافية بين أمريكا والشرق الأوسط اقتصرت — فى زمن مضى — على نفر من علماء الآثار القديمة واللغات السامية ، ونفر آخر من رجال المنظمات التبشيرية ، فضلا عن عدد من السائحين الذين لم يروا بلاد الشرق الأوسط الا من نوافذ الفنادق الأوربية والسيارات الأمريكية ، دون أى اهتمام كبير لمعرفة أحوال الشعوب فى هذه البلاد . على أن هذا الاعراض الأمريكى القديم لم يكن مقصورا على الشرق الأوسط ، بل تعداه وقتذاك الى معظم بلاد العالم ، بسبب سياسة العزلة التى أيدها الشعب الأمريكى نفسه ، وهى سياسة أدت الى عزلة ثقافية ، فصلت بين الأمريكيين ومنابع ثقافتهم الأوربية الأولى ، كما فصلت بينهم وبين ثقافات الشعوب الشرقية القديمة والمتوسطة والحديثة ، فضلا عن حضارتها .

ثم تغيرت هذه الحال كلها عقب الحرب العالمية الأولى ، فتبدلت العزلة الأمريكية الى سياسة التعارف والتعاون ، بين الأمم جميعا . وازداد هذا التبدل بعد الحرب العالمية الثانية ازديادا مطردا جعل أمريكا — حكومة وشعبا — ترغب رغبة دائمة فى التعرف على الشعوب الأوربية ، وغير الأوربية . وتظهر هذه الرغبة واضحة للمتصلين بمعاهد العلم الأمريكية فى أنحاء العالم ، وهى ليست وليدة الدوافع السياسية ، أو الجشع الاقتصادى ، بل ترجع الى شعور أمريكى عام بأن الولايات المتحدة التى أصبحت ذات مركز دولى عظيم ينبغي لها أن تملأ هذا المركز الجديد الفريد ، على أساس المعرفة والاحترام المتبادل والتعاون المشترك ، وهو أساس الديمقراطية التى بذل الأمريكيون فى سبيلها جهودا داخلية عنيفة ، منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، ثم أخذوا يبدلون فى سبيلها جهودا خارجية كبيرة منذ العشرينات من هذا القرن العشرين .

وربما كانت الجامعات والمعاهد الأمريكية أسبق الأوساط الأمريكية الى هذا الشعور الذى غدا عاما بين الأمريكيين ، بدليل ما بكرت اليه هذه الجامعات والمعاهد من اعداد برامج خاصة لتدريس اللغات الأجنبية، والثقافات الشرقية ، وتشجيع البحوث الواسعة فى أحوال الشعوب المختلفة . ومع حادثة الأمريكيين بدراسة بلاد الشرق الأوسط ، لم تلبث البرامج الخاصة بهذه البلاد أن امتدت الى مختلف النواحي الثقافية العمرانية ، وبرهان ذلك أن جامعات هارفارد وپرنستون ومتشيجن وبنسلفانيا — وهى التى عنيت سابقا بدراسة اللغات السامية أو الآثار القديمة — أعدت حديثا دروسا وبحوثا تعنى باللغات الشرقية الحديثة ، وأحوال الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية فى العصر الحاضر . وفى مدرسة الدراسات الدولية العالية فى جامعة جونز هبكنز ، وهى التى ينتمى اليها كاتب هذه السطور ، منهج واسع يتناول دراسة الشرق الأوسط الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى دراسة الشريعة الاسلامية وحاضر العالم الاسلامى . ويتصل بهذه المدرسة معهد الشرق الأوسط لنشر البحوث والدراسات الشرقية الحديثة بين الأمريكيين، فى مجلته التى بدأها منذ سنة ١٩٤٧ ، وعنوانها « مجلة الشرق الأوسط »، وهذه عدا المؤلفات العلمية التى أخذ المعهد فى الاشراف على طبعها . ولا بد من الاشارة هنا كذلك الى جهود « المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية » ، اذ يقوم هذا المجلس على ترجمة مجموعة من الكتب العربية القديمة والحديثة الى اللغة الانجليزية ، ويعد العدة لنشرها فى المستقبل القريب .

وانبرت بعض المؤسسات الأمريكية لتمد هذه الجامعات والمعاهد بالاعانات المالية السخية ، تشجيعا للبحوث العلمية فى الشرق الأوسط وغيره من البلاد . ومن هذه مؤسسة روكفلر وفورد وهوتنى وكارنيجى وغيرها ، بل منحت هذه المؤسسات هبات مالية الى أعداد من الأستاذة الاخصائيين والطلاب الأمريكيين ، لتسهيل لهم سبيل التفرغ الى دراسة شئون الشرق والعناية بالبحوث الشرقية . ثم ما لبث أن لقيت بحوث



هؤلاء الأخصائيين تشجيعاً من دور الطباعة والنشر الأمريكية ، فنشرت  
بحوثهم راضية ، وصدر في أمريكا من هذه البحوث منذ نهاية الحرب  
العالمية الثانية مجموعة من المؤلفات التي تجد بضعة طيبة من اسمائها في  
ملحق هذا الكتاب .

مجيد خدوري

# حضارة الشرق الأوسط

للثقافة الغربية

تأليف

جورج سارتون

ترجمة

عمر فروخ



## كلمة المترجم

هذه محاضرة للمستشرق الدكتور جورج سارتون ، أحد أساتذة جامعة هارفارد ( في الولايات المتحدة ) ومؤلف كتاب « مقدمة الى تاريخ العلم » . ألقى سارتون هذه المحاضرة بناء على دعوة من مكتبة الكونجرس الأميركي ومؤسسة جورج ك . كايزر ، في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٥٠ ، في منتدى كوليدج في مكتبة الكونجرس .

وقمت على نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربية جبا لما فيها من معارف جلية ومن ملحوظات صحيحة . والدكتور سارتون جد منصف للعرب والمسلمين ، ولكن له أيضا ملحوظات لا تسرنا كثيرا . على أن هذه الملحوظات ، اذا كانت تحتل مأخذا فأننى سأعلق عليها بالشرح والاشارة ؛ واما اذا لم يكن فيها مأخذ فيجب أن نجعل منها عبرة لأنفسنا .

أنا أشعر مع صاحب المحاضرة — وأعتقد كما يعتقد كل واحد منا — ان الاسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية وأجملها ، وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق . ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام . ان الاسلام يدعو الى العلم والقوة والنظافة ، ولكن المسلمين ليسوا في هذه الأمور خيرا من غيرهم ، ولا مثل غيرهم أحيانا . وهذا ما شعر به المصلحون المسلمون ، فقال الشيخ محمد عبده : « الاسلام محجوب بالمسلمين » ، أى أننا اذا نظرنا الى مبادئ الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادئ جلية واضحة وجميلة سامية ، كما هى حقيقة . وصاحب المحاضرة يعرج على هذه الملحوظة مرارا في أثناء كلامه .

اننى هنا أرجو من بنى قومي أن يولوا هذه الملحوظة حسن عنايتهم ، وأن يعلموا أن لا أمل لهم بالنهوض الا اذا رجعوا الى حقيقة دينهم جاء في القرآن الكريم : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

والعلم اليوم على أقلية بين المسلمين. وجاء في القرآن الكريم أيضا : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، فلما ثارت الحرب بالأمس في فلسطين كنا أقل استعدادا ماديا وروحيا من خصومنا بمراحل . وكذلك جاء في الحديث الشريف : « النظافة من الايمان » ، ثم أقر الاسلام الطهارة والغسل والوضوء . ولكن المسلمين ، في مجموعهم ، لا يستطيعون اليوم أن يفتخروا بأنهم أنظف شعوب الأرض ، كما أراد منهم دينهم أن يكونوا .

ان المسلمين — في مجموعهم — بعيدون اليوم عن حقيقة دينهم ، فلا عجب اذا رأيناهم بعيدين عن حقيقة الحياة نفسها . وصاحب المحاضرة نفسه يعتقد أن شعوب الشرق الأوسط — وهم المسلمون في الأكثر — يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية ، والى زعامة العالم السياسية والعلمية ، كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة في الاسلام والعلوم التي حث الاسلام على الأخذ بها ، بهذه الروح الصحيحة يجب أن نقرأ هذه المحاضرة القيمة .

وهنا موضع ملحوظة على أسلوب هذا الكتاب ، وهى اننى تصرفت تصرفا يسيرا فى مواضع معدودة عند نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربية ، فاستغنيت عن بضع جمل لأنها تدور مثلا حول « الخطة » التى اتبعها المؤلف فى كتابة الكلمات العربية بالأحرف اللاتينية ، كما فى المقدمة ، أو ما هو قريب من ذلك ، مما لا يحتاج اليه القارئ العربى . وهناك أيضا كلمات أضفتها لتكون العبارة أجري على الأسلوب العربى ، من غير أن يتأثر المعنى فيها كثيرا أو قليلا . وكذلك لما وصلت الى المقاطع التى تعالج حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضوع القرآن الكريم جريت فيها على الآداب الاسلامية ، فكسوت تلك المقاطع تقوى يستشعرها المسلم ، وهى مما لا يجد الكاتب الغربى نفسه مضطرا الى التقييد بها . ثم ان الكتاب فى الأصل يضم حواشى « تفسيرية » كثيرة ، وهذه تمنع القراءة السائرة ، ومن أجل ذلك عمدت الى ادخال هذه الحواشى فى

المتن . ورجعت في ذلك كله الى رأى الدكتور سارتون ، فلم يجد ضررا في ما فعلته . ولكننى أبقيت حواشى التعليق وحواشى المصادر والمراجع على حالها .

وبما أن قارئ هذا الكتاب في حلته العربية سوف يقف متسائلا أمام عدد من الآراء والتعابير والألفاظ أحببت أن أضع لهذه كلها حواشى للتفسير ( اذا كانت غير مألوفة في البيئة العربية العامة ) ، أو للتعليق ( اذا كانت تلك الآراء والتعابير والألفاظ على غير المنهج المأنوس عندنا في بحوث الاسلام خاصة ) . وحرصت على أن أختم كل حاشية من وضعى أنا بالحرفين الأولين من اسمى ( ع . ف ) ، تميزا لها من الحواشى التى هى للمؤلف .

وبعد ، فإن على تبعة كل ما في هذا النص العربى ، مع العلم بأن الدكتور سارتون قرأه وأجازه . وعسى أن تكون سقطاتى قليلة في نقل هذه المحاضرة القيمة ، وأن أكون أدت بنقلها الى اللغة العربية خدمة ثقافية توجيهية لقومى ولأمتى .

عمر فروخ



المعلومات المتضمنة في هذه المحاضرة وفي حواشيتها تزداد قيمة بالرجوع الى كتاب عنوانه « مقدمة الى تاريخ العلم » <sup>(١)</sup> للمؤلف ، وهو ثلاثة أجزاء كبيرة في خمس مجلدات ، نشرتها مؤسسة كارنيجي في واشنطن بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٤٨ م . وستكون الإشارة الى هذا المرجع هكذا : ( Introd. ) <sup>(٢)</sup> . وكذلك يحسن الرجوع الى مراجعات وتقاريط صدرت في مجلة ايزيس ، وهي مجلة مخصوصة بتاريخ العلم ، صدر منها الى الآن ثلاثة وأربعون مجلدا ( ١٩١٣ - ١٩٥٢ ) في بلجيكا والولايات المتحدة . وهناك أيضا مقتطفات قليلة أضيفت الى هذه المحاضرة ، لم يشر اليها بعلامات الاقتباس المعروفة ، وهي مأخوذة من رسالة للمؤلف عنوانها « آثار العرب العلمية » <sup>(٣)</sup> في الكتاب الذي صدر احياء لذكرى المستشرق المجري الكبير اغناطيوس جولدتزيهر <sup>(٤)</sup> .

أضفت الى هذه المحاضرة فيما بعد عددا من الحواشي ومن أسماء المراجع ، لا يتمكن القارئ من التثبت من الأحكام الواردة في هذه المحاضرة فحسب ، بل لتساعده تلك الحواشي والمراجع على متابعة البحث أيضا .

(١) راجع « آثار المؤلف » في ترجمته ( ع . ف ) .

(٢) سوف أترك أسماء المصادر والمراجع الاجنبية بلغتها الأصلية ، اذ لا فائدة عملية من نقلها الى اللغة العربية . وما دامت الغاية من ذكر عناوين الكتب أن يرجع القارئ اليها ، فالذي يعرف اللغات الاجنبية لا يحتاج الى هذا النقل ، والذي يجهل اللغات الاجنبية لا يستفيد منه . اما اذا كان اسم الكتاب دال بنفسه على قيمة علمية خاصة فأننى أنقله حينئذ الى اللغة العربية ( ع . ف ) .

(٣) اسم هذه الرسالة . Arabic Scientific Literature.

(٤) Ignaz Goldziher Memorial Volume, part I, pp 55-72, ( ٤ )

Budapest, 1948.

انى أقدر هذا الشرف الذى أولتني اياه مؤسسة جورج ك. كايزر حينما جعلتني محاضرها الأول ، كما أعد من التقدير الكبير لى أن أدمى الى الكلام فى هذا المنتدى الشائق الذى نحن مدينون به الى كرم السيدة اليزابث سبراج كولىدج<sup>(١)</sup> . ان السيدة كولىدج بنت هذا المنتدى للموسيقين وأحباب الموسيقى ، وأنا أرجو ألا تكون محاضرتي غير جديرة به . اننى لست موسيقيا مبدعا ، ولكننى وقفت حياتي منذ سنين طوال على التوفيق بين الخلافات الناشئة بين العلوم وبين الآداب ، وعلى معرفة العلة فى سوء التفاهم بين الشرق والغرب . وليس على الأرض ولا فى السماء موسيقى أجمل من التوفيق بين القلوب المتآلفة أو المتحابة .

انكم تعلمون ، على الأرجح ، أن المؤرخين القدماء كانوا يحبون أن يبدأوا صحف تاريخهم منذ البدء الأول ، بقصة آدم وحواء . ونحن يجب أن نفعل مثلهم ، ذلك لأن « شجرة معرفة الخير والشر<sup>(٢)</sup> » كانت فى وسط جنات عدن . ومع أن ثمة خلافات كثيرة ( كانت وستبقى ) بين الدراسين على الموقع الصحيح للجنة ، فاننا لا نخطئ أبدا اذا قلنا ان تلك الجنة كانت فى مكان ما من « الشرق الأوسط » .

دعونا نقف لحظة فى ظل هذه الشجرة . ان وقوفنا هذا سيحمل الى أذهاننا شيئا من الحكمة القديمة — ان جنات عدن ، أو الفردوس، كانت دار الخلد التى أضاعها آدم وحواء ، وأهبطهما الله منها الى الأرض<sup>(٣)</sup> . ونحن نجد أن أكثر الشعوب القديمة متفقة على أنه كان فى غابر الأزمان عصر ذهبى أخذ البشر يتقهقر بعده شيئا فشيئا . من ذلك مثلا ما ورد عند الشاعر اليونانى القديم هسيود انه كان ثمة عصر للذهب ، ذلك العصر الذى كان عصر سلم وكمال . ثم تبع هذا العصر عصر الفضة ، ثم عصر الشبه ( النحاس الأصفر ) ، ثم عصر الحديد<sup>(٤)</sup> . واذا نحن تابعنا هسيود

Mrs. Elizabeth Sprague Coolidge (١)

(٢) التوراة ، سفر التكوين ٢ : ٩ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة ( ٢ : ٣٦ ، ٣٨ ) ، سورة الاعراف ( ٧ : ١٩ - ٢٥ ، سورة طه ( ٢٠ : ١١٧ - ١٢٣ - ١٢٤ ) ( ع . ف ) .

(٤) Hesiod : His works and days (Lines 109-201) (٤)

فى خيالاته أمكن أن تقول اننا اليوم فى عصر المعاجين <sup>(١)</sup> ، ، أو عصر البترول . وبعد ، أفىكون هذا كله نهاية أم بداية لعصر جديد ؟ والغريب ان رجلا ذا عبقرية مثل سيمون ستيفن ( ١٥٤٨ — ١٦٢٠ م ) الفلمنكى <sup>(٢)</sup> ، وهو العالم فى الرياضيات والطبيعات ، كان يؤمن بعصر خرافى للعلوم والحكمة فى غابر الأزمان ، وكان يعتقد كذلك ان هذا المجد الذى غبر مع الزمن يمكن أن يعود بوسائل متعددة، منها مثلالعلم اللغة الهولندية <sup>(٣)</sup> .

### ايتقدم العالم ام يتاخر ؟

وبعبارة أخرى لم يكن العلماء يؤمنون بأن العالم سائر الى التقدم ، بل انه فى ارتداد الى حاله الأولى ، بعد تقدمه الأول . فبعد العصر الذهبى الذى كان فى غابر الزمن فى مكان ما من الشرق الأوسط ، لم تفتأ البشرية تتقهقر فى رأيهم من سيء الى أسوأ منه . ولم يشذ عن هذا الاجماع سوى شخص واحد ، شخص واحد كان متفائلا الى حد ما ، وكان يؤمن بالمستقبل .. ذلك هو الفيلسوف الرومانى العظيم سنيكا <sup>(٤)</sup> المولود فى قرطبة ، وهو الذى عبر عن حقيقة التقدم فى ميدان المعرفة تعبيراً واضحاً . ذكر سنيكا هذا الايمان بالتقدم مرتين على الأقل : مرة فى رسالة الى لوسيلليوس ، ومرة أخرى فى « المسائل الطبيعية » <sup>(٥)</sup> . وكذلك كنا رأينا بعض هذا الايمان بالتقدم من قبل عند ثوسيديديس <sup>(٦)</sup> الذى شهد القرن الخامس قبل الميلاد — فى مطلع كتابه « فى التاريخ » ، ولكن بوضوح أقل . وهذا الايمان بالتقدم العلمى الذى جاش فى صدر سنيكا كان الأساس الذى قامت عليه فكرة برنارد المنسوب الى شارتر بفرنسا—

(١) أى plastics وهى مادة لدنة طيعة تصنع اليوم منها أدوات كثيرة .

(٢) Simon Stevin ، والفلمنك مقاطعة من هولندا .

(٣) دعا ستيفن هذا العصر « العصر الباحث » ، وهذا غريب منه .

راجع Sarton : « Simon Stevin of Bruges » (Isis 21: 241-303, 1934, P. 259).

(٤) Seneca ، شهد النصف الثانى من القرن الاول ، الرسالة

الرابعة والستون الى لوسيلليوس Lucillius وهى واردة فى 484 : 2 Introd.

(٥) Natural Questions 7 : 25

(٦) Thucydides

والذى شهد النصف الأول من القرن الثانى عشر — حينما قال : « انا  
نظهر بالنسبة الى الأقدمين وكأنا أقزام متربعون على آكتاف الجبابرة » ،  
مما أصبح مثلاً سائراً على الألسن <sup>(١)</sup> . ويمكننا أن ندرك ذلك فى ميدان  
المعرفة ادراكاً واضحاً ، لأن الجهود العلمية هى الجهود الانسانية الوحيدة  
التي يمكن أن تتراكم وأن تقبل التقدم . فمن أجل ذلك يجب أن نبني  
تاريخ الانسانية على تاريخ العلم .

على أن فكرة الرقى اتسعت فى العصور الحديثة حتى امتدت  
شيئاً فشيئاً الى ما وراء الميدان العلمى ، فتناولت حياة الانسان كلها ثم  
بلغت أقصى اتساعها <sup>(٢)</sup> فى العصر الفيكتورى <sup>(٣)</sup> . ولقد ساد العالم فى  
ذلك الحين اعتقاد بأن العالم ينتقل من حسن الى أحسن ، مع العلم  
بأن البشرية كانت يومذاك مبتلاة بأنواع دائمة من الشقاء ، كالمرض والفقر  
وارتكاب الخطايا ، أو ويلات عارضة كالطوفان والمجاعات والحروب .  
ولكن لم يشك أحد فى أن هذه الأنواع من الشقاء ستتكسر حدتها مع  
الزمن ، وأنها هى ستكون أقل حدوثاً فى هذا العالم ، كما أن الولايات  
العظمى سيمكن التغلب عليها فى النهاية . غير ان اطمئناننا لم يضطرب  
الا نادراً ، اذ اتفق أن تمتعت الطبقة العليا والطبقة الوسطى فى انجلترا  
وأمریکا برخاء عظيم ، حتى أن القليلين فقط كانت لهم جرأة على الاحتجاج على  
تكاليف الحياة . على أن أعظم الاحتجاجات على هذا التفاؤل الشامل عند  
الناس صدر عن الكاتب الانجليزى ادورد كاربنتر ( ١٨٤٤ — ١٩٢٩ )  
فى كتابه الذى تحدى بعنوانه جميع الناس : « المدنية ، أسبابها  
وعلاجها » <sup>(٤)</sup> .

ولقد جاء التعبير عن مثل هذه الآراء بشدة وبشيء من التهكم المر  
فى آثار المرحوم أناندا كوماراسوامى ، فى مجموع مقالاته المسمى :

(١) انظر شواهد كثيرة على ذلك فى 3. 870 Introd.

(٢) فى الاصل Climax ، أى ذروتها .

(٣) عصر فكتوريا ، ملكة انجلترا ( ١٨٣٧ — ١٩٠١ ) ، وقد عظمت

انجلترا فى أثنائه سياسياً واقتصادياً وأدبياً ( ع . ف ) .

(٤) Edward Carpenter : *Civilization, Its Cause and Its*

*Cure* (1889) ، اشارة الى أن المدنية مرض .

« أحارس أنا لأخى ؟ » (١) . كان صديقى كوما راسومى مبالغا وغير متسامح ، ومع ذلك فان آراءه تستحق أن تكون موضع تأمل ، ولا سيما أنها مملوءة بالشواهد وبأسماء المراجع .

ومن الغرابة بمكان أن المصلحين الذين نعوا دائما على المجتمع كثرة الشقاء والظلم فيه ، كانوا مع ذلك متحمسين لمظاهر الرقى كالآخرين ، اذ كانوا يعتقدون أن العالم — مع ما فيه من الشر — فى تحسن مستمر يوما بعد يوم . أما رجال العلم أنفسهم ، فكانوا أكثر تفاؤلا مما تدعو اليه الحكمة .

غير أن هذا الاطمئنان العلمى قد تزعزع على أثر الاكتشافات التى قلبت حياة العالم رأسا على عقب ، أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى ، حتى أن نخبة من رجال العلم عادوا أقل ثقة مما كانوا من قبل وأكثر تواضعا (٢) . ان هذا التفاؤل الأنانى الذى يقول به أصحاب الأعمال الناجحة زعزعته الحرب العالمية الأولى ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فقضت عليه . وهكذا رجعنا كلنا حينئذ الى وجهة نظر قريبة من المعقول .

هنالك شئ من التقدم ، لا أقول فى ميدان العلم فقط ، حيث يكون التقدم عادة ظاهرا ، بل فى غيره من الميادين أيضا . ولكن يجب علينا ، على كل حال ، الا نوغل فى التفاؤل ، اذ أن كل تقدم اجتماعى مهدد أبدا بالتوقف أو بالتلاشى ، نتيجة ما يحتمل أن يصيب العالم من الكوارث . والتقدم — على المدى الطويل — يصبح حقيقيا أكيدا ، ولكن حياتنا نحن قصيرة جدا ، ولعل الحظ لا يرافقنا أيضا فى مدى الحياة القصيرة . ان المدنية ليست

---

Ananda K. Coomaraswamy (1877-1947): « Am I my Brother's Keeper ? » (New York 1947) ، وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من التوراة : سفر التكوين ٩ : ٤ .

(٢) راجع للتمثيل على ما نحن بسبيله مجموعة الأحكام المتواضعة التى فاه بها أثنان أحدثا أثرا عميقا فى العلم الحديث ، وهما ماكس بلانك وألبرت اينشتاين :

Max Planck (Isis 40 : 66-69), and Albert Einstein. *Introd* 3 : v)

مرضا ، ولكنها توازن دقيق جدا يمكن أن يختل بطرق مختلفة . وكلما  
تعتقد التمدين أضحي أكثر دقة ، وبالتالي أضحي توازنه أقرب الى  
الاختلال . وكذلك كلما غدا التمدين أرقى كانت الخشية من سقوطه  
أعظم ، ولنذكر في هذه المناسبة ألمانيا واليابان !

### التقدم في ميدان العلم

ونحن على كل حال اذا أردنا أن نفهم تاريخ الانسانية ، أى أن نجعل  
منه موضوعا مفهوما ، يجب علينا أن نولى انتباهنا للعناصر التقدمية  
فيه . أى لتطور العلوم . ذلك ان تاريخ العلم ( أو تاريخ المعرفة ) يجب أن  
يكون النواة لكل تاريخ للحوادث الانسانية ، لأن البشر يختلفون  
عن الحيوان في الرغبة الملحة الى الخير والجمال ، والحقيقة والانصاف .  
فاذا لم يتصف الانسان بوحدة من هذه القيم الروحانية يصبح  
حينئذ وحشا ، بل أشد الوحوش قدرة وقسوة معا . ولذلك كان أهم  
أقسام التاريخ تاريخ الدين ، وتاريخ الفن ، وتاريخ العلم . على أن التقدم  
لا يكون أبدا ملموسا أكيدا الا في القسم الأخير من هذه الأقسام . من  
أجل ذلك وجب أن يحتل تاريخ العلم المركز الأوسط في صورة المدنية ،  
لأن الاجماع واقع على أن تاريخ العلم بدأ — على التحقيق — في  
المكان الذى تواضعنا على أن نسميه الشرق الأوسط ، مع أنه من  
المستحيل علينا أن نجزم في أى قسمى هذا المكان بدأ . أفى القسم الغربى  
منه ، فى مصر ؛ أم فى القسم الموغل نحو الشرق ، فى ما بين النهرين ؟  
ومن الممكن أيضا أن يكون العلم تطور أولا فى مناطق أخرى ، أى ايران  
أو الهند أو الصين ، أو فى الهند الصينية ؟ ولكن معرفتنا بالتطورات الأولى  
للعلم فى هذه المناطق غامضة وغير أكيدة . ثم ان هذه التطورات البعيدة  
لم تؤثر فى مدنيتنا الغربية مباشرة ، كما أثرت فيها التطورات التى جرت فى  
بلاد الشرق الأوسط .

الواقع ان ديننا لمصر وما بين النهرين عظيم ، وعظيم جدا ، حتى ان  
موجزا قصيرا لشرح بعض ما بلغه هذان الموهوبان فى العلم تضيق عنه هذه

المحاضرة . ولكن دعوني أذكركم بحقيقة واحدة هي أن هذين البلدين كليهما اكتشفا وسائل الكتابة ، ومن المرجح أن هذه الفكرة المدهشة كانت ابتكارا في البلدين ، غير أن الأسلوبين اختلفا على كل حال .

اخترع المصريون للكتابة التعبير بالصور ( الكتابة الهيروغليفية ) ؛ ثم اكتشفوا أحسن وسائل الكتابة في العصور القديمة ، وهو نبات البردي الذي استطاع الكاتبون أن يبرزوا على صفحاته المصقولة فنهج في أروع أشكاله . أما السومريون (١) فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالكتابة على الطين ؛ وهذا هو الذي قرر اشكال خطوطهم المسمارية (٢) . ومع ذلك أنقن السومريون كتابتهم تلك حتى أصبحت اللغة البابلية — قبيل انتهاء القرن الخامس عشر قبل الميلاد — لغة السياسة الدولية ، وأصبح الخط المسماري خط المراسلات فيها ، واستعمل هذا الخط لكتابة لغات كثيرة من لغات آسيا الغربية . على أن استعمال البردي في مصر أدى الى اختراع المجلدات أو الكتب ، بينما كان لألواح الطين في ما بين النهرين ميزة خاصة ، هي أنها لم تكن قابلة للتلف . وهكذا ظلت ألواح الطين متفرقة لا يجمع بينها جامع ، بخلاف صفحات البردي التي كان يسهل ضمها وجعلها كتبا مجادة . هذا مع العلم بأن قطاعا من البردي ومجلدات تامة منه قد حفظت الى يومنا هذا ، بفضل جفاف الجو في مصر ، بينما لم يكن بالإمكان حفظها لو أنها كانت في ما بين النهرين . أما ألواح الطين فيمكن أن تظل محفوظة سليمة في كل مكان ، ما لم يعتمد أحد أتلافها (٣) ، وهكذا نجد أنه لم يكن عند البابليين كتب كما كان عند المصريين ، ولكن البابليين عوضونا عن هذا النقص بخلق دوائر لحفظ الوثائق منسقة ، وبخلق مكاتب منذ عهد متقدم .

(١) السومريون شعب غير سامي سكن ما بين النهرين ، واكتسب كثيرا من خصائص الساميين فيما بعد . (ع . ف) .

(٢) الخط المسماري خط تصويري تشبه علاماته الشكل الجانبي للمسمار . وقد يسمى أيضا الخط الأسفيني ، لأن علاماته تشبه أيضا الشكل الجانبي للأسفين .

(٣) تجد وصفا شائقا لذلك في كتاب ادوارد كيارا : « لقد كتبوا على الطين » :

Edward Chiera (1885-1933): *They Wrote On Clay* (Chicago 1938).

ومعظم الناس يعرفون من عبقرية المصريين أكثر مما يعرفون من عبقرية البابليين ، وما ذلك الا للعجائب الباقية في الآثار المصرية من الأهرام والمسلات والهياكل العظيمة ، على حين أبنية الطابوق (١) في ما بين النهرين قد درست بعوادي الزمن ، أو خربت خرابا عجزت عنه يد الإصلاح . ولا ريب أيضا في أن مما ساعد على شهرة العبقرية المصرية وجود مسلات كثيرات تقوم في عواصم أوروبا ، وفي نيويورك أيضا ، وهي شواهد واعلان عن تلك العبقرية (٢) . ونحن على كل حال مدينون للأمتين كليهما بنشوء الفن والأدب والرياضيات والفلك والكيمياء وبصناعات أخرى ، وانا نحن الغربيين مدينون لهم بكتابتنا المقدس نفسه وبديننا وقواعد أخلاقنا دينا كبيرا .

#### أين كان مهد المدنية

ان الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تفهم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر ، أما الآن فانها أصبحت واضحة أجلى الوضوح ، بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت في تلك البلاد المحظوظة . والواقع لم يمض وقت طويل على الزمن الذي كان الدارسون يرون فيه أن جذور المدنية الغربية كانت في اليونان ، فيما يتعلق بالعلم ، وفي فلسطين فيما يتعلق بالدين . ثم لم يكلف الدارسون أنفسهم أن يذهبوا الى ما وراء ذلك . ولكننا نحن اليوم نعلم أن اليونان واليهود أنفسهم مدينون بذلك كله للمصريين والبابليين ، وربما لغيرهم أيضا من الأمم التي تقدمتهم . خذ مثلا ، في باب المعلومات العامة المتعلقة بالعلوم السابقة على عصر اليونان ، ما يلي من الكتب والبحوث :

- (١) الطابوق هو الآجر ( طين مشوى يبنى به في العراق ) .
  - (٢) وسع سارتون هذه الفكرة في مقال له عنوانه : أجريبا ، فونتانا وبيجافنا . نصب مسلة الفاتيكان سنة ١٨٥٦ م .
- Agrippa, Fontana and Pigafetta. The Erection of the Vatican Obelisk in 1856. (*Archives Internationales d'Histoire des Sciences*, No. 8, 1949, pp. 827 - 54, 14 figs.)



- الرياضيات قبل اليونان .
- نصوص مسمارية في الرياضيات ( ثلاثة أجزاء ) ، بالألمانية .
- نصوص مسمارية في الرياضيات ، بالانجليزية .
- نصوص بابلية في الرياضيات .
- أوراق البردى التى اكتشفها رند .
- الطب فى آشور وبابل .
- أوراق البردى فى الجراحة ، وهى التى اكتشفها أدوين سميث .
- أوراق البردى التى اكتشفها إيرس <sup>(١)</sup> .

هذا عدد من العناوين البارزة ، وهناك عدد آخر منها يمكن الاستشهاد به فى هذا المقام . على أن هذه المراجع قد ذكرت هنا لتتبع القارئ بأن الحكم المتعلق بما نحن بسبيله من قدم العلوم الشرقية ، وأنها سابقة على عصر اليونان ، قائم على معرفتنا الواسعة بذلك . ان معرفتنا بالعلوم السابقة على عصر اليونان كبيرة بلا ريب ، ولكن معرفتنا بانتقال هذه العلوم الى اليونان جزئية لسوء الحظ وناقصة أيضا .

ان العلم اليونانى لم يكن بدءا لحركة علمية ، ولكنه كان ذروة لجهود علمية ترجع الى ما قبل ألفى عام قبل ذلك . وان لدينا رسائل مصرية فى الرياضيات والطب تعود الى القرن السابع عشر ق . م ، ولكنها

---

Otto Neugebauer *Vorgeschichte Mathematik* (Berlin). (١) 1934; *Isis* 24: 151-53; *Mathematische Keilschrifttexte* (3 vols., Berlin 1935—37; *Isis* 26: 63—81; 28: 490—91); *Mathematical Cuneiform Texts* (New Haven, 1943; *Isis* 37: 96-97, 231).

François Thureau-Dangin : *Textes Mathématiques Babylonniens*. (Leiden 1938, *Isis* 31: 394-425).

Arnold Buffum Chace: *The Rhind Mathematical Papyrus*. (Oberlin 1927-29, *Isis* 14: 251-55).

Georges Contenau: *La Médecine en Assyrie et en Babylonie*. (Paris 1938, *Isis* 31: 99-101).

James Henry Breasted: *The Edwin Smith Surgical Papyrus* (Chicago 1930, *Isis* 15: 355-67).

B. Ebbell: *The Papyrus Ebers*. (Copenhagen 1937, *Isis* 28: 126-31).

مستقاة من كتابات أسبق عليها ببضعة قرون آخر . وقد تعود أطباؤنا ، اذا ذكروا أبو قراط <sup>(١)</sup> ، أن يسموه « أبا الطب » ، ولكن قد يكون من الخير لهم أن يذكروا أن أبو قراط ليس رأس الطب ، ولكنه يقف في منتصف تاريخ الطب بين امحوتب <sup>(٢)</sup> وبيننا . وكان امحوتب هذا وزير فرعون زوسر وطبيبه ، وقد اشتغل بالطب في مصر في القرن الثلاثين قبل الميلاد .

### لم ينشأ العلم في أوروبا بل في آسيا

وكذلك يحسن أن نعرف أن أقدم العلماء الطبيعيين اليونانيين ( دارسى الطبيعة ) <sup>(٣)</sup> لم يكونوا في أوروبا ، بل على الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى ، وفي الجزر القريبة من تلك الشواطىء . أجل ، انهم كانوا ينتمون الى جاليات <sup>(٤)</sup> يونانية ، ولكنهم كانوا متأثرين بالشرق . ثم ان اليونانيين أنفسهم كانوا ينظرون جنوبا أو شرقا للبحث عن مهد المعرفة والحكمة ، وسافر كثيرون من هؤلاء الى مصر وبابل لطلب العلم . وأنا سميت هؤلاء القوم يونانيين ، ولكن هذه التسمية تنقصها الدقة ، فان شعوب الشرق الأوسط وشعوب الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط تمازجت منذ مطلع القرن العشرين ق . م مرارا وتكرارا .

على أن آراءنا في هذه الأمور غشيتها الظلام بما افتعله المؤرخون القدماء عند تأريخهم للحروب الفارسية اليونانية من التنويه بأعمال اليونانيين المجيدة في معركة ماراثون البرية ( ٤٩٠ ق . م ) ، وفي معركة سلاميس البحرية ( ٤٨٠ ق . م ) . ويمكن أن توصف هذه الحروب بأنها صدام بين الاستبداد الآسيوى والشورى اليونانية ، ولكن من

(١) أبقرات أو أبو قراط أو بقراط (Hippocrates) طبيب يونانى قديم

مشهور .

Jamieson B. Hurry, *Imhotep, the Vizir and Physician* (٢)  
of King Zoser (2 ed. Ed., London 1928, Isis 13: 373-75, 14: 226)

(٣) الفلاسفة الطبيعيون أقدم فلاسفة اليونان الذين وصلت اليها

أخبارهم . ( ع . ف ) .

(٤) الجالية جماعة من قوم تعيش في أرض قوم آخرين . ( ع . ف )

التضليل أن نتحدث عنها كأنها حرب بين الشرق والغرب . فالفرس كانوا حلفاء للفينيقيين ، والفينيقيون كانوا بدورهم متأثرين بالمدنية الغربية ، كاليهود في يومنا هذا ؛ بينما كان كثير من اليونانيين قد اكتسبوا الصبغة الشرقية . ثم ان هذه الحروب لم تكن أيضا نزاعا بين الآريين والساميين ، فالفرس عريقون في الآرية كاليونان أنفسهم ، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين . وكذلك كانت الامبراطورية الآخامانية ( الفارسية ) كتلا متراكمة من جميع السلالات والأمم العائشة في الشرق الأوسط ، وهي التي تمازجت مرة بعد مرة مع مرور ألوف السنين . أما اللغة العامة في تلك الامبراطورية الفارسية الآرية فكانت الآرامية ، وهي لغة سامية .

ويجب علينا أن ننظر دائما الى الشرق الأوسط على أنه أرض تلتقى فيها الطرق وتفترق ، وقد اتفق لبعض الناس أن دعوا بلادنا ( الولايات المتحدة ) بوتقة <sup>(١)</sup> ؛ ولكن هذا الوصف ينطبق انطباقا أشد على الشرق الأوسط ، مع فارق واحد ولكنه عظيم جدا ، هو أن أمريكا قامت بهذه العملية نحو مائتي عام أو تزيد قليلا ، بينما الشرق الأوسط قد شهد هذا التمازج مدة تزيد على ذلك عشرين ضعفا .

### تأثير الشرق على اليونان

وإذا نحن رجعنا الى العلم اليوناني وجدناه قد تشرب بمؤثرات شرقية مختلفة ، من ايرانية وبابلية ومصرية . هذه المؤثرات يمكن أن تتبعها الباحث في كتب افلاطون <sup>(٢)</sup> فضلا عن كتاب يونانيين آخرين حيث الأثر الشرقي عندهم أشد وضوحا <sup>(٣)</sup> . وانه ليفيدنا أن نستعرض جميع

(١) البوتقة أو البودقة اثناء تصهر فيه المعادن ، كناية عن امتزاج الشعوب . ( ع . ف ) .

(٢) أفلاطون فيلسوف يوناني عظيم عاش من ٤٢٩ الى ٣٤٠ ق م ( ع . ف ) .

(٣) لمعرفة مدى الاثر الايراني راجع :

Joseph Bidez et Franz Cumont: *Les Mages Hellénisés* (2 vols. Paris 1938, *Isis* 31: 458-62), J. Bidez: *Eos ou Platon et l'Orient* (Bruxelles 1945, *Isis* 37: 185), F. Cumont: *Lux Perpetua* (Paris 1949).

واما لمعرفة مدى الاثر المصرى فراجع الحاشية ص ٢٣ مع متنها ثم ارجع الى :

الآراء الشرقية المملوحة في تأليف اليونان العلمية ، غير أن عملا مثل هذا يجلسنا زمنا طويلا ، ثم لا تكون أكثر من اشارات عارضة تتعلق بموضوعنا . ولكن بدلا من أن تفعل ذلك نرى أن ندع الماضي البعيد ، ثم نقفز في ثنايا العصور حتى نصل الى القرن السادس للميلاد ، لنقف عند العام المحتوم ، ٥٢٩ م ، حينما أغلق جستنيان جامعة أثينا ومنع تدريس الفلسفة ، في اليونان كلها . ثم فتح دير جبل كاسينو في إيطاليا لاحتضان الفلسفة . ولن نستطيع أحد أن يجد تاريخا أجدر من هذا ، ليكون الحد الروحي بين عصرين تواضع الناس على أن يسموهما العصر القديم والعصر الوسيط . في ذلك الزمن كانت الفرق <sup>(١)</sup> المسيحية في الشرق الأوسط : المارونية ، والنسطورية ، والجريجورية ، <sup>(٢)</sup> والقبطية ، والحبشية ، واليعقوبية (والأربع الأخريات يقول أصحابها بالطبيعة الواحدة في المسيح <sup>(١)</sup> ) قد ثبتت واتسعت الشقة بينها وبين الكنيسة العامة . على أن الذي كان أسوأ من ذلك أن تلك الكنيسة العامة تمزقت بالانشقاق الذي كان يزيد شيئا فشيئا بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية في الشرق ( اليونان ) وبين الكنيسة الكاثوليكية في الغرب ( إيطاليا ) . وبما أن القارئ قد يكون أقل علما بالانشقاق الأول في الكنيسة منه بحركة الإصلاح الديني البروتستانتية ، فإن الملاحظات التالية يمكن أن تعينه على فهم ذلك ، وخصوصا فيما يتعلق بالتعبير الآنف الذكر : القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح .

Robert William Rogers (1864-1930) : *Cuneiform Parallels of the Treatment*. (New York 1912). T. Eric Peet (1882-1934) : *Comparative Study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, Egypt's Contribution in the Literature of the Ancient World*. (London 1931). James Henry Breasted (1865-1935) : *The Dawn of Conscience*. (New York 1933. *Isis* 21 : 305-16).

(١) في الأصل الكنائس .

(٢) الفرقة الجريجورية منسوبة الى جريجوريوس بطريك الاسكندرية من أتباع أريوس . وكان أريوس اسكندريا أيضا ، وكان يقول أن المسيح ليس بآله ، بل هو مخلوق من لا شيء ، الا انه أول المخلوقات ، والخلايق جميعا اخوته . وكان جريجوريوس يقاوم الكاثوليكين حتى قتل عام ٣٤٨ م . راجع كتاب ديوان البدع للمطران جرمانوس فرحات ، رقم ٥٠ ، ٥٦ (ع . ف) .

نشأت الفرق الأولى في النصرانية من اختلاف الآراء في طبيعة المسيح ، أهو انسان أم اله ؟ أم أن له طبيعتين ، بشرية وآلهية ، مفترقتين أو ممتزجتين ؟ فالرأى المسيحى المعتبر في المسيحية صوابا كان يقول بأن في المسيح طبيعتين ( بشرية والهيبة ) ، ولكن في أقنوم ( شخص ) واحد . أما النساطرة أتباع نسطور الاسكندري فادعوا أن للمسيح طبيعتين وأقنومين ( شخصين ) <sup>(١)</sup> ؛ ولقد حكم مجمع أفسوس عام ٤٣٥ م على آراء نسطور بأنها كفر . على أن القائلين بالطبيعة الواحدة قد تمسكوا بالطرف الآخر من حبل الجدل وقالوا بأنه ليس في المسيح الا طبيعة واحدة وأقنوم ( شخص ) واحد ، وهؤلاء أيضا حكم عليهم مجمع خلقدونية بالكفر عام ٤٥١ م <sup>(٢)</sup> .

#### الستار الحديدى قديما وحديثا

يتكلم الناس اليوم عن الستار الحديدى الذى يفصل بين أوروبا الشرقية الخاضعة للنفوذ السوفيتى وبين أوروبا الغربية الواقعة تحت النفوذ الانجليزى الأمريكى . هذا الستار كان موجودا فى أثناء حقبة طويلة من العصور الوسطى بين العالمين اليونانى واللاتينى <sup>(٢)</sup> ، ولما أشرف القرن الثامن الميلادى على نهايته كان الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية قد أصبح تاما . وكانت العداوة بين اليونان واللاتين قد أصبحت شديدة الى درجة أن اللاتين لما أرادوا فيما بعد أن يستقوا من ينايع الحكمة القديمة فضلوا أن يتعلموا اللغة العربية لا اللغة اليونانية <sup>(٣)</sup> .

(١) ذكر المطران جرمانوس فرحات فى كتاب « ديوان البدع » ( رقم ٨٩ ) عن نسطور أنه قال : « ان مريم العذراء ليست بوالدة الله ، لأجل أن الله لا يمكن أن يولد من انسان . . . وحاشالى ان أعبد آلهة ابن شهرين . . . وكما أن المسيح فيه طبعان فكذلك هو ابنان ومسيحان : أحدهما اله من الله الاب ، والآخر انسان من أمه مريم . وهذا كان يسمى العذراء والدة المسيح لا والدة الله » ( ع . ف ) .

(٢) راجع فى ذلك أيضا : Introd. 3,53-55, 1057, 1830.

(٣) سبق لى أن عالجت هذه المسألة مرارا ، أى « الوحدة والتباين فى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط » .

## ظهور الاسلام

غير أننى أستبق الآن حوادث قصتى . يجب أن تقف هنا لحظة لأسرد عليكم ، بإيجاز على كل حال ، حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى فى تاريخ الانسانية ، وهى ظهور الاسلام . ولكن لكى نستطيع ذلك يجب أن تنتقل الى بقعة من أقل بقاع الأرض شهرة ، عندنا نحن الأميركيين ، أى الى بلاد العرب . من أجل ذلك كان وصف هذه البلاد أمرا مرغوبا فيه فى هذا الموقف . غير أننى سأوفر عليكم هذا العناء ، على كل حال ، اذ أعتقد أنكم تعرفون الأمور الأساسية فى الموضوع . ومن المرجح أن نفرا منكم حاضرون بيننا يعرفون عن شبه جزيرة العرب أكثر مما يمكن لى أنا أن أعرفه . لقد كانت شبه جزيرة العرب الى زمن قريب تعد بقعة من أشد البقاع محلا على وجه الأرض ، ولا غرو فالتقسم الأكبر منها أرض صحراوية واسعة مهجورة لا أنيس فيها . أو ليس غريبا اذن أن يتوجَّب على الانسان الذهاب الى مثل هذا المكان المهجور ، ليستنزل وحيا الهيا جديدا ! ولكن هذه القصة معروفة بينكم بلا ريب ، ويكفينى فى هذا المقام أن أعيد الى أذهانكم بضع ذكريات .

ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشى ( صلى الله عليه وسلم ) فى مكة نحو ٥٧٠ م . ولقد تألم جدا لحال قومه ، ولما كانوا فيه من الجهل والطمع والقسوة ، وافتراق الكلمة وهجر الفضائل . ثم صدع بالدعوة نحو عام ٦١٠ ، وعمره يومذاك أربعون سنة ، بعد أن عظمت خبرته بالناس ، وامتألاً صدره بإيمان متقد وطيد . فى ذلك الحين كانت مكة المركز الرئيسى للتجارة فى شبه جزيرة العرب . أما أهلها — وفيهم عدد كبير من الأغنياء ، ومن الذين رزقوا حظا من الجدل — فقد كانوا على شىء كثير من العناد . وسلك أهل مكة مع محمد ( صلى الله عليه وسلم ) كما سلك أكثر الأقوام مع أنبيائهم ، أن نصحه المشرب بالتهديد الضمنى كان يبدو مناقضا لمصلحتهم التجارية . ومع أنهم لم يكونوا من قبل قد فتحوا له قلوبهم قط ، فانهم بعد أن خرج نصحه لهم الى التهديد السافر ، أصموا عن كلامه آذانهم مرة واحدة .

وفي سبتمبر من عام ٦٣٢ ، بعد أن رأى الرسول محمد أنه لم يبق ثمّة فائدة من الصبر على عناد المكيين ، هاجر الرسول باتباعه الى مكان آخر ، يبعد نحو مائتين وعشرة أميال <sup>(١)</sup> شمالي مكة ، الى يثرب التي أصبحت تدعى منذ ذلك الحين مدينة الرسول ، أو المدينة المختصرا .

هذه الهجرة كانت حدا فاصلا في حياة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وفي تاريخ الدين الجديد ، لأنها البدء الرسمي للإسلام دينا ودولة معا . ثم لم يطل الأمر بعد ذلك حتى جعلت الهجرة مبدءا للتقويم الاسلامي ، أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

وكان محمد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) مثل اخوانه الأنبياء السابقين ، ولكن كان أعظم منهم نجاحا بما لا قياس فيه . ولقد كانت الآيات الكثر ، التي أوحى بها الله اليه بلسان عربي مبين ، يحفظها أصحابه غيبا ، أو يدونها ككتب الوحي منهم بعد نزولها مباشرة . ثم ان هذا الوحي الذي يتألف منه القرآن المجيد ، جُمع فيما بعد في مصحف واحد ، جمع مرتين : مرة عام ٦٣٢ م أيام الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، بإشراف زيد بن ثابت ، أحد كتبة الوحي وكبار الصحابة ، ثم أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، بإشراف زيد بن ثابت نفسه للمرة الثانية والأخيرة نحو عام ٦٥٠ م . وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة ، رتب ترتيبها الحالي في الجمع الثاني ، فجاءت السور الطوال منها أول المصحف ، والسور القصار آخره على التدرج ، ما عدا فاتحة الكتاب ، وهي قصيرة ، ولكنها جعلت السورة الأولى ، وما عدا سورا قصارا غيرها أيضا جاءت قبل غيرها من السور الطوال <sup>(٢)</sup> . وسورة الفاتحة يقرأها المسلم في صلاته كما يقرأ المسيحي أعداد « أبانا » . والقرآن أقصر من العهد الجديد <sup>(٣)</sup> ، ولكنه يختلف عن العهد الجديد اختلافا كبيرا . أنه

(١) نحو ٣٦٦ كيلومترا . ( ع . ف ) .

(٢) ترتيب سور القرآن الكريم أمر توفيقى يرجع الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم في جعل آيات السور على الترتيب الذي هي عليه وفي جعل السور مرتبة ترتيبها الحالي ( ع . ف ) .

(٣) المقصود بالعهد الجديد الأناجيل الأربعة : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا . وهي أربع روايات لحياة المسيح ، ثم أعمال الرسل ، ثم رسائل مار بولس وبطرس وسواهما ، ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي . ( ع . ف ) .

يتضمن أركان الايمان وأجزاء من القصص ، كما يتضمن أمور الفقه والتشريع والعبادة . وأروع أقسامه بالغة في أسلوبها البديع <sup>(١)</sup> . أما الرسول نفسه فكان زاهدا <sup>(٢)</sup> ، وفقها ومشرعا ، ورجلا عمليا ، وأحد أعظم الشعراء <sup>(٣)</sup> في تاريخ الأدب العالمى ، لو جاز لنا أن نعدده كذلك .

### الاسلام واركانه

أما اسم هذا الدين الجديد فهو الاسلام ، ومعنى « الاسلام » أن يسلم الانسان نفسه الى الله . وأما اسم أتباعه ، فكان مشتقا من المصدر نفسه : « المسلمون » . وقد كان الاسلام — كما أوحى به الى رسول الله ، وكما صدع به رسول الله — ديناً بسيطاً تقياً . ولكن اتفق أن عقلت به — كما اتفق لغيره من الأديان — شوائب من الاسرائيليات <sup>(٤)</sup> التى أتى بها قاصرو العقول ، أو من الجدل الذى أغرم به الفقهاء الظاهريون ، الذين يتمسكون بظاهر الألفاظ ، ويدعون الغوص على مقاصد الكلام ومعانيه . ولكن الاسلام في شكله الأصلي أمر باهر .

وأركان الاسلام الخمسة هي :

١ — الشهادة أو اعلان الدخول في الاسلام ، وهى قول : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

---

(١) أسلوب القرآن واحد ، وما الاختلاف الذى يخيّل الى غير العربى سوى تصرف الكلام حسب الأغراض بين وعد ووعد ، أو قصص وتشريع ، الخ . وهذا مطابق لتعريف البلاغة .  
(٢) فى الأصل متصوف .

(٣) لا يوصف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر ، لقوله تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغي له . ولكن عبقرية الشعر كانت موجودة فى رسول الله ، وإن كان رسول الله لم يلجأ الى نظم الشعر ، لأنه كان مشغولاً عنه بما هو أعظم منه ، بالرسالة . هذا التعليل هو للجاحظ ، وقد ورد فى البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبى ، القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م . الجزء الثالث ، ص ١٤١ - ١٤٢ . وقد سبق لى أن نشرته كاملاً فى مجلة الاولى ، بيروت ، السنة الثالثة ، العدد الاول - ٨ شعبان ١٣٥٩ و ١٠ ايلول ١٩٤٠ ، الصفحة العاشرة ( ع . ف ) .

(٤) الاسرائيليات حكايات وأخبار خرافية ، ومبالغات فى وصف المغيبات دسها نفر منافقون من اليهود ( بنى اسرائيل ) الذى أسلموا ، أو تظاهروا بالاسلام على الأصح ، فى التاريخ والفقه . غير أن علماء المسلمين عرفوا ذلك منذ الزمن القديم ، ولكن بما أن هذه الاسرائيليات تتفق مع عقلية العوام ، فقد ذاعت بينهم ، ثم خدع بها أيضا نفر من المسلمين . ( ع . ف ) .



٢. — اقام الصلاة خمس مرات في اليوم واليلة .  
 ٣. — الزكاة ، وهى الصدقة المقنعة التى يجب أداؤها على المسلم الميسور لمختلف المحتاجين من المسلمين .  
 ٤. — صوم رمضان .  
 ٥. — الحج الى مكة مرة واحدة فى العمر على المستطيع .

وليس فى أركان الاسلام هذه شىء ينفر منه غير المسلم ، ونظرا الى بساطة هذه الفرائض وقلة عددها ، لم يكن ثمة حاجة الى ادخال اصلاح ما عليها حتى تثبت العقيدة الاسلامية فى نفس كل مسلم أو تزيد قوة بعد ثبوتها ، ليسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلا . ان القيمة العملية للعقيدة الاسلامية لها دليل ذاتى من قوتها ورسوخها وانتشارها ، ليسهل فى أفريقية ، وفى جزائر الهند الشرقية — جاوة وسومطرة — ، وسواها من الأماكن .

وكان الرسول رجلا نزر العلم بالكتابة ، ان لم يكن أميا تماما (١) ، ولكنه كان ذا عبقرية عظيمة . ولقى الرسول أثناء رحلاته بالقوافل للتجارة فى شبه جزيرة العرب ، جماعة من اللاجئين اليهود والنصارى كان لهم من الثقافة الروحية ما لم يكن للبدو . وبما أن الرسول كان شديد الاهتمام بالدين ، فقد كان يتحدث الى هؤلاء . وهكذا نجد أن الرسول كان على علم بأمور كثيرة من التوراة والانجيل ، وبأشياء كثيرة من العقيدتين اليهودية والنصرانية ؛ وفى القرآن الكريم اشارات عديدة الى ذلك . وكذلك نجد فى القرآن عددا من قصص التوراة أيضا ، مع الفارق المنتظر لاختلاف الأحوال بين العصرين (٢) . والاسلام يمكن أن يعد اقتباسا من اليهودية

(١) ورد فى كتب الحديث والسير ما يفيد بأن الرسول لم يكن يجهل أشكال الحروف ، ولكنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة (ع . ف) .  
 (٢) كان كفار مكة يقولون للرسول أن أمورا كثيرة مما يرد فى القرآن يعرفها أجبار اليهود ويخبرون بمثلها ، فأنزل الله فى الرد عليهم قوله (سورة الشعراء - ٢٦ - ١٩٢ - ١٩٧) : « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين . وانه لفى زبر ( كتب ) الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ؟ هذا مع العلم بأن ما ورد فى القرآن من العقائد اليهودية والمسيحية لا يشبه ما عند النصارى واليهود اليوم ، ولا ما فى التوراة والانجيل . (ع . ف) .

أو النصرانية ، ولقد عدّه بعضهم كذلك <sup>(١)</sup> . ان محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) عرف أنبياء بنى اسرائيل واحترامهم ، وعرف مريم البتول والمسيح ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين <sup>(٢)</sup> .

### تاخر المسلمين حجب الاسلام

فالاسلام ، حسب هذا الرأى ، مكمل لليهودية وللنصرانية . الا أن الدارسين العدول يقولون ان الاسلام ثالث الأديان الكبرى التى يتم بعضها بعضا ، والتى ترجع الى مجموع واحد . والاسلام على أحسنه — كما يبدوا فى آثار السلفيين <sup>(٣)</sup> أى الفقهاء الذين يريدون أن يرجعوا بالاسلام الى ما كان عليه فى أيام « السلف الصالح » من الصفاء ، أمثال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده ، يذكر الباحث المسيحى بالمذهب الوحدانى الحديث <sup>(٤)</sup> . أما فى أسوأ مظاهره فقد علق به من

(١) ان القرآن نفسه يثبت صلة الاسلام بالشكل الأول الصافى من اليهودية والمسيحية حينما يقول : « ملّة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين » ( سورة الحج — ٢٢ : ٧٨ ) . فلما بدل اليهود دينهم جاءت النصرانية ، ولما بدل النصارى دينهم جاء الاسلام ، لاتمام ما لم يكن تاما فى اليهودية والمسيحية . ( ع . ف ) .

(٢) « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ( سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠ ) . هذه الآية هى فى رأى اليهود والنصارى مبرر للزعم بأن الاسلام بدعة يهودية أو مسيحية ، لأن ما يقال عن الاسلام أنه تكميل لليهودية والنصرانية هو فى رأى اليهود والنصارى انحراف . وكذلك نحن واجدون فى كتاب الحديث المشهور ( مشكاة المصابيح ) قولاً للرسول يدل على أن مريم حملت بالمسيح من غير اتصال ببشر ( Introd. 3 : 1066 ) . انتهت حاشية المؤلف .

ليس ثمت ضرورة الاستشهاد على هذا بغير القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يثبت أن مريم حملت بالمسيح من روح الله ، وهو يوجب على المسلمين هذا الاعتقاد . أما الكنيسة الكاثوليكية فانها لم تجعل هذا الامر من قضايا الايمان عندها الا بعد سنة ١٨٥٤ م ، أى بعد نزول سورة مريم بنحو ألف ومائتين وخمس وثلاثين سنة . ( ع . ف ) .

(٣) فى الأصل Puritans

(٤) المذهب الوحدانى Unitarian مذهب مسيحى ينكر اتباعه التثليث .

الخرافات أكثر مما علق ببعض أشكال العبادة في المذاهب الكاثوليكية والبيزنطية . على أن هذا لا صلة له بالاسلام نفسه ، ولكنه راجع الى أن أفراد الطبقات الجاهلة من عوام المسلمين هم نسيبا أكثر عددا وأشد تأخرا وأقل تثقيفا من جماهير العامة في ايطاليا وأسبانيا مثلا .

سوف ارجع الى الكلام على الاسلام وعلى ما أحدثه من النتائج العجيبة بعد قليل ، ولكن يجب على أولا أن أدل بأمثلة على عظمة الرسول من طرق مختلفة حتى أثبت صحة رأى .

### عبقرية اللغة العربية

ففى المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته ، فكان من الطبيعى أن يعلق عليها أهمية كبرى . أن الذين لا يعرفون سوى لغتهم — وخصوصا اذا كان التعليم يقل بينهم — يميلون عموما الى أن يعدلوا لغتهم هى الأساسية أو الوحيدة . ثم أن الوحي نزل على الرسول باللغة العربية <sup>(١)</sup> ، ( ونحن لا ندهش اذا سمعنا ذلك ) . وهكذا كانت العربية لغة الله ، ولغة الوحي ، ولغة أهل الجنة . ولقد أكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية ، فكان من نتائج ذلك الخيال ، ثم من نتائج هذا الاتجاه العقلى الواحد ، فى التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية ، ان أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة فى العالم ، واحدى الوسائل الأساسية للثقافة فى العصور الوسطى ، وهى الى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة فى جميع بقاع الأرض .

وليس بين هذه الفكرة — أى فكرة أن القرآن نزل بلسان عربى مبين — وبين الكلمات التى ترجع الى أصل أجنبى فى القرآن تناقض ، كما ذكر العلماء المسلمون منذ القرن الخامس عشر للميلاد <sup>(٢)</sup> ، كالسيوطى

---

(١) راجع سورة الشورى - ٤٢ : ٧ « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » . والآيات التى تؤكد صلة الوحي باللغة العربية كثيرة . ( ع . ف ) .

(٢) ورد ذكر ذلك قبل القرن الخامس عشر للميلاد ، ألف فيه الثعالبي والقرطبي ، وذكره المفسرون . ( ع . ف ) .

( ١٤٤٥ — ١٥٠٥ م ) ، أو كما ذكر آرثر جفرى فى كتابه : « مفردات القرآن الداخلية » <sup>(١)</sup> . لقد قسم السيوطى الكلمات الدخيلة فى القرآن أحد عشر قسما : الكلمات الحبشية ، والفارسية ، واليونانية والهندية ، والسريانية ، والعبرية ، والنبطية ، والقبطية ، والتركية ، والزنجية ، والبربرية . أما جفرى ، فيشير الى ما لا يقل عن خمس وخمسين لغة ولهجة دخل شئ من كلماتها فى القرآن الكريم ، وانه لما يلفت النظر أن تكون لغة معزولة عن الاتصال بالعالم الخارجى كاللغة العربية اشتملت منذ القرن السابع للميلاد على كلمات أجنبية بهذه الكثرة ؛ لكن لغة قوم رجل وقوم تجار فى الوقت نفسه — كما كانت اللغة العربية — لا يمكن أن تكون معزولة تماما . ان العرب كانوا يتجرون مع السريان ، والفرس ، والأحباش . ثم ان الذين كانوا منهم ذوى اتجاه دينى خاص ، كالرسول مثلا ، كثيرا ما كانوا يجدون فرصا مؤاتية للتحدث مع اليهود والنصارى . كل هذه الاتصالات تبدو الاشارة اليها فى القرآن ، وعلينا نحن أن نقر طبعاً بأن الرسول كان يعلم بوجود لغات دينية كالعبرية ، والسريانية ، واليونانية <sup>(٢)</sup> .

وهنا اسمحوالى أن أستطرد قليلا ، وأن أبدي ملحوظة هى أن نشوء اللغات وتطورها — وهنالك ألوف منها — انما هو أحد الأسرار الغامضة فى الحياة . ان بعض هذه اللغات روائع من العبقرية ، ومن المنطق المتسق ، ومن التشابك فى الوقت نفسه . وانه لمن المستحيل أن نفهم كيف نما هذا البناء المتشابك الجميل لهذه اللغات . ذلك لأن نمو اللغات خارج عن نطاق الشعور الى حد بعيد . ان اللغات الطبيعية كانت موجودة قبل أن يفكر الانسان بالنحو أو باللغة أيضا ، وبزمن طويل . ولا ريب أبدا فى أن روائع الأدب اليونانى كانت قد دونت حينما وضع كتاب النحو

Arther Jeffery : *The Foreign Vocabulary of the Qur'an*. (Gaekwad's Oriental series, vol. 79, Baroda 1938).

(٢) لاريب فى أن العرب فى الجاهلية عرفوا بوجود لغات كثيرة ، وعرفوا شيئا منها ورد فى الشعر الجاهلى . ولما زعم مشركو مكة أن بشرا يعلم الرسول وينقل اليه أخبار الماضى ، نزل قوله تعالى ( النحل ١٦ : ١٠٣ ) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ( ع . ف ) .

الأول . ان جمال كل لغة يمكن أن يحلل وأن يوصف ، ولكن لا يمكن أن يعلل أكثر مما يمكن أن نعلل جمال عصفور ما أو زهرة ما . اننا في مثل هذه الأحوال يمكن أن نعجب مما نرى وأن نقول : « ما شاء الله » (١) . ولقد اتفق ( ولم يكن الرسول ليستطيع ذلك لو لم يكن مؤيدا بقبس من الوحي ) أن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات في الوجود . ان خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جدا ، ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابه والأنيق يسهل ايجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه كل انسان ، على نظام معين . لنأخذ مثالا على ذلك الجذر س ل م : سلم معناها : نجا ، حيا ، ألقى السلام أو التحية ؛ سالم : دخل في السلم ؛ أسلم : انقاد وخضع ، ومنها الاسلام والخضوع لله ؛ تسلم : أخذ شيئا من يد غيره ؛ السلام : التحية ، والسلم خلاف الحرب ؛ والسليم الصحيح غير المريض ؛ التسليم : الرضا والقبول ؛ الاستلام لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد ، التقييل . وهنالك مسلم ، ومتسلم مسالم وغيرها مما يعيا أحيانا على الحصر . ثم أن الاشتقاق يجرى على نظام معين ، حتى أن القارئ اذا مرت به صيغة جديدة ، فانه يفهم معناها من القرينة . وأذ دارسى اللغة العبرية ليستطيعون أن يفهموا هذه الخاصة في اللغة العربية كدارسى اللغة العربية نفسها ، ولكن الكلمات العبرية أقل طواعيا للتصريف من الكلمات العربية . وهكذا يبدو لنا كأننا هذه اللغة التي كان يتكلمها البدو ، قبل القرن السابع للميلاد ، قد كان مكتوبا لها أن تصبح أداة لتبليغ الدين ونشر العلم في العالم .

### لغة القرآن

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت ، بهذا التحديد ، كاملة وها نحن هنا أيضا أمام اتفاق عجيب ، فان الرسول ، مع أنه أمي ، كاذ

(١) استعمل الدكتور سارتون ، في النص الانجليزي ، التعبير العربى

« ما شاء الله » ( ع . ف . ) .

يملك ناصية اللغة<sup>(١)</sup> ، اذ آتاه الله بيانا ، وهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الالهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغته ، وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة ؛ وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد . غير أن هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعددة للتخاطب العادي ، وخصوصا حينما أصبح أبناء الأمم المختلفة يتكلمون العربية . ولكن القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة .

### الحج عامل موحد ورحلة علمية

أما في المقام الثاني فقد جعل الحج واجبا على كل مسلم مستطيع مرة واحدة على الأقل في العمر ، وقد كان الحج أمرا سهلا نسبيا لأولئك الذين يعيشون ، كالرسول ، في شبه جزيرة العرب ( ولم يكن أحد يومذاك يفكر بغير هؤلاء ) . (٢) : كان الحج سفرا غير بعيد الشقة ، وفي جو كان أولئك المسلمون الأولون قد ألفوه . ولكن لما انتشر المسلمون في بقعة واسعة من الأرض ، أصبح الحج أمرا فيه شيء كبير من المشقة ، ثم أصبح القيام به عاما واحدا أو أكثر من عام ، ينطوى على مصاعب لا تصدق ، وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفه . ومع ذلك فإن عددا كبيرا من الناس — وهذا يبعث حقا على الدهشة — كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق . أما الرؤساء فإن أكثرهم كان يحج في أغلب الأحيان أكثر من مرة ، مثال ذلك أن أبا القداء الملك المؤيد صاحب حماة

---

(١) جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أوتيت جوامع الكلم » ، وقال : « أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش » . ولا غرو فإن الله اختاره لرسالة عظيمة و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ( القرآن الكريم ، سورة الأنعام - ٦ : ١٢٤ . ( ع . ف ) .

(٢) الحق أن الاسلام أراد عند فرض هذا الركن من أركان الاسلام في الناس كلهم في بقاع العالم أجمع . وهذا ظاهر في آيات كثر من القرآن الكريم ومشهور لا فائدة من الاستشهاد عليه هنا . ( ع . ف ) .

حج ثلاث مرات على الأقل . وأما الرحالة العظيم ابن بطوطة <sup>(١)</sup> فقد حج ست مرات . وفي أثناء الموسم الذى خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان وكأنهما مكان انعقاد مؤتمر دولى ، وهنالك كان المهتمون بالقضايا المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء . ولم يكن المثقف يجتمع فقط الى الحجاج من كل جنس ، ويزيد معلوماته بدار الاسلام ( بالعالم الاسلامى ) ، ولكن الاحتفالات والحماسة البالغة التى كانت تنتج من ذلك كانت كلها تثبت ايمانه بدينه وبوحدة أمته .

ولم يكن بوسع أحد أن يتخيل وسيلة أبسط ولا أشد أثرا من الحج ، لضمان الوحدة الروحية بين المسلمين . ولقد سبق الاسلام الى فهم تلك الوسيلة وتحقيقها قبل أن يدعو انتشار المسلمين فى بلاد أجنبية وأجواء غريبة الى ازدياد الحاجة الى هذه الوحدة زيادة بالغة ، وأن الدارس للثقافة العربية ليدھش من السرعة التى كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الاسلامى . من ذلك مثلا أن وجوه الفلسفة والعلوم المتضمنة فى رسائل اخوان الصفا — وهم جماعة اشتهروا فى البصرة منذ النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد — قد عرفت فى الأندلس بعد زمن قصير جدا . وكذلك عرفت آراء مجيبى الدين بن عربى الأشبيلي الأندلسى فى الشام بسرعة ، لأن مجيبى الدين بن عربى استقر — بعد أن حج — فى دمشق حيث توفى فى عام ١٢٤٠ للميلاد. أما فيما يتعلق بالعلماء فان الحج كان مساويا للرحلة فى طلب العلم فى العصور الوسطى ، ولتبادل الأساتذة بين الجامعات ، وما يشبه ذلك ، فى أيامنا هذه . ولكنه كان أهم من هذه كلها ، لأن وسائل الاتصال العلمى الأخرى ( كالصحف والمجلات ) لم تكن قد عرفت بعد . ولقد كان بإمكان طالب العلم أن يجمع فى سهولة بين الدراسة والحج ، وإذا كان يتاح له أثناء ذهابه وإيابه أن يتوقف فى أماكن مختلفة مرات كثارا وطوالا بقدر حاجته ،

---

(١) عاش أبو الفداء فى النصف الاول من القرن الرابع عشر، وابن بطوطة فى النصف الثانى منه . *Introd.* 3 : 794, 1616 .

وأن يجتمع الى أئمة العلم في كل مدينة ، أو يجلس بين يدي الأساتذة المشهورين في الجامعات المختلفة ، حتى انه كان بإمكان الحاج أثناء حجه الطويل أن يتزوج مرة بعد مرة ( كما فعل ابن بطوطة ) ، وهكذا يتاح له أن يتصل بمصادر جديدة للمعلومات ، نتيجة اتصاله بأهل البلاد التي يتزوج فيها .

### الصيام امتحان للايمان ووسيلة للتنظيم

وأما في المقام الثالث فان فرض الصيام في كل نهار من مطلع الفجر الى غياب الشمس شهرا كاملا كان امتحانا قاسيا لكل مسلم ، وخصوصا من البدو . ولكنه كان وسيلة بارعة لسبرغور الايمان في صدر كل مسلم، ولتشيت ذلك الايمان أيضا . أن التقويم الاسلامي قمرى خالص ، ولذلك لم تكن شهوره تعود في كل فصل بعينه ، بل تدور مع العام من فصل الى فصل . وهكذا يأتي رمضان في كل فصل من فصول السنة ، فاذا اتفق أن جاء في فصل الحر كان الامتناع عن الشراب خاصة وعن الطعام شديدا على الصائم وقاسيا مؤلما ؛ وهذا يصدق خصوصا على أولئك الذين يقومون بأعمال يدوية جسمانية . على أنه يحسن هنا أن نزيد الى ما تقدم أن الأعمال التي تبطئ عادة في فصل الصيف تزداد بالصوم بطئا حتى تبلغ حدها الأدنى ، اذا اجتمع الصوم مع قساوة الجو في آن واحد . وهذه الملحوظة تصدق أيضا على الحج الذي يجب أن يتم في شهر معين من شهور السنة القمرية ، في ذى الحجة . أن هذه الفريضة تصبح أكثر مشقة اذا جاء ذو الحجة في أشد فصول العام حرا . على أن هذا لم يؤثر قط على الحجاج الذين يسكنون البلاد البعيدة من أولئك الذين يجب عليهم أن يقضوا عاما كاملا في السفر حتى يصلوا الى مكة المكرمة . أجل ، ان هذا قد جعل جهدهم السامى أكثر مشقة ، ولكن أكثر فضيلة أيضا ، وأجزل أجرا عند الله . ولا ريب أبدا في أن الحاج يستطيع أن يعرف الفصل الذى يقع فيه شهر ذى الحجة من سنوات تلو ، ثم يعين تاريخ حجه حسب ذلك . وهكذا يستطيع أن يختار موسم حجه في أكثر الفصول



اعتدالا أو في أكثرها شدة . ولقد كان في كل حين نوعان من الحجاج :  
الناعمون الذين يفضلون أن يؤدوا فريضتهم هذه بأقل جهد ممكن ، ثم  
الصابرون الذين يؤثرون أن تزداد المصاعب والآلام أمامهم كيما يزدادون  
فضلا وأجرا .

وأدرك الاسلام الحاجة الى تنظيم شديد كيما يقوى ايمان  
المسلمين وتتطهر قلوبهم ، ومن أجل ذلك كان الصيام والحج من  
التعارين التي تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام . ان كثيرا من  
الكنائس المسيحية ضعفت الى درجة التفه ، لتساهلها ولفقدان التنظيم  
فيها ، ولقلة ما تفرضه على أتباعها . ان اتباع هذه الكنائس اذا دفعوا  
اشتراكاتهم ( بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة ) صاروا من المؤمنين  
حقا . ان مثل هذه الكنائس قد تكون غنية ، ومع ذلك فانها ، من حيث التأثير ، في  
حكم المفقودة . فاذا كنتم تريدون اتباع كنائس ذوى ايمان ، فعليكم أن  
تفرضوا عليهم نظاما شديدا ، وأن تتطلبوا منهم تضحيات حقيقية . ولقد  
عرف محمد ذلك جيدا ، وهذه علامة ثانية من علامات عبقرية النبوة فيه .

### شُرود الخمر

وفي المقام الرابع ، حرمت الخمر في الاسلام ( في القرآن وفي  
الحديث معا ) ، قبل أن يكتشف العلم أن التقطير ينتج أشكالا مركزة من  
ذلك السم بسهولة ، أو قبل أن يستخدم الناس التقطير في سبيل ذلك  
على الأقل . جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر  
والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم  
تفلحون ( سورة المائدة — ٥ : ٩٠ ) . أما لفظ المسكر في الاسلام فلا  
يطلق على الخمر وحدها بل على كل ما يخمل العقل ، لذلك قال الرسول :  
« كل ما أسكر فهو حرام » ( البخارى ٧٤ : ٣ ) وقال أيضا ( أبو داود

(١) الميسر هو القمار ، الانصاب هي الأصنام ، والأزلام قذاح الاستقسام  
أى سهاما مكتوبا ، عليها نصائح مختلفة ، فاذا أراد أحد أن يفعل شيئا هاما  
سحب سهما ، ثم عمل بما هو مكتوب عليه ، والرجس هو الخبث والنجاسة .

٢٥ : ٥) : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وهكذا كان الاسلام بعيد النظر ، فمنع شرورا لم تكن وجدت بعد ، أو لم تكن قد انتشرت هذا الانتشار الواسع ، أو لم تكن أصبحت خطرة بمقدار ما هي الآن . وهكذا لم يكن بإمكان المسلم أن يتناول مسكرا وضميره مطمئن ، فاذا تعاطى مسكرا فانه يكون مرتدا أو منافقا .

وخلاصة القول ان الرسول ( عليه السلام ) جاء بدين توحيدى قبل أن يقوم فى النصرانية من يقول بشرعة التوحيد بتسعة قرون . ثم انه شعر بتفوق اللغة العربية ، من غير أن يكون عارفا بلغة غيرها . وكذلك نجح فى الدعوة الى ايجاد مركز ثقافى للاسلام فى الحج ، قبل أن وضح للعالم الى أى حد سيكون مثل هذا المركز هاما لنشر الاسلام بين أجناس كثيرة وفى أمم متعددة . ثم كان منع السكر فى الاسلام قبل أن أصبح السكر مصيبة عامة ، كما هى فى أيامنا هذه ، بزمان طويل .

### اثر اللغة فى حفظ الدين

واسمحوا لى الآن أن أؤكد انه لم يتح لنبي من قبل ، ولا من بعد ، أن ينتصر انتصارا تاما كانتصار الرسول محمد . ان الاصرار على تفوق اللغة العربية — خاصة — أو على حاجة الدين اليها هو الذى جعل لها انتشارها الحاضر ، ثم حفظ لها هذا التفوق قرونا عديدة . ولولا هذا الدفاع الضمنى لبقيت اللغة العربية لغة قليلة بلا قيمة عامة ، أو لاضمحلت تماما ، ولكان شأن العرب فى ذلك شأن نصارى الشرق الأوسط الذين تركوا لغتهم المقدستين — السريانية والقبطية — حتى زالتا . من أجل ذلك لم يكن محمد نبي الاسلام فجسب ، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية ، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم .

### سرعة انتشار الاسلام

ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مذهشة . وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى فى تاريخ وجودها موحدة على

أساس متين ، على أساس الدين . ومن الأدلة الصحيحة على القبول السريع للإسلام وضع التقويم الهجرى والتاريخ الجديد ( ١٥ يونيه ٦٢٢ ) ، ولكن غير المسلمين لا يستطيعون أن يقدروا ذلك حق قدره ! لقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من الهجرة ، على حين احتاج النصارى الى ألف عام لوضع التقويم المسيحى . ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم الإسلامى ورود الحث عليه فى القرآن الكريم <sup>(١)</sup> ، ولذلك كان جزءا أساسيا من الإسلام <sup>(٢)</sup> .

وفى هذه الأثناء اتسعت رقعة الإسلام بالسيف <sup>(٣)</sup> . ولقد كان

---

(١) كانت الأشهر العربية فى الجاهلية قمرية ، وكانت السنة مؤلفة من اثنى عشر شهرا . ولكن بما ان دورة القمر حول الارض تتم فى نحو تسعة وعشرين يوما ونصف يوم ، فان السنة القمرية تقصر نحو أحد عشر يوما عن السنة الشمسية ، فتختلف مواقع الأشهر القمرية فى الفصول بين عام وعام . من أجل ذلك كان العرب يجعلون كل سنة ثلاثة ثلاثة عشر شهرا حتى يظل التوافق بين السنتين القمرية والشمسية قريبا - فيما يتعلق بالفصول . وهذا الشهر الثالث عشر فى كل سنة ثلاثة كان يسمى النسيء ( أى المتأخر ) . ولقد حرم الإسلام النسيء، ورد السنة الهجرية قمرية بحثا . جاء فى سورة التوبة ( ٩ : ٣٦ وما بعدها ) « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا . . . . . انما النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليوطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » ( ع . ف ) .

(٢) الفرق بين القرآن والانجيل عظيم جدا ، وهو يرجع الى أن القرآن الكريم قد صدع به النبى نفسه . . . . . والى أن القرآن يشتمل على جميع الأسس الضرورية للحياة الإسلامية : الدين والفقه والتشريع والتقويم واللغة . اما الانجيل فلم يتعرض للغة . ونحن اذا صرفنا النظر عن نحو ألف لهجة نقل اليها الانجيل وجدنا ان الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت تقريبا فى استبدال لغة الانجيل الاصلية بلغة ثانيه (مقدسة) هى اللغة اللاتينية . ثم ان الانجيل لم يوجد تقويما ، والتاريخ المسيحى ( الميلادى ) وضعه راهب سيثى اسمه ( يونسيسوس اكسيغوس ) نحو عام ٥٢٥ م . ولقد كان قبول هذا التاريخ بطيئا وتدرجيا حتى ان البلاط البابوى نفسه لم يستعمله استعمالا دارجا الا فى القرن العاشر الميلادى .

(٣) معظم المؤرخين الغربيين يجهلون موضع السيف فى الفتوح الإسلامية ، والنص ان العرب لم يكن يقبل منهم الا الإسلام ، فان لم يدخلوا فى الإسلام قوتلوا ، وعلى هذا ، الحديث : امرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله

الفاتحون في ذلك محظوظين ، بقدر ما كانوا شجعانا . ان انتصارات العرب لم تكن نتيجة لقوتهم الذاتية ، ولا لحمتهم التي كانت بلا ريب عظيمة ، بقدر ما كانت نتيجة لضعف خصومهم واختلاف كلمتهم . ولقد كانت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية مترعزعتين تريدان أن تنقضا منذ قرون سبقت ، كما أن كل واحدة منهما أضعفت أختها بالحروب التي لم تتوقف بينهما قط . ثم ان ادارة البيزنطيين الدينية والسياسية كانت أرهقت نصارى آسيا ، وبلغت في معاملتهم من الاحتقار والظلم حدا جعل أولئك النصارى متأهبين لأن يخونوا سادتهم من أبناء ملتهم ، حينما يجرؤ على أرضهم عدو ما . انه لم يكن بإمكان احدى تينك الامبراطوريتين ( الفارسية والبيزنطية ) ان تثبت في وجه العاصفة . وهكذا نجد أن قصة الفتوح الاسلامية الأولى قد سارت في الشرق القديم كما سارت فتوح هتلر خلال وأوربا في عصرنا الحاضر : سقطت دمشق في عام ٦٣٥ ؛ ثم كانت معركة القادسية ، في العراق في العام نفسه ، كما أن القدس استسلمت ، ثم اجتاحت بلاد ما بين النهرين في عام ٣٦٧ للميلاد . وكذلك فتحت مصر ما بين عام ٦٤٠ وعام ٦٤١ ، ثم انتهى فتح فارس في عام ٦٤٢ م . أما فتح الأندلس فتأخر عن ذلك قليلا ، اذ تم في عامين اثنين بين ٧١٠ و ٧١٢ للميلاد ، أى بين سنة ٩١ و ٩٣ للهجرة . وهكذا تمت جميع هذه الفتوح في أثناء القرن الأول للهجرة (١) .

= الا الله ، وعليه الآيات الواردة من السورة التاسعة من القرآن الكريم ، (النصارى واليهود) من غير العرب فكان سورة التوبة أو براءة . اما أهل الكتاب من حقهم أن يظلوا على اليهودية أو النصرانية ، اذا دفعوا جزية - ضريبة مقطوعة لبست مال المسلمين - مقابل الدفاع عنهم وعن أموالهم ، ومقابل اعفائهم من فريضة الجهاد ، أى الذهاب مع الجيوش الاسلامية الى الحرب .  
( ع ٠ ف )

(١) راجع تفاصيل ذلك في Philip Hitti : *History of the Arabs* (London 1937, *Isis* 28 : 503-04), fourth edition (1949).

نقلت الطبعة الرابعة من كتاب الدكتور فيليب حتى الى العربية بعنوان: تاريخ العرب ( مطول ) في ثلاثة اجزاء بيروت ، دار الكشاف للنشر ١٩٤٩ - ١٩٥١ ( ع ٠ ف )

## صراع بين الحديث والقديم

ولكى نستطيع أن نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نذكر أن العرب لم يكونوا الى ذلك الحين هجروا حياتهم البدوية تماما ، ولذا شبه بعض المؤرخين الفتوح العربية في آسيا وأفريقيا وأوربا بهجرات البرابرة ( الهون والقوط والوندال وسواهم ) ، وهى الهجرات التى قوضت أركان الامبراطورية الرومانية الغربية ( ٤٧٦ م ) ، ثم استمرت فى تدمير معالم المدنية فى أوربا قرونا كثيرة بعد ذلك . ان البدو لم يكونوا مختلفين عن الهنود الحمر — فى محاسنهم ومساوئهم . ولقد يبدو لبعضنا مع النظرة الأولى أن فتح العرب للبلاد التى بلغت الذروة من المدنية ( فارس واليونان ) كان أمرا يحمل فى نفسه تناقضا شديدا ، أمة متأخرة فى ركاب المدنية تحمل مشعل الحضارة والرقى الروحى الى بلاد بلغ أهلها الذروة من الحضارة والرقى . لتخيل مثلا أن الهنود الحمر قد نجحوا فى اخضاع الأوربيين الذين طرأوا على أمريكا ، ثم ذللوهم فى خدمتهم . ( فهل فى ذلك شئ معقول ؟ ) . على ان هذه الموازنة ( بين العرب وبين الهنود الحمر ) قد تفيد فى تبيان الفارق بين الفاتحين وبين ضحاياهم <sup>(١)</sup> ، ولكنها غير صحيحة فى أساسها . ان الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين ، ولكهم كانوا موحدين تماما ؛ وكان يعمر قلوبهم ايمان وطيد ، وفى هذه أيضا انتصر النبى انتصارا بينا . ان الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع ، وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون فى سلم المدنية ، بل كان فى الأكثر صراعا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة فى المحل الأول ، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة فى المحل الثانى . هذه الفتوح كانت الى حد بعيد تتخذ طبيعة حرب ضد الصليبيين ، ولذا كانت انتصارا للهلل على الصليب .

هذه التفاصيل لتلك الجهود المدهشة فى الفتح الاسلامى تهم المؤرخين

---

(١) يقصد المؤلف أهل البلاد المفتوحة ، مع ان جميع المؤرخين وفيهم الدكتور سارتون نفسه يعدون فتح العرب للشرق الأوسط انقاذ لاهله راجع ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ( ع ٠ ف ) .

السياسيين ، ولكن الحالة النفسية للأسس التي تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجانبين ( بالعرب ثم بالروم والفرس ) هى ذات أهمية كبرى لمؤرخى العلم . لقد سبق للإيمان المسيحى أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التى امتدت قرونا عديدة ، وبالحرقات (١) المتبادلة ، وأدى ذلك الى استقبال النصارى فى الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية . ثم ان الاسلام — من ناحية أخرى — كان لا يزال غضا موحدا ، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظيمة بالثروة والسلطة فى هذا العالم ، وبالثواب الخالد فى العالم الآخر . وكان الايمان فى الاسلام بسيطا ، كريما ومعتدلا ، ومع ذلك فقد كان بالامكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس الى حد بعيد ، فينقلب المجاهدون حينئذ ذوى حمية اما أن يبلغوا بها الظفر ، أو أن يسقطوا دونه شهداء ؛ لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم شيان . ومع أن الشعوب الاسلامية لم تكن عاجزة عن التسامح ، فان قوتها كانت فى الدرجة الأولى نتاج الشعور بالتفوق الذى خلقه فى نفوسهم النصر السهل الذى فتحوا به البلاد ، كما أنه كان أيضا نتيجة احتقار أصيل فيهم للدخلاء (٢) .

---

(١) الحرمان تعبير كنسى مسيحى مؤداه ان تصدر سلطة دينية على أحد الافراد التابعين لها — عمليا أو نظريا — حكما تعد به هذا الفرد خارجا عن نعمة الكنيسة وعن حمايتها ، فتحظر معاملته ودفنه . . حتى يتوب . (ع، ف) .

(٢) أظنب السير توماس ارنولد (٦٤ - ١٩٣٠ م) فى وصف التسامح عند الشعوب الاسلامية نحو غيرهم من الشعوب ، وذلك فى كتابه : *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith* (London 1896; reprinted 1913) رغبة منه فى أن يظهر بمظهر الصديق لهم . اما المجادلون عن الاسلام فيستشهدون عادة بالآية ٢: ٢٥٧ : « لا اكراه فى الدين » . ولكن ثمة اشارات كثيرة فى القرآن والحديث تشرح فریضة الجهاد ومقاتلة المشركين (1274, 1722, 1862 : 3 Intro.) وهكذا يستطيع الانسان — فيما يتعلق بالتسامح — ان يظهر المسلمين فى صورة وضاعة ( كما فعل ارنولد ) ، أو فى صور حالكة شديدة الظلمة ؛ وهذا يصدق أيضا على النصارى .

## تسامح العرب

ولم يستطع الغزاة المسلمون في بدء فتوحهم أن يمعنوا في التضييق على أهل البلاد المفتوحة ، لأنهم كانوا بحاجة الى التعاون معهم <sup>(١)</sup> . لقد كان أبناء البادية <sup>(٢)</sup> شديدي الجهل الا بدينهم وبأشعارهم ، ولو لم يتصفوا بالتسامح لما قدروا على ادارة البلاد التي فتحوها . ولقد كان من حسن حظ المسلمين أن وجدوا — في البلاد التي فتحوها — نفرا من اليونان ، والسيان ، واليهود ، والأقباط ، وأهل العراق ، وأهل الأندلس ، وسواهم يريدون أن يخدموهم . على أننا اذا قلنا ان العرب قد احتاجوا الى المعونة العادية من هؤلاء الأجانب ، فإن قولنا لا يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الامبراطورية الاسلامية شيدت على التعاون مع اليونان والفرس والأقباط وغيرهم ، نصارى ومجوسا وصائبة ويهودا . والعرب لم يحتاجوا الى معونة هؤلاء في الدين والآداب — أو هكذا خيل اليهم — ، ولكنهم أدركوا بسرعة مدهشة أن التفوق الثقافي الذي امتاز به الأجانب انما كان راجعا في الأكثر الى جهازهم الفنى والعلمى .

هذا الادراك هو الذى فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربى ، وأوردت كلمة معجزة لترمز الى تفسير ما بلغ اليه العرب فى الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريبا عن نطاق التصديق . وليس لذلك شبه فى تاريخ العالم كله ، ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث ، وللمبراعة الفنية

(١) ان سبب تسامح المسلمين كان حثا من دينهم على ذلك ، ولم يكن لسبب مادى كالتعاون مثلا مع أهل البلاد المفتوحة . ( راجع الحاشية السابقة ) ( ع . ف ) .

(٢) يخطئ معظم المؤرخين الغربيين حين يظنون أن العرب كلهم كانوا أهل بادية ، اذ كان فيهم أهل مدن ايضا ، ولقد أنجبت البادية كما أنجب الحضار ! ( ع . ف ) .

في أثناء العصر الميجي <sup>(١)</sup> . ان هذه الموازنة مفيدة ، لأن الموقف كان في الحالين واحدا . ان قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة الى العلم اليوناني ، بقدر ما أدرك اليابانيون في الجيلين السابقين حاجتهم الى العلم الأوربي الحديث . ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة ، الحاجة الملحة . على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالارادة ، وبنوع من النشاط الروحي الذي يتغلب على المصاعب الشاقة ؛ وانه لم يكن لأبناء تينك الأمتين اختبار كاف ولا اضطبار على التوقف للتأمل في المصاعب فيخافوا منها ، بل انهم هجموا عليها هجوما . وكل شيء يصبح أهون في أعيننا اذا لم نتوقف لتتخيل ما فيه من صعوبة .

### نهضة العرب العلمية

ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ الا منذ القرن الثاني للهجرة . ان الرسول كان عظيم الاهتمام بالآخرة ، وبقضايا الأخلاق والدين مما يتعلق بهذه الحياة الدنيا ، حتى انه لم يستطع أن يصرف اهتمامه الى العلوم <sup>(٢)</sup> . على أن نقرا من المعتزدين عن الاسلام في العصر الحديث حاولوا أن يقرأوا عددا من الآراء

---

(١) يشير المؤلف هنا الى زمن الامبراطور مو - تسو - هي - تو (١٨٦٨ - ١٩١٢) ، قريب من نصف قرن . هذه المدة كانت أقصر من المدة التي قضاهها العرب في اكتساب الثقافة اليونانية ، غير أن هذا كان طبيعيا جدا ، فان كل شيء كان في العصور الوسطى أبطأ سيرا ، ولم يكن عند العرب أيام نهضتهم الثقافية تلك الادوات العجيبة التي تستعجل الخطوات التربوية ( الطباعة ، والمحركات البخارية ، والتلفراف وسواها ) . ان اكتساب اليابانيين للثقافة الصينية كان موازيا في طول المدة لاكتساب العرب للثقافة اليونانية ، ولكنه ( أى الاكتساب الياباني ) وقف عند ذلك الحد ، بينما لاكتساب العربى كان حلقة في تطور ثقافتنا (العربية) . من أجل ذلك يمكننا هنا في الغرب أن ندع دراسة الثقافة اليابانية جانبا، ولكننا لانستطيع فعل ذلك بالثقافة العربية الا اذا أردنا أن نتحمل شيئا من الخسارة .

(٢) سبق أن ذكرنا رأى الجاحظ في هذا الموضوع . راجع أيضا مقدمة ابن خلدون ( المطبعة الأدبية ، الطبعة الثالثة ١٩٠٣ ، ص ٤٩٤ ) : « فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ... » . (ع.ف).



العلمية في القرآن . ولكن هؤلاء لا يستطيعون ذلك الا اذا خلعوا على بعض الكلمات معانى لم يكن بالامكان ان تخطر لأحد في عهد الرسول ، ولا لمن جاء بعد ذلك بقرون كثيرة (١) . وكذلك الخلفاء الراشدون ، فانهم لم يكونوا أكثر اتجاها نحو العلوم من الرسول ، لاشتغالهم مثله بما كان أعظم شأننا : بنشر الدعوة وبالفتوح . وهكذا يبدو لنا أن اليونانيين الذين كانوا في خدمة العرب كانت معرفتهم بالأعمال والادارة أكثر من معرفتهم بالعلوم ، كما يبدو لنا أيضا أن هؤلاء كانوا قد فقدوا تذوقهم للرقى الفكرى الذى حققه أسلافهم .

### عبقريّة العرب العلمية

وخلاصة القول أنه لم يكن ثمة علم في المدينة ، أو في مكة ، أو في دمشق ، ومعجزة النهضة العربية لم تكشف عن نفسها قبل تأسيس الخلافة العباسية في بغداد . ولكن ماذا حدث هنالك ؟ لقد نشطت العبقريّة العربية بفعل الخميرة الايرانية . ان محاسن الأمتين العربية والفارسية ( ومساوئهما ) كان بعضها يتم بعضا . وهكذا نرى أن معجزة العلم العربى كانت ترجع في الأكثر الى الأثر (٢) الذى حدث بفعل النشاط والجد العربيين ، وبفعل الايمان الاسلامى فى الفضول والجدل الفارسيين . أو بكلمة أعم ، أن العلم العربى كان ثمرة للعبقريّة السامية

(١) أوضح الأمثلة على مفارقة حسن التعليل فى ذلك ما وقع فيه الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره الكبير « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » ( ٢٦ جزء ، طبع عام ١٩٢٢ م وما بعدها ) ، وفى غيره من الكتب مثل التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم ( ١٩٠٦ م ) وهو - فيما يظهر - اختصار لكتاب آخر أكبر حجما ، وقد نقل الى الفارسية والتركية . راجع Charles Clarence Adam : *Islam and Modernism in Egypt* P. 245. (1933) وقد تفضل بنقل هذه المعلومات الى زميلى فى جامعة كولومبيا (Arthur Jeffery) فى رسالة مؤرخة نيويورك ١٥ مارس ١٩٥٠ .

(٢) استعمل المؤلف لفظة Catalization ، وهى لفظة مستعارة من مختبر الكيمياء ، فان التعبير Catalytic agent يقابله فى العربية التعبير « عامل مساعد » ، أى « الخاصة التى تكون فى مادة فتؤثر فى مادة أخرى (تحللها) من غير أن تتأثر هى » . ( ع . ف ) .

التي خمرت بالعبرية الفارسية . ومع أن هذا التعبير عام جدا ، فإنه يساعدنا على تفهم ما حدث في بغداد على وجه التقريب ، حيث استطاع الحكام المسلمون في مدى قرنين ( ٧٥٠ — ٩٥٠ م ) أن يدفعوا رعاياهم من أولئك الذين يلمون بلغات متعددة — وأكثر هؤلاء نصاري أو يهودا — لنقل المعارف اليونانية الى اللغة العربية .

يحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين . ان هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح ، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا أكثر من ذلك الظمأ الذي تملك على القادة العرب حواسهم ، في سبيل المعرفة . على أننا لا نشك في أن قسما من هذه المعرفة احتاج اليه العرب حاجة مباشرة للإدارة وللحكم ، غير أنهم مروا مراسريعا من هذا الطور النفعي الى طور أسمى منه . فالطب ، كما يقال ، كان فنا عمليا ، وكذلك الفلك ، اذا أريد به التنجيم فقط . ولكن العرب نقلوا الى لغتهم شيئا كثيرا من الرياضيات والفلسفة ، مما يعد في أسمى المعاني الأفلاطونية<sup>(١)</sup> . ولقد يعترض معترض فيقول ان النقلة كانوا في الأكثر أجنب غير مسلمين ، وغير عرب في الأغلب أيضا . وهكذا وجب أن يكون كل فضل لهؤلاء النقلة وليس لهؤلاء الذين استأجروهم . لا ، أن الفضل يجب أن يكون للفريقين . لقد كان النقلة أجنب لسبب بسيط ، هو أن عملية النقل تحتاج الى شيء من المعرفة بلغات متعددة ، مما لم يتوفر للفاتحين . ان الناقل من لغة الى لغة يجب أن يكون قديرا جدا في اللغتين معا ، وتلك الميزات اللغوية التي توفرت في الأجنب كانت ضرورية ، ولكن لم تكن كافية . ان كل عمل — وخصوصا اذا كان طويلا ومرهقا — لا يمكن أن ينهض به ما لم يكن ثمة أحد يحتاج اليه حاجة ملحة ، وما لم يكن فوق

---

(١) الافلاطوني هنا ( نسبة الى أفلاطون ) هو الروح الخالص من العلائق المادية أو الأسباب النفعية ، ويمكن أن يقابله في العربية الحب العذري ، الميل العذري ، الاتجاه العذري ، المعنى العذري ، الخ . نسبة الى بنى عذرة — اذ أشتهر بنو عذرة بالحب الروحي البعيد عن الصلات المادية . (ع.ف. )

ذلك مستعدا لأن يرزق الشخص الذي يريد أن ينهض به . والحكام العرب كانوا راغبين في عمل النقلة ، وكانوا كثيرا ما يتنافسون في ذلك منافسة شديدة ، أى كانوا هم البادئين والباديء أفضل .

### الابتداع والتقليد

ويحسن بنا أن نقف هنا قليلا لنسأل أنفسنا : ما التقليد ؟ كلنا طبعاً نقلد أبويننا وأساتذتنا وأبطالنا ، غير أن الأدياء منا يقلدون تقليدا رديئا ، فيحكمون ما ظهر من الأشياء . أما الرجال العباقرة ، فانهم يقلدون تقليدا خيرا ، ثم يبدعون منه أشياء جديدة . ان غاية التهذيب على الحصر هي التقليد الحكيم لأحسن الأمثلة ، انه تقليد المناهج لا تقليد النتائج . والتقليد العربى كان على مراتب متعددة ، وكان أنواعا متنوعة منها الجيد ومنها الردى .

أما مهمة نقل الآثار الفلسفية العلمية من اللغة اليونانية ، أو من اللغة السريانية ، الى العربية ، فهذه انطوت على صعوبات عظيمة . فالتقلة الأولون — حتى المتأخرون منهم أمثال حنين بن اسحق الذى شهد النصف الثانى من القرن التاسع للميلاد — اضطروا الى خلق كلمات جديدة لم يسبق أن اتفق التعبير عنها فى اللغة العربية . وكان هؤلاء النقلة اذا أتوا مثلا الى نقل شىء من آثار افلاطون ، أو أرسطو ، أو أقليدس ، أو أرخميدس ، أو ابقراط ، أو جالينوس ، ثم اصطدموا بمعنى جديد عليهم عمدوا فى التعبير عن ذلك المعنى اما الى ايجاد مصطلح جديدا ، أو التجأوا الى تعبير تفسيرى أعسر للمصطلح الأصلى <sup>(١)</sup> . وكذلك كانوا ، اذا استحال عليهم هذان الأمران معا ، يثبتون الكلمة اليونانية بلفظها الأصلى ولكن بالحروف العربية <sup>(٢)</sup> . غير ان هذا العمل لايجاد الألفاظ والمصطلحات الجديدة ،

---

(١) التعبير التفسيرى هو ان نعبر عن معنى كلمة واحدة بالفاظ متعددة ( ع . ف ) .

(٢) نجد فى النقول القديمة وفى الكتب الفلسفية المتقدمة تعابير أجنبية كثيرة ، أمثال جيومتريا ، اسطرونوميا ، وايديميا ( الهندسة ، ثم نحن لانزال اليوم نقول جغرافيا ) ( ع . ف ) .

كان لحسن الحظ ميسورا الى حد ما ، لمطاوعة اللغة العربية مطاوعة شديدة لاشتقاق الكلمات ( كما رأينا من قبل ) ، فان عددا كبيرا من الكلمات الجديدة يمكن الاتيان به من جذر قديم . ومع أن هذه الكلمات لم ترد في القرآن أو في الحديث ، فانها تنطبق على قواعد اللغة العربية انطباقا يصعب علينا معه أحيانا أن ندرك أنها جديدة ، حتى ان أحدنا ليكاد أن يحكم بأن هذه الكلمات قديمة قدم اللغة العربية نفسها ، وانها — ولو لم تكن استعملت من قبل — موجودة بالقوة ، ويمكن اللجوء الى استعمالها عند الحاجة (١) .

### رسالة العرب في العلم

معظم النقول العربية نقلت من اللغة اليونانية ، اما مباشرة أو بتوسط النقول السريانية . وبعض هذه نقلت من السنسكريتية ، وربما من لغات شرقية أخرى . غير أن معرفتنا بما استعاره العرب من اللغة

(١) للاطلاع على عدد من هذه الصعوبات في ايجاد المصطلحات العلمية

انظر :

Amélia Marie Goichon : *Lexique de la Lanque Philosophique d'Ibn Sina*, 510 Paris, 1938; *Isis* 33 : 326-29). ومشكلة ايجاد المصطلحات في اللغة العربية تعود اليوم الى الظهور بشكل واضح جدا ، وعلى الرغم من القوى الكامنة في اللغة العربية لاشتقاق الكلمات الجديدة ونحتها ، فان الحلول الصالحة غير متيسرة دائما . وهكذا نجد اللغة العربية الحديثة مملوءة بالكلمات الهجينة ، كما هو الحال في اللغة الانجليزية تقريبا . أما فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فانظر القاموس المستفيض الذي نشرته وزارة المعارف المصرية : Mohammad Sharaf : *English Arabic Dictionary of Medicine, Biology and Sciences.* (quarto, 1048 pp. Cairo 1929; *Isis* 14 : 537).

ومن المؤكد أن عددا من هذه الصعوبات ينجم من جديد ، كلما أريد نقل مجموع من المعلومات الى لغة ليست معدة لمثل هذا النقل . فاعلماء الذين باشروا النقل من العربية الى اللاتينية في العصور الوسطى واجهوا تلك الصعوبات ، وكذلك علماء العصر الميجي (راجع الحاشية ١ ، الصفحة ٣٧) الذين نقلوا من اللغة الانجليزية ( ومن غيرها من اللغات الاوربية ) الى اليابانية وجدوا أنفسهم أمام المشكلة ذاتها . وهكذا نجد أن كل حال تساعد تبيان الأحوال التي سبقت . أما في ما يتعلق باليابان خاصة فارجع الى : Sir George Baily Sansom : *The Western World and Japan* (pp. 399-404, New York 1950, *Isis* 41).

السنسكريتية وغيرها من اللغات الشرقية لا تزال ناقصة ، لأن العلماء الذين عرفوا العربية والسنسكريتية ( والفارسية والصينية وسواهما ) كانوا قليلين . وهذا يدل على مظهر آخر من مظاهر الابتكار والمبادأة <sup>(١)</sup> عند العرب . ان العرب لم يستغلوا الآثار اليونانية فحسب ، بل أغلب الظن أنهم لم يدركوا أول الأمر ما في تلك الآثار من القيمة العالية .

لقد كانوا يتشوقون الى أن ينهلوا من كل مورد ؛ ثم انهم لم يتأخروا كثيرا قبل أن يتفهموا تلك المعرفة ويستنبطوا منها أشياء جديدة .

وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك شيان : علم الحساب الجديد ، وعلم المثلثات الجديد . ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن هذين العلمين قاما على أساس مزدوج من الآثار السنسكريتية واليونانية . ومثل ذلك كان شأن الطب ، اذ عرف الطب من طريق الهند ومن طريق اليونان معا . وشاهد ذلك في كتاب فردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبرى الذى عاش في النصف الأول من القرن التاسع <sup>(٢)</sup> . وبعد بضعة قرون رأينا رشيد الدين الصورى الذى شهد النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وكتب في الفارسية أكثر مما كتب في العربية — وهذا صحيح — يوحى إلينا أنه استعار أيضا من العلوم الصينية . غير أن أولئك الذين ينكرون محاسن العرب ، ويخسونها قيمتها ، ليحتجون مرة ثانية بقولهم : ان الأخذ من مصادر متعددة ليس ، على كل حال ، خيرا من الأخذ من مصدر واحد . تلك طريقة في المجادلة مضللة ، وخصوصا اذا كان الكلام يتناول الرياضيات . ثم ان الرياضيين العرب — فى هاتين

(١) المقصود بهذا اللفظ الاقدام Initiative على عمل الأشياء ، والعمل بها قبل الآخرين . ( ع . ف ) .

(٢) علي بن ربن الطبرى هو غير محمد بن جرير الطبرى المشهور الذى عاش فى النصف الاول من القرن العاشر وصاحب التاريخ العام المستفيض « تاريخ الرسل والملوك » ، والتفسير العظيم . ان تعليقي على كتاب علي بن ربن الطبرى (Introd. 1 : 574) لم يكن وافيا ، لاننى لم أعرف فردوس الحكمة الا عام ١٩٢٧ م ، اذ نشر الكتاب فى العام التالى بعناية م . ز . صديقي برلين ١٩٤٨ . انظر تحليل ماكس مايرهوف لهذا الكتاب : (Isis 16 : 6-54) اما تعليقي على رشيد الدين ، وقد ظهر بعد عشرين عاما ، فقد كان اوفى واكثر دقة . (Introd. 3 : 969-76)

الحالتين المذكورتين آنفا — لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسسكريتية نسخا ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ؛ ولكنهم جمعوا بين المصدرين ، ثم ألحقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . وإذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا ، فليس فى العلم اذن ابتكارا على الاطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد ؛ وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم .

ولعل معترضا آخر يقول : ان العلماء العرب لم يفهموا مدى اكتشافاتهم تمام الفهم . ولقد بينت أنا مثلا <sup>(١)</sup> أنهم لم يستخدموا الأرقام الهندية ( العربية ) فى المناسبات التى يمكن أن يكون استخدام هذه الأرقام فيها أحسن نفعاً ، فى الألواح الفلكية والجغرافية مثلا . ولكن ماذا فى ذلك من الغرابة ؟ ان ما تنطوى عليه الاكتشافات — وخصوصا اذا كانت تلك الاكتشافات هامة فعلا — يكون عادة مختلف المظاهر متسع المدى الى درجة انه ما من عالم ، مهما كانت عبقرته عظيمة ، يستطيع أن يفهم تمام الفهم كل ما يفعله . ان استثمار الآراء العلمية يقوم به عادة رجال أقل قدرا من الذين اكتشفوا الآراء ، ولكن يكونون أحسن استفادة عملية منها . وعلى أساس هذه الحقيقة استغل زنوبى جرام آراء فاراداي ، وطبق ماركونى آراء كلارك ماكسول <sup>(٢)</sup> .

(١) *Introd.* 3 : 133; 797-98

(٢) فاراداي Faraday (ت ١٨٦٩ م) عالم انجليزى فى الطبيعيات والكيمياء قام بأول تجربة بدائية لانتشار الغازات ، ولضغط الغاز وتحويله الى سائل ، واستطاع السيطرة على المجرى الكهربائى واثارة مجار كهربائية بالمجاورة من شريط الى آخر أو بواسطة المغنطة ، مما قاد الى تحقيق المحرك الكهربائى . وله أيضا قانون التحليل الكيماوى .

وزنوبى جرام Gramme (ت ١٩٠١ م) عالم بلجيكي اخترع عام ١٨٦٧ م آلة تسير بالمجرى الكهربائى المتبدل والمتناوب ، ثم قاده ذلك الى تسير الآلات بالمجرى المستمر . وفى عام ١٨٧٢ م استطاع جرام أن يبنى الدينامو ( المحرك الكهربائى ) لتوليد القوة المحركة وتوليد الضوء .

وكلارك ماكسول (ت ٢٨٧٩ *In the Enc. Br.*: James Clarc Maxwell) عالم اسكتلندى اشتغل بالطبيعيات ، وبدأ بحثه فى احتكار الفار ، وهو صاحب قانون توزع سرعة الذرات . وضع مباحث كثيرة فى الكهرباء والمغناطيس موضع الانتفاع ، ودون ملاحظات فاراداي فى الكهرباء بعلامات رياضية ، أى انه تمكن من أن يجعل لآراء فاراداي النظر قيمة عملية صناعية وتجارية .

أما ماركونى Marconi (ت ١٩٣٧) فهو عالم ايطالى سجل اختراعه للتلفراف اللاسلكى فى لندن عام ١٨٩٦ م ، ثم استغل ذلك تجاريا .

لنرجع الى العراق فى العصور الوسطى . ان غرابة العلم العربى وخصبه معا يرجعان فى الحقيقة الى أن ذلك العلم جمع العناصر اليونانية الى العناصر الشرقية ، وخلق منها مركبا جديدا ، أو انه جعل خلق هذا المركب ممكنا فى المستقبل . ولقد كان بالامكان أن ينتقل العلم اليونانى على يد أوربا لولم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تماما عن النصرانية الأرثوذكسية بجدار من التعصب وسوء الظن والبغض . وبما أن هذا الجدار كان لسوء الحظ موجودا ، فانه لم يكن من سبيل الى اتصال للعلم اليونانى السابق باللاتينى اللاحق الا من طريق المنحنى العربى . واذا نحن نظرنا الى العلم العربى من وجهة نظر التطور الانسانى عموما وجدنا أن الثقافة العربية الاسلامية كانت ذات أهمية بالغة ، لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسية البوذية .

### الشرق مهد الثقافة الأوروبية

ان الأهمية العظمى التى يتمتع بها الشرق الأوسط ، وهى أنه أم للثقافة الغربية قد قام البرهان عليه فيما تقدم هنا . ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدى تحفظا ، أو كما يقول المحامون : أن تقدم اعتراضا . ان الثقافة العربية التى كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع الى القرن الحادى عشر ، ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون آخر ( ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئا يسيرا ) قد درجت من مهدها ، لا شك فى ذلك . ولكن الفتوح الاسلامية حملت هذه الثقافة شرقا الى الهند وأواسط آسيا حتى الصين ، ثم غربا الى اسبانيا ومراكش ، أى الى طرف العالم . فاذا نحن سمينا هذه الثقافة اذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب ، فاننا نكون جننا شيئا غريبا ، اذ أن تلك الثقافة كانت امتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى الى المغرب الأقصى . ولنذكر أيضا أنه كان لهاتين التسميتين قبل كولومبوس واكتشاف أمريكا قيمة مطلقة ، لأن العالم المعروف يومذاك لم يكن يتجاوز هذين الحدين . ففى القرن العاشر للميلاد أصبح القطر الأندلسى والقطر المغربى مركزين أصليين للثقافة

الغربية . بعبارة أخرى كان جزء أساسى مما ندعوه بالشرق الأوسط يومذاك فى المغرب الأقصى ، فى المغرب الأقصى تماما ، آخر العالم غربا . وهكذا نجد أن التعبير « الشرق الأوسط » تعبير مضلل (١) ، فنحن دائما شعوب شرقية بالإضافة إلى جيراننا الغربيين ، وغريون بالمقارنة إلى الشعوب التى تعيش إلى شرقنا (٢) ؛ ولكننا نقبل هذا التعبير كما تقبل كلمات أخرى كثيرة على أنها بقايا من جاهليتتنا الماضية .

### ذروة الفلسفة العربية

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية فبلغت مبلغها على يدى رجلين مغربيين . ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان فى مدى بضع سنوات وفى مدينة واحدة ، هى قرطبة التى كانت أعظم المدن فى غرب أوروبا بهاء وعظمة والتى كانت المنافسة الغربية لبغداد (٣) . ولد ابن رشد فى قرطبة عام ١٢٦ م ، وولد موسى بن ميمون بعده بتسع سنوات فى المدينة نفسها . والواقع أن ابن ميمون اضطر إلى الهجرة إلى المشرق بعد ثلاثين عاما من مولده (١١٦٥ م) ، وأنه دون أكثر آثاره فى القاهرة . ولكن هذا لا يبدل من الحقيقة شيئا ، وهى أنه كان مغربيا كابن رشد .

(١) اذ اعتبرنا الشرق الأوسط تعبيرا جغرافيا ، فهو يقع شرق البحر الأبيض المتوسط ، ولكن إذا عدناه تعبيرا دالا على جهود المسلمين فى العصور الوسطى فى العلم والفلسفة فإنه حينئذ يتناول المشرق والمغرب معا ، وهذا ما عناه الدكتور سارتون بقوله أن الشرق الأوسط ( من الناحية الثقافية ) تعبير مضلل . ( ع . ف ) .

(٢) يصف بعض الأمريكيين سكان ولاية ماين Maine فى الولايات المتحدة بأنهم يعيشون « هنالك شرقا » . ومن الناحية الثانية نجد الكتب الصينية التى تتكلم عن أواسط آسيا والشرق الأوسط تحمل أمثال هذا العنوان : هى - يو - ت أو - تشى ( أخبار البلاد الغربية ) . انظر : Introd. 3 : 2113 ثم انظر عناوين كتب آخر تبدأ بكلمة هسى ( غرب ) Introd. 1 : 476

(٣) كان العصر الذهبى لقرطبة أثناء الخلافة الأموية فى الأندلس ( ٧٥٦ - ١٠٣١ م ) ، وخاصة فى القرن العاشر . ومن عام ١٠٩١ إلى ١١٤٧ م دخلت قرطبة فى حكم المرابطين ، وهم من البربر سكان شمال أفريقيا . وكان ثالث ملوك المرابطين على بن تاشفين الذى حكم من ١١٠٦ م إلى ١١٤٣ م ، وفى أثناء حكمه ولد ابن رشد وموسى بن ميمون .



على أن ابن ميمون لم يكن مسلما بل يهوديا ، وفي أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات انتشارا . ولم يتكلم اللغة العربية ويكتب فيها شعوب من أمم مختلفة ( في الشرق والغرب ) فحسب ، بل ( وهذا بخلاف اللاتينية ) شعوب تدين بأديان متعددة .

نرجع الى ابن رشد وابن ميمون قليلا حتى نرى ان نتائج الفلسفة في العصور الوسطى قد عبر عنها هذان الرجلان ، رجل مسلم ورجل يهودي . وبعد قرن كامل من الدهر قام بالتعبير عنها من جديد رجل مسيحي ، هو القديس توماس الأكويني <sup>(١)</sup> . هؤلاء الرجال العظماء الثلاث ، وقد ولدوا كلهم في جنوب غرب أوروبا ، يمثلون الثلاثة الأديان البارزة واللغتين البارزتين في العصور الوسطى . ومن السهل ان نذكر أسماء مغاربة آخرين ليسوا قليلين من أولئك الذين زادوا الثقافة العربية مجدا على مجدها ، ولكن هذين الاسمين هما في هذا المقام فوق الكفاية .

بلغت جهود ابن رشد وابن ميمون بالثقافة العربية الذروة ، تلك الثقافة التي أخذت بالانحدار تدريجا بعد القرن الثاني عشر الميلادي . ومع أن هذه الثقافة ظلت تترك روعة في النفوس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فانها كانت قد بدأت بالانحدار . ولم يكد الشرق الاسلامي يدرك جنوح الثقافة العربية نحو الغروب الا بصعوبة ، لأن غروره كان يزداد بنسبة ما يصيب جلائل أعماله من التناقص ( وتلك قاعدة عامة

---

(١) للتوسع في ابن رشد ( ١١٢٦-١١٩٨ م ) انظر *Introd.* 2 : 255-61 وللوسع في ابن ميمون ( ١١٣٥ - ١٢٠٤ م ) انظر *Introd.* 2 : 369-80 أما القديس توما الأكويني ( ١٢٢٥-١٢٧٤ م ) فهو من جنوبي إيطاليا . انظر *Introd.* 2 : 914-21 ، ولقد سبق لنا أن تكلمنا عن قرطبي آخر هو سنكا الفيلسوف الروماني . ومن المميزات لمدينة واحدة أن تقدم للعالم ثلاثة رجال لهم مثل هذه العظمة ، وأغرب من ذلك كله أنه لم يكن فيهم أحد مسيحي !

وابن ميمون من اليهود الذين كانوا يعيشون في دار الاسلام تحت حكم المسلمين ، وكان أولئك اليهود يكتبون بالعربية ولكن بحروف عبرية ، ذلك لأن اللغة العبرية كانت مخصوصة بالأمور الدينية ، حتى كتب النحو العبرية فانها كانت تكتب بالعربية ، كما أن الغالب فيها اليوم في الولايات المتحدة أن تكتب بالانكليزية .

تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد ) . ثم ان الغرب أيضا لم يفتن لبدء انحدار الثقافة العربية ، لأن الواجهة العربية ظلت على حالها ، مع أن العرب يومذاك كانوا يعدون شيئا فشيئا عن أن يكونوا خليقين بها (١) .

وهذه أيضا قاعدة أخرى من قواعد الحياة : هنالك أبدا انحراف أو ميل بين أعمال الانسان ( أو الأمة ) وبين الشهرة الذائعة ، فالشهرة لا تبدأ الا متأخرة، وأحيانا متأخرة جدا ، وفي وقت تكون فيه تلك الأعمال العظيمة التي استحقت هذه الشهرة قد توقفت . وهل يجوز غير ذلك ؟ ان الزمن ضرورى كيما يتسنى فى خلاله للأعمال أن تشتهر وتقدر قدرها .

### اسباب تاخر المسلمين

ان المآثر التى قامت بها الشعوب التى تتكلم اللغة العربية — وذلك بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر — كانت عظيمة الى درجة تخمل أفهامنا . على أن التأخر الذى أصاب المسلمين والعرب كان مستغربا جدا فى سرعته ، كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة أيضا . وسيحاول العلماء الدارسين أبدا تعليل ذلك ، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل ، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جدا ، ولأن الاجابة عليها بالأساليب العادية تقع فى نطاق المستحيل .

ومما قيل ان التأخر الروحى فى الاسلام قد عجل به أن المسلمين فقدوا قوتهم السياسية ، وفى هذا القول شيء من الحقيقة . ولكن يجب

---

(١) كان أول النقلة المتنازين من العربية الى اللاتينية قسطنطين الإفريقى الذى شهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر . ولد قسطنطين فى قرطاجة قرب تونس الحالية ، واشتهر أمره فى دير جبل كاسينو فى إيطاليا منذ نحو ١٠٦٥ م الى وفاته فى ١٠٨٧ م . ولقد ظلت الكتب العربية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر تنقل تدريجا الى اللاتينية ، وهكذا أتيح للثروة اليونانية العربية ( فى الفكر ) ان تنتقل الى الغرب المسيحى . وبنسبة ازدياد النقل من العربية الى اللاتينية كانت تزداد الواجهة العربية فى الغرب ، ثم بلغت تلك الواجهة ذروتها عند بداية القرن الثالث عشر .

ألا نبالغ في أهميته كثيرا (١) ، لأنه جزء صغير فقط من الجواب على ذلك السؤال المعقد . نحن نجد أن السلطة العثمانية قد ظلت عظيمة طوال قرون كثيرة ؛ ومع ذلك فإن الثقافة لم تبلغ في تركيا ما بلغت إليه في عدد كبير من الدول الأوروبية التي كانت أضعف من تركيا كثيرا ، والتي كانت ترهب تركيا رهبة الموت . ان ضعف الايمان الاسلامي بين المسلمين ساعد على تدعيم الامبراطورية العثمانية (٢) ، ومع ذلك تقوّضت أركان العلم العثماني (٣) . أن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط تكون أسبابا داخلية ، لا أسبابا خارجية . فاذا اتفق أن شاهدنا شجرة تسقط بفعل العاصفة ، فيجب ألا نلوم العاصفة على أسقاطها للشجرة ، بقدر ما يجب أن نلوم الشجرة نفسها على تعفن باطنها .

وتلك الهزائم السياسية التي منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم ، بل هي على العكس زادت في غرورهم ، غير أنها زادت في الاتجاه الخاطيء . لقد عبس المسلمون في وجه البحوث العلمية وقرأوا منها ، بسبب اعتقاد الفقهاء بأن ما يعرفونه هم من العلم يكفي لكل شيء ، وهكذا وقف التقدم العلمي بسبب تعنتهم وعدائهم للتفكير في سبيل

(١) المعروف ان الغزو الوحشي الذي قام به تيمورلنك على الشرق الأوسط أواخر القرن الرابع عشر للميلاد (Introd. 3 : 1467-74) لم يفعل شيئا أكثر من تهديم عدد من المدن الكبرى في الشرق الاسلامي ( بغداد ودمشق وحلب وسواها) ، وكان تقريبا ضربة قاضية على سورية وحدها . ولكنه لم يمس عددا من البلاد الاسلامية بسوء، ومن هذه شبه جزيرة العرب مثلا ومصر ، ولا ضرورة لذكر المغرب ، لأن تيمورلنك لم يصل إليه . ولم يكن بإمكان تيمورلنك أن يصيب الثقافة الاسلامية بمثل ما أصابها به لو أن تلك الثقافة نفسها كانت زاخرة بالحياة عند مجيئه .

(٢) يقصد المؤلف ، بلا ريب ، استغلال بعض سلاطين تركيا لفكرة الخلافة والجهاد عند نشوب الأزمات السياسية بين السلطنة العثمانية والدول الغربية . (ع.ف) .

(٣) لهذا السبب اتخذت تركيا الحديثة موقفا غير اسلامي . ان تاريخ الرياضات العثمانية قد كتبه صالح زكي (جزءان بالتركية ، استانبول ، 1956 : 15-19) وكذلك كتب تاريخ العلم العثماني عبد الحق عدنان اديواز ، بالفرنسية باريس ١٩٣٩ (Isis 32 : 186-89) ولهذا الكتاب طبعة جديدة موسعة بالتركية ( استانبول ١٩٤٣ . Isis 38 : 21-25)

المعرفة . وتنتج عن ذلك أن بعض هؤلاء العلماء ظلوا يقبلون على علاتها قصة خيالية التي كتبها على بن الحزم بن النفيس <sup>(١)</sup> . وجعل عنوانها فاضل ابن ناطق ، تقليدا لقصة حي بن يقظان لابن طفيل <sup>(٢)</sup> . وكتب ابن طفيل ( ت ١١٨٦ م ) قصته المعقولة في وقت كان الاسلام لا يزال سائدا سياسيا ، أما ابن النفيس ، الذي توفي بعد قرن من وفاة ابن طفيل ، فانه كان طليعة من طلائع التفقه ، حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم بالنمو . ولقد كانت غاية ابن النفيس من كتابه أن يقول أن توالى الحوادث في ماضى المسلمين كان أمرا مقدورا الى حد أننا نستطيع أن نعيد حوادثه بخيالنا بداهة ، أى لم يكن بالامكان أن يجرى تاريخ الاسلام على غير ما جرى عليه . وأشبه ابن النفيس في وهمه ما نجده عند رجل مسيحي مثل يوسيبوس <sup>(٣)</sup> الذي أعتقد أن سيادة النصرانية أمر راجع الى العناية الالهية ، والى الفضل الذاتى فى النصرانية نفسها . وكذلك ظن ابن النفيس أن الفتوح العسكرية والسياسة المدهشة التي اتفقت للشعوب الاسلامية تحقيق لما سبق لتلك الشعوب فى علم الله <sup>(٤)</sup> .

(١) عاش ابن النفيس فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، كان طبيبا مصريا أو سوريا ، وتوفى فى القاهرة (لافى دمشق) عام ١٢٨٨ م . انظر سارتون (Introd. 2: 1099-1101) ثم ماكس مايرهوف Max Meyerhof «ابن النفيس ونظريته فى الدورة الدموية الصغرى» (Isis 23: 100-20, 1935) ويعمل يوسف شاخ Joseph Schacht فى طبعة لكتاب فاضل ابن ناطق وترجمة جزئية لها الى الانجليزية (Isis 37: 194)

(٢) فى ما يتعلق بابن طفيل فى النصف الثانى من القرن الثانى . عشر انظر Introd. 2:354 . وأحسن طبعة لقصة حي بن يقظان هى التي أشرف عليها المرحوم ليون غويته Léon Gauthier ، وجعل معها ترجمة فرنسية . بيروت ١٩٣٦ (Isis 30: 100-03)

(٣) عاش يوسيبوس Eusebius of Caesarea فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ، ولد فى فلسطين وكان اسقفا على قيسارية من عام ٣١٣ الى وفاته عام ٣٤٠ (Introd. 1: 357) وهو أحد مشاهير المشاركة فى العصر الرومانى .

(٤) ان مثل هذا الجدل العقيم قد انعكس فيه عدد من الذين ينتمون الى أمم سائدة فى العالم ، اذ يظنون أن سيادة أممهم ليس أمرا عرضا ، بل هو ثمرة تفضيل الله لهم على غيرهم . وهنالك مثال صالح على ذلك فى كتاب : Bossuet : *Discours sur l'Histoire Universelle* (1681).

## تأخر المسلمين روحى لاساس

قام البرهان مرارا وتكرارا على أن الانحطاط الروحى مستقل عن الهزائم العسكرية والكوارث السياسية . ان هولندية مثلا — وقوتها المادية ليست سوى ظل للقوة التى تمتعت بها فى القرن السابع عشر — لا تزال أمة من أمم العالم البارزة فى ميدان الآداب والعلوم . وقام البرهان على ذلك فى أمم أخرى ، أمثال بلجيكا وسويسرة والدول السكندنافية التى لا تتمتع الا بقوة يسيرة ، على حين هى مع ذلك تقود العالم فى الأمور الروحية من كل فن، ثم هى مراكز ثقافية من الدرجة الأولى .

لا ، ان التقهقر فى الاسلام لم يكن نتيجة لفقدان القوة المادية والسيادة السياسية ، ولا لنقص فيهما ، بل لأن القوة الروحية فى نفسها ذهبت ان الشعور بالتفوق ، الذى تشعله فينا ذكرى الأعمال المجيدة التى قام بها أسلافنا أمر خطير جدا ، وخصوصا اذا رافق ذلك الشعور تقاعس فى بذلنا للجهود . والشعوب التى تأتى بجلال الأعمال لا تشدق بالفخر بها ، لأن وقتها يضيق عن ذلك ؛ ولأنها تكون منصرفة الى تحقيق غاياتها ، لا الى استجداء آراء الآخرين . ولكن الأمم اذا أقبلت على الهرم ، ثم نسيت أداء رسالتها ، فانها ربما عادت الى الاستغراق فى الذكريات وفى التبجح بها . ولا يكون من ذلك ضرر على الأفراد الذين يقضون على هذه الأرض حياة قصيرة ؛ من أجل ذلك تتجاوز لهم عن مدد يسيرة ينامون فيها فى الشمس قبل أن يودعوا هذه الحياة الدنيا . ولكننا نجد ان هذا أمر خطير جدا فى حياة الأمم ؛ فان الأمم اذا أخذت بالنوم على أكاليلها ، ثم شرعت تتبجح بماضيها من غير أن تعمل لمستقبلها شيئا ، فان شمسها حينئذ تكون آذنت بمغيب — وتكون مقضيا عليها بالانحطاط .

## الامم لاتموت ولكن تنحط

على أن هذه الأمم تظل موجودة ، لأن الأمم فى العادة لاتموت ، ولكن يقضى عليها بأن تنحدر الى مستوى الحياة اللينة الهينة . وهذا ما اتفق تماما

للاسلام ، حين توقفت جهوده المبدعة ، ثم أضيفت الى ذلك مبالغة في الصلاح والتقوى وفي الاحتقار للآخرين . بعدئذ خبا ذلك النور الداخلى فى المسلمين ، حتى خسر ايمانهم قوته وصفاءه . حينئذ حلت الخرافة عندهم محل الدين ، والحمية الجاهلية محل العقيدة ، والحسد والكراهية محل الحب .

ويحسن أن نمد القول قليلا على السبب الأساسى لذلك الانحطاط ليشمل الخرافات ، لأنها أشد أسباب الانحطاط ختلا ، أى على غرة . ونمو الخرافات فى الأمم ليس السبب الأساسى الوحيد للانحطاط ، ولكنه أشد أعراض الانحطاط ظهورا . فاذا نحن شهدنا هذا العرض فى أنفسنا وجب علينا أن نأخذ حذرنا ، وأن نبدأ بوقاية أنفسنا . والجدير بالذكر أن أهل العصور الوسطى لم يكونوا يدركون ذلك كما ندركه نحن اليوم ، ولكن الخرافات تطيب دائما للجهلة الذين يتطلبون أجوبة على أسئلتهم من النوع الذى يجيده العرافون . كذلك كان شأن الناس دائما من قبل فى أدوار الانحطاط ، وكذلك سيبقى أبدا . من أجل ذلك امتزجت الخرافات بالعلم نفسه ، حين ضعفت الجهود العلمية فى الاسلام، ومن هنا كان منشأ الداء القتال . ان الآثار العربية العلمية التى شرفت بعدد من روائع الانتاج العقلى انحطت بسيل من الكتب فى التنجيم والصنعة <sup>(١)</sup> والسحر <sup>(٢)</sup> . ويبدو تسرب السحر الى كتب الرياضيات فى كتاب لمؤلف روحانى من الجزائر اسمه أحمد بن على البونى ، عاش فى

---

(١) الصنعة هى الكيمياء القديمة، وهى محاولة تحويل المعادن الخسيسة، كالنحاس والقصدير ، الى معادن شريفة ، كالذهب والفضة . (ع.ف) .

(٢) من المؤسف أن يكون ثمة كلمة تميز الصنعة الرديئة ( راجع الحاشية السابقة) من الصنعة الصالحة أى الكيمياء ، كما أن عندنا كلمة تنجيم التى هى كلمة فلك . ومع ذلك فان عددا من كتب العرب فى الصنعة قد احتوت على ابداءات من علم الكيمياء الحديثة ، بينما هنالك عدد آخر مملوء بامور السحر . وربما وجدنا شيئا من المعرفة الايجابية وشيئا من أمور السحر ممتزجين معا فى كتاب واحد .

النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولكن أحسن تعليل لهذه القضية ، قضية السحر والخرافات والتنجيم عند المسلمين ، ثم رفضها قد ورد عند مفكر من أبرز المفكرين في العصور الوسطى كلها شرقا وغربا ، هو العالم التونسي عبد الرحمن بن خلدون الذي شهد النصف الثاني من القرن الرابع عشر <sup>(١)</sup> . تأمل قوله عند الكلام على الهندسة <sup>(٢)</sup> .

« واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله ، واستقامة في فكره ، لأن براهينها كلها بيينة الانتظام جلية الترتيب ، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها ، لترتيبها وانتظامها ، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيح <sup>(٣)</sup> . وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخلن علينا ، وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للشوب الذي يغسل منه الأقدار ، وينقيه من الأوضار والأدران <sup>(٤)</sup> ، وانما ذلك لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه » .

### فعل الخرافات

ومع كل ما في هذه العبارة من الأطناب فهي مما يدعو الى الاعجاب به ، لأنها اصابة لكبد الحقيقة . أجل ، ان الخرافات تقوم في العقل الانساني مقام الأقدار والطفيليات في الجسم الانساني ، ثم هي سبب لخجل

---

(١) ابن خلدون ( ت ١٤٠٦ م ) ، انظر Introd. 3: 1766-79 . ولناقشة آراء ابن خلدون في الماورائية ، وفي أصناف المدركين من البشر بالفطرة والرياضة ... والوحى والرؤية - انظر - المقدمة ص ٩١ ، وما بعدها ( Introd. 3: 1772 )

(٢) مقدمة ابن خلدون ( باريس ١٨٥٨ م ) ٣ : ١٠٢ . الترجمة . الفرنسية ( باريس ١٨٦٨ م ) . راجع : Introd. 3: facing 1019, 1777 . هذا النص في طبعة بيروت ( المطبعة الادبية ، الطبعة الثالثة ، وكذلك ص ٤٨٦ . ( ع . ف ) .

(٣) المهيح الطريق الواسع الظاهر . ( ع . ف ) .

(٤) الوضر الوسخ الناتج من الدسم كالتلوث بالزيت أو السمن ، الدرن الوسخ . ( ع . ف ) .

فأضح . ولكن الناس الذين يصابون بالخرافات وبالقمل لا يدركون — لسوء الحظ — ما هم فيه من البلية ، لأنهم ينساقون أبدا الى أن يزدوا ما هم فيه ، وأن يصموا أنفسهم بذلك أشد الوسم . أما نحن فيجب أن نرجع الى أنفسنا ، وأن نغفر للعرب تلك الخرافات التي ذهببت بثافتهم ، ذلك لأن ثقافتنا نحن في أمريكا لا تخلو <sup>(١)</sup> من الخرافات أبدا . فالمنجمون وقراء الكف والعرافون وسواهم من أصحاب الكهانة ، تزدهر أعمالهم في مدتنا المتخيلة بنفسها . أما أعمدة الجرائد المخصصة بالتنجيم فتدل على فقدان المبادئ ، وعلى الفساد في أصحاب تلك الجرائد <sup>(٢)</sup> . وإن مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة بين المسلمين — على الرغم من أنه لم يستطع الا أن يصدق بعدد منها — أمر مفرد في آثار العصور الوسطى . غير أن الأمر تفاقم بعد عصر ابن خلدون ، فحدث رد فعل متعاقب الحلقات ، ينتقل به المسلمون من الأخذ بخرافة الى الأخذ بثانية ، قائلا فأكثر . بعدئذ فتح الانحطاط الروحي في الاسلام الباب للخرافات شيئا فشيئا ، ثم هدمت الحواجز العقلية التي تحول عادة دون

---

(١) المؤلفات في الخرافات العربية كثيرة . انظر دائرة المعارف الاسلامية مقالة كاهن Kahin ، وقيافة Kiyafa وسحر Sihir ، الخ (Isis 33:298-99) . أنظر كذلك (Walker : Folk Medicine in Modern Egypt, London 1934) وكذلك (Isis 24: 294)

ولمعرفة خرافات الصابئة التي تمثل جميع خرافات الشرق الأوسط انظر : Drower (Ethel Stefana Stevens): *The Book of the modiac*. (Royal Asiatic Society, London 1949).

(٢) فيما يتعلق بالخرافات الاميريكية أنظر :

Gilbert Seldes: *The Stamfmering Century*, New York, 1928.  
Charles Wright Ferguson: *The Confusion of Tongues*, New York 1928, Bart J. Bok and Margaret W. Mayall: Scientists Look At Astrology, Scientific Monthly, March 1941 (Isis 35: 181-182, 40: 79-81).



الخرافات ، بتأثير بعض الفقهاء الجهلة المتعصبين<sup>(١)</sup> . ثم ان الخرافات الجديدة زادت في سذاجة العامة وجهالتهم وغباثهم وتعصبهم ، وهذه بدورها أدت الى نشوء خرافات جديدة ، وهلم جرا .

وتحرجت الحال تحرجا شديدا ، اذ بينما كانت الجهود العربية تتضاءل، والشعوب العربية تصبح فريسة للخرافات المتزايدة ، حتى فقد الأمل بانقاذها ، اكتشفت الشعوب الغربية ( اللاتينية ) سرا من أسرار المعرفة والحياة الثرة<sup>(٢)</sup> ، ذلك السر الجديد هو العلم التجريبي الذى خلق فى غضون بضعة قرون ثقافة جديدة ، بل أحدث ثورة فى العالم كله — فى العالم الروحي وفى العالم المادى معا<sup>(٣)</sup> . ولم يكن للشعوب التى تتكلم العربية نصيب من هذا التقدم ، اذ تقدمت الأمم الغربية بخطى واسعة جدا ، على حين وقف العرب . وهكذا تأخروا يوما بعد يوم تأخرا لا أمل بوقته . ان الاسلام ، وهو ينهض نهضته العظيمة رفع العرب الى الذروة ، أصبح محجوبا بالمسلمين فى الهاوية .

---

(١) كان الحكام أحيانا أكثر تسامحا من الفقهاء ، ولكنهم كانوا مضطرين الى الانحناء أمام عدم التفكير الشائع . مثال ذلك . ان أمراء الموحدين فى المغرب — وكان يظن بهم التعصب — حموا الفلاسفة الكبار من عنت المتعصبين . راجع كتاب Leon Gauthier: *Ibn Ruchd*. Paris 1948 ( *Isis* 41: 104-06)

(٢) الثرة العينية الغزيرة الكثيرة الماء والحياة الثرة ذات النعم العظيمة ( ع . ف ) .

(٣) انتشرت خرافات كثيرة فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ، ولوصف هذه الخرافات انظر :

Lynn Thorndike: *History of Magic and Experimental Science*, 6 vols. New York 1923-41 ( *Isis* 6: 74-89, 23: 471-75; 33: 691-712)

غير أن الخرافات المسيحية كان يقابلها على كل حال مجموعة من المعارف ومن الفقه العقلى ( وخصوصا عند القديس توما ) . أما فلسفة ابن رشيد فانهزمت تماما بين المسلمين ، ثم قضى عليها فى الشرق ، بينما حورها الغرب تحويرا يوافق المسيحية .

## أهل العرب بالنهوض ثانية

على أن هذا الحكم ليس مبرما على كل حال أبدا ، بل يصح يتبدل بسرعة . ان شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانساني — طوال ألقى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا ، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد .

وفي المرحلة الأولى التي قاد الشرق الأوسط فيها العالم ، وضحت العبقرية المبدعة لتلك الشعوب ، فكان من الشرق الأوسط أول البناء بالصخر ، وأول الكتابين بالقلم ؛ وذلك لأن تلك الشعوب استيقظت قبل سواها من شعوب العالم . وأما المرحلة الثانية فكانت أقصر مدى ، ولكن كثيرة الخصب . وبذا سبقت شعوب الشرق الأوسط أهل اليونان في ميدان المآثر العلمية ، أو أنها أمكنتهم من الاتيان بتلك المآثر ، ثم تبدلت الحال . لقد كانت الشعوب التي تتكلم العربية في الشرق الأوسط نقلة العلم اليوناني الى الغرب ، غير انهم لم يكونوا نقلة فقط ، ولكنهم على عكس ذلك زادوا ذلك التراث اليوناني ، ثم أورثوه الى الشعوب اللاتينية أغنى مما كان . ولم يكن تفوق العرب في ابتكارهم المبدع بقدر ما كان في ثباتهم وفي شدة حبهم للعلم ، اذ فهموا يومذاك ( وهذا ما نسوه بعد ذلك ) ان المعرفة يجب أن تبنى على أساس صحيح ، وأن جذور كل ثقافة اذا لم تكن عميقة عمقا كافيا لا تلبث أن تذوى ثم تموت . ولقد كانت جذور دينهم عميقة عمقا كافيا ، وجذورهم العلمية — لوقت ما على الأقل — الجذور اليونانية . وكذلك أدرك قادة الفكر فيهم بوضوح أن الانسان اذا أراد أن يكتسب المعرفة العلمية ، فانه لا يستفيد من البدء بالقمة ، من طريق استعارة التطبيقات العملية الأخيرة ، بل يجب أن يشرع من الأساس بالمبادئ الأولى . وانه لمن السهل أن نجنى الفواكه الياقة من أعالي الشجرة — وكل أحق

يَسْتَطِيع ذلك — ، ولكن من الصعب أن نستنتج أشجارا صحيحة تعطى  
فاكهة وافرة في ابانها . والدرس الذى يجب على شعوب الشرق الأوسط  
أن تتعلمه من جديد هو أنه ليس الى العلم طريق مختصرة . ان من  
السهل أن ندرس علم الحيل <sup>(١)</sup> ، وقد لا يكون من الصعب أن ندرّب  
المهندسين ؛ ولكن تربية الانسان على العلم مهمة شاقة طويلة الأمد . ان  
الاتيان بالماثر المبدعة في العلم وفي التعليم تقتضى تفانيا متصلا طوال  
سنين عديدة ، بل طوال حياة كاملة . غير ان الحياة قصيرة ، وكل  
رجل علم يورث أولئك الذين يأتون بعده مشاكل تنتظر حلولاً .

ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تبارى أسلافها ، وأن  
تستعيد ثانية مكائنها الأولى في قيادة العالم ، ومع أن ذلك ليس سهلاً  
— ثم هو يصبح أشد صعوبة يوماً بعد يوم — فإنه ممكن .

#### بدء التجدد

ان بداءة حميدة قام بها في الميدان الدينى الشيخ محمد عبده <sup>(٢)</sup> ،  
وهكذا أخذ الجو الاسلامى يصفو . وكذلك اليهود والنصارى في الشرق  
الأوسط ينالون عناية أكبر من تلك التى نالوها في الماضى، بينما المستوى التهذيبى  
قد ارتفع كثيراً ، في بلاد عديدة . ومما يدخل السرور على قلبى أن قسماً  
كبيراً من ذلك المنهاج التهذيبى قام به أمريكيون ، وأنا أردد هذا القول  
مشيراً الى الجامعة الأميركية في بيروت التى كانت ظئراً لرجال صالحين ،  
ونبعاً دائماً لحسن النية <sup>(٣)</sup> . ان الجامعة الأميركية في بيروت ، والكليات

---

(١) علم الحيل هو علم استعمال الآلات لرفع الأجسام الثقيلة أو تحريكها،  
وهو المعروف في اللغات الأوروبية باسم الميكانيكا Mechanics

(٢) للكلام على محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٥٠ م) انظر دائرة المعارف  
الاسلامية (Enc. of Islam) وهناك أيضاً ترجمة لرسالة التوحيد ، باريس  
١٩٢٥ (Isis 9: 456-57).

(٣) انظر (Isis 19: 322-29, 1933)، وكذلك .

Stephen B. L. Penrose, Jr.: *That they May Have Life, the  
Story of the AUB 1866-1941*, New York 1941 (Isis 34: 40-41;  
39: 7).

الأميركية في القاهرة واستانبول وبغداد لم تقتصر ببلاد الشرق الأوسط على نشر روح طيبة فحسب ، بل خلقت فيه أيضا منافسة خيرة ، اذ دفعت المدارس الأخرى الى تحسين طرق التعليم فيها . من أجل ذلك لا يستطيع الانسان أن يفنى المشرفين على هذه المعاهد الأمريكية حقهم من الشكران ، وكذلك القائمين بإدارتها على ما أولوه من هبات مباشرة وغير مباشرة في سبيل العلم . ثم ان الاستقلال السياسي ملأ جميع البلاد بروح الطموح ، وليس ثمة ما يمنع طموح تلك البلاد أن يتحقق اذا أتيح له سند من الأعمال والتضحيات المتوالية ، لا من الكلمات فحسب . هنالك مشاكل يجب أن تنتظر حلولاً ، ولكنك حيث تجد ارادة فأت وابد طريقاً ؛ وهذه الطريق يمكن أن تكون طويلة ، ولذلك كانت الحاجة الى الصبر كبيرة . أما النقطة الأساسية في الموضوع فهي أن ندرك أن الأعمال العلمية يصعب القيام بها ، وان على الانسان أن يشمر عن ساقه ليبذل جهوداً جبارة في سبيل ذلك أما الذين يخدعون أنفسهم ، فيفكرون بأن التغلب على المصاعب أو الاحتيال عليها سهل ، فأولئك كتبت عليهم الخيبة . ان الجهود اليسيرة تضيع دائماً .

والمدينة ليست مرضاً حتى يمكن الشفاء منه ، بل هي كفاح علينا أن نجالد فيه مرة بعد مرة ، ثم هو كفاح لا يخلو من اخطار . ان حريتنا ومعارفنا وما في حياتنا من النعم كلها لنا ولكنها لنا « تحت التجربة » . لذلك يجب علينا دائماً أن نبرهن على أننا نستحقها ، أو نخسرها . واذا اتفق أن ضعفت عزائمنا فاننا نبدأ حالاً في الانحدار ، لأن كفاح الظلم والخطأ والقبح والفقر لا يجوز أن يهدأ .

### والتقدم أيضاً روحى لامادى

أنا لا أزال أو من بالتقدم كما آمن سنكا <sup>(١)</sup> ، لا كما يفعل أنصاف المتعلمين الذين يقيسون التقدم بالشاقول <sup>(٢)</sup> أو بمقدار ما فيه من الرفاهية.

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ٨ ، وحاشية ٤ فى الصفحة نفسها .  
(٢) الشاقول آلة يقاس بها استواء السطوح القائمة ، والمقصود بذلك قياس التقدم قياساً مادياً لا روحياً . ( ع . ف ) .

ولكن التقدم المادى الخالص مدمر ، وهو ليس تقدما على الاطلاق ، بل تأخر أساسى . ان التقدم الصحيح — ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة — لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات (١) ، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن ، وفوق ذلك كله على العلم ، أى العلم الخالص ، ومحبة الله ومحبة الحقيقة ، وحب الجمال ، وحب العدل . وهذا يبدو لنا جليا حينما نلقى نظرة واحدة الى الماضى . من هم أولئك الذين كانوا رجالا عظاما فى التاريخ ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا ؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها ؟ لقد كانوا رجالا أمثال أفلاطون ، وأرسطو ، وأقليدس وأرخميدس ، فى تاريخ اليونان . أما أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالا من أمثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، والغزالى ، وابن رشد ، وموسى بن ميمون ، وأبى الفداء ، وابن خلدون . هؤلاء الرجال لم يكونوا يعيشون فى فراغ اجتماعى (فى معزل عن الناس) ، وفى أيامهم كان الحكام ورجال المال أكثر شهرة منهم . ولكن الحقيقة أخذت تتجلى تدريجا ، وها هم أولاء ( وأندادهم ) هم وحدهم الذين يذكرهم الناس اليوم ، أما الملوك والسلطين والوزراء فقد غفى عليهم النسيان . ان الحكام وموظفيهم كانوا يعملون ليومهم ولستنتهم ؛ أما العلماء ورجال العلم فكانوا يعملون للخلود . وها نحن أولاء نشعر شعورا مكينا بالدين الذى لهم فى أعناقنا ، ونجزئهم على ذلك بعرفان الجميل . ان ما نراه واضحا حينما ننظر الى الماضى يجب أن يكون واضحا أيضا حينما نسد نظرنا الى الأمام ، فيهدى خطانا الى المستقبل .

### قيمة الشرق بين الشرق والغرب

من الناس من يتكلم عن الفرق بين الشرق والغرب . هذا الفرق موجود ، ولكنه أقل أهمية من الفرق بين المادية والنفعية من جهة وبين المثالية من جهة أخرى . وهذه الموازنة الثانية بين المادية والمثالية مستقبلة

(١) العتلة اداة تحرك بها الأشياء الثقيلة ، والمقصود الأساس النفعى المادى . ( ع . ف ) .

عن المكان والزمان . انها وجدت من قبل ، ويمكن ان توجد في كل زمان ومكان . غير أن هنالك نفرا من الناس يريدون منا أن نعتقد أن سكان الشرق مثاليون ، وان سكان الغرب ماديون ، وهذا ما يعلل عندهم لماذا كان الأولون أغنياء والآخرين فقراء . ولكن هذا بعيد عن الحقيقة ، فهناك فقر كثير في الغرب ، وهنالك غنى كثير في الشرق . ولعل البون الشاسع بين الغنى والفقر — اذا اعتبرناه من كل ناحية — أعظم في الشرق منه في الغرب . ان الأفراد الأغنياء في الغرب هم على العموم أكثر كرما ، وأوسع احسانا ، وأرجح حكمة في توزيع احسانهم ، ومن أولئك الشرقيين الذين يمتزج احسانهم في أكثر الأحيان بحب الظهور وتطلب الوجاهة .

### الشرق مهد الدين والعلم والفن

ومع أن الشرق الأوسط كان مهد ديننا ، ومهد مثلنا العليا في العلم والفن ، فليس من الحق أن تقول انه اليوم أكثر مثالية من الغرب . ولو أننا قلنا ذلك لكان ذلك منا ملقا لا صدقا ، والملق يضر أكثر مما ينفع . أما اعتقادي الخاص ، فهو أن رجال الشرق لا يختلفون اختلافا أساسيا من رجال الغرب . فنحن نجد في كل بلد جميع طبقات الناس ، ما بين صرح القداسة وبين هوة الرذيلة . هنالك طبقة نزره العدد من الصالحين ، ثم طبقة نزره العدد مثلها من الطالحين . أما الجمهور الغالب من الناس فهم ضحايا اختلاف أحوال العيش ، ولكن يمكن اصلاحهم الى حد بعيد بالعدل واللطف ، كما يمكن افسادهم بسهولة اذا فتحنا عليهم أبواب الشقاء والشر والكذب . ان المشكلة الأساسية في عالمنا اليوم ( وفي كل يوم ) هي مشكلة رفع المستوى الروحي لمجموع الناس <sup>(١)</sup> ، فاذا نحن خبنا في رفع المستوى الذي ينبغي أن يحيا عليه الناس كلهم فان جميع حسنات مدينتنا تصبح حينئذ نقمة عليهم . ثم تنحدر بهم وتهلكهم ، ونحن اذا جعلنا القيم الأساسية التي نأخذ بها في حياتنا العدل والاحسان والصدق ، فاننا

---

(١) مجموع الناس يضم الاغنياء والفقراء . على السواء .

قد نجونا . أما اذا جعلنا تلك القيم الأساسية هي الرفاهية والمال ، فسوف نكون من الهالكين .

### رسالة الشرق المقبلة

أقول مرة أخرى هنا ان المدينة ليست مرضا ، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شرا وفسادا . والمدينة ليست شرقية ولا غربية ، وليس مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد . انها يمكن أن تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات ، يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها ، من غير أن يسيئوا استعمالها . والشرق الأوسط ( اذا جاز لنا استعمال هذا الاسم ) كان مهد الثقافة ، ومنه جاءت أسباب انقاذ العالم أثناء العصور الوسطى ، حينما بدأ البستار الحديدي في أوروبا يشطر العالم شطرين : العالم المسيحي اليوناني الأرثوذكسي ، والعالم المسيحي اللاتيني الكاثوليكي . وها نحن أولاء اليوم ننظر الى ماضى الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل ، ثم نرنو الى مستقبله بعين من الأمل الحلو .

عمر فروخ

# الفنون والآثار الإسلامية

تأليف

ريتشارد إلتجهازون

ترجمة

محمد مصطفى زيادة





يقول العارفون ان لغة الفن « هى اللغة العالمية الوحيدة التى استطاعت البشرية أن ت اخترعها (١) ». ومن الدليل على صحة هذا القول أن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والشعراء فى لغة غير لغتنا ، أو فى بلدغير بلدنا،الاعن طريق الترجمة ، وأن هذه الأفكار—حتى بعد ترجمتها — لا تستغنى عن التفسير التوضيحي الطويل . أما مبتكرات المعمارى ، والمصور ، والخزاف ، والنساج ، وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية ، فهمى على اختلاف بلادها سهولة النطق والفهم لاشباع حاسة الجمال فينا ، ولو أن هذه المبتكرات تعوزها بعض شروح الأخصائي ، لادراك ما فيها من فنانة وابداع .

وهذه الحقيقة تنطبق على فنون جميع الحضارات ، وعلى فنون الحضارة الاسلامية ضمنا ، ولم تكد الفنون الاسلامية تصبح معروفة فى غرب أوروبا حتى غدت موضع تقدير ، بل لم تلبث نماذجها التى وصلت الى أوروبا ثم أمريكا أن احتلت مكانة ممتازة عند المعنيين بالفنون . غير أن الفنون الاسلامية لم تصبح موضع الدراسة الفاهمة الا بعد اثني عشر قرنا من ظهور الاسلام ، وهذه الدراسة لا تزال حتى العصر الحاضر فى دور البداية . ومع هذا يحق للباحث الأوربى والأمريكى كل منهما أن يغتبط لقيام الغرب على البحث التمهيدى من الدراسة والاستقصاء من أجل الشرق ، وأن يحمد للغرب اجتهاده الباكر فى هذا الميدان ، لا فى جمع الميسور من المادة التاريخية والأثرية فحسب ، بل فى استنباط القواعد الفنية لتقدير منتجات الفنانين المسلمين .

ظل المام الغرب بفنون الشرق الاسلامى ضيقا محدودا طوال العصور الوسطى ، حين وقف الاسلام والمسيحية كل منهما فى معسكر مضاد لأخيه ، ليس بينهما من الاتصال السلمى سوى النزر المتقطع . وبالرغم من ذلك استقبلت بلاد المسيحية نماذج الفنون الاسلامية

---

(١) انظر : Morey: The Fine Arts in Higher Education, p, 4.

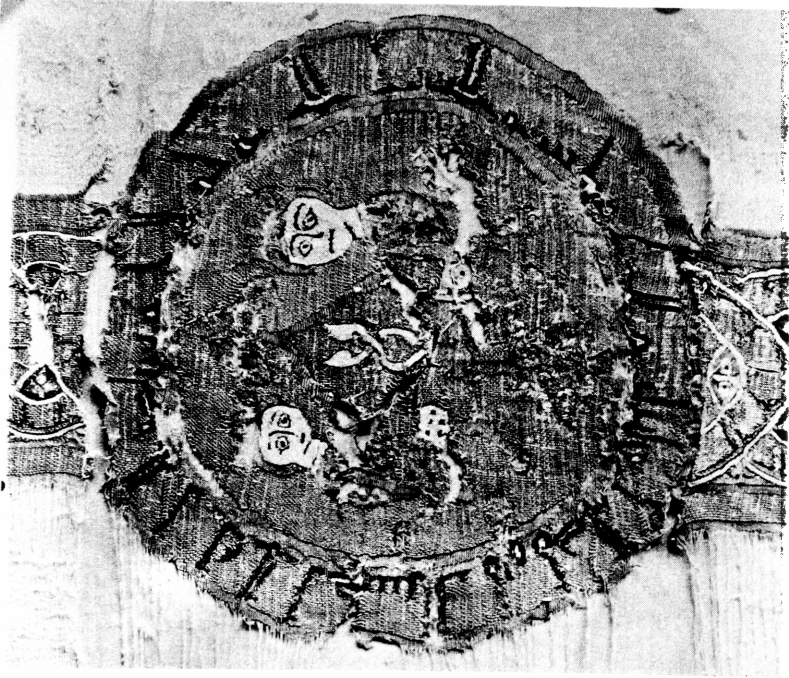
بتقدير كبير ، وغدت المنتجات الفنية التى أبدعتها أيدي المسلمين موضع تشریف فى أوساط مسيحية ، خالتها جديرة بأن تقرن بأعظم أدوات القداسة فى الكنائس . من الدليل على ذلك أن أعظم كتدريسيات المسيحية استخدمت بعض المنسوجات الرفيعة ، من مختلف دور الطراز الاسلامي ، غطاء شفافا لحفظ مخلفات القديسين المسيحيين ( شكل ٤ ) أو طراحة أسقفية للصلوات الدينية ( شكل ١ ) ، بل صارت بعض هذه المنسوجات بذاتها موضع قداسة ( شكل ٢ ) . وفى كثير من الأحوال اشتملت هذه المنسوجات على كتابات عربية بعضها تسبيحات باسم الله ، ولكن هذه الدلائل على أصولها الاسلامية لم تمنع من الاعجاب بها ، واستعمالها فى طقوس كنسية مسيحية . وأكثر من هذا أن المصورين المسيحيين أواخر العصور الوسطى ، وأوائل عصر احياء العلوم فى أوروبا ، درجوا على زخرفة أذيال الملابس فى صور العذراء غالبا بأشكال وتزيينات من الكتابة العربية ، وهذا كلما قصدوا أن يصورا العذراء فى ملابس ذات جلال خليق بمقامها (٢) .

ولا يقل عن ذلك أهمية ومعنى أن بعض الكنائس المسيحية فى العصور الوسطى استأدت — فى طقوسها الدينية — أدوات وأوعية من البللور الصخرى المزوق ، مما يرجع أصل صنعه الى مصر على عهد الأخشيدين والفاطميين ، فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى ، وذلك بوضع هذه الأشياء الأثرية الاسلامية أو أجزائها فى الأدوات والأوعية الكنسية وضع الأحجار الكريمة فى المعادن المصوغة ، بدليل بعض الصلبان الكبرى الخاصة بمواكب الأعياد والمواسم ، وأحقاق الغفران المتعلقة بالعشاء الربانى ، وتركيبات الاضاءة فى الكنائس . مثال ذلك أن حلقة هلالية الشكل ، منقوشة باسم الخليفة الفاطمى أبو الحسن

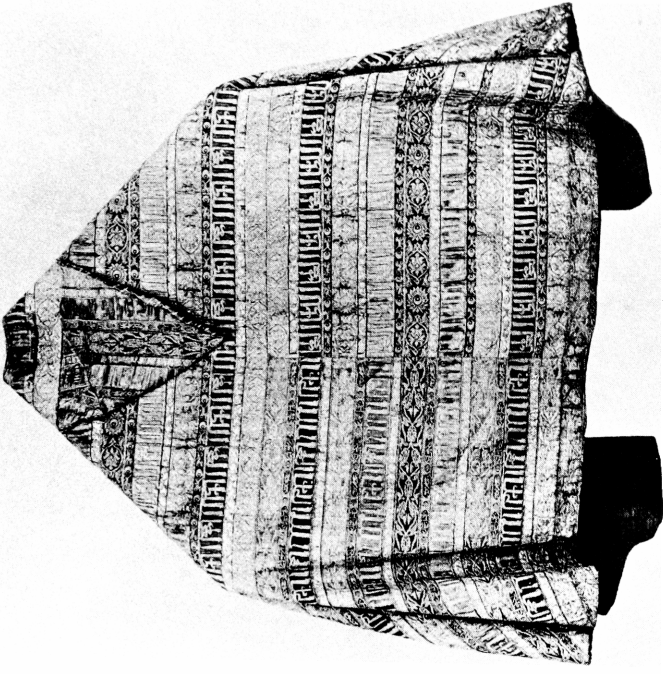
---

(٢) ربما ظن أولئك المصورون بعض الأحيان أنهم أخذوا هذه الكتابات من أصول عبرية ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يقلدون الكتابة العربية فى تصويرهم .

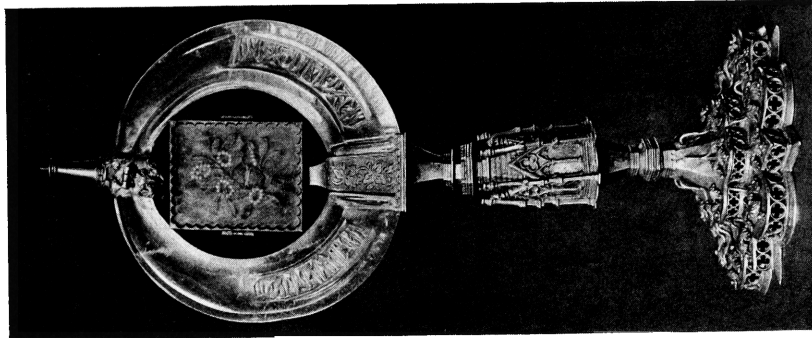
(٣) من المحتمل كذلك أن هذه الحلقة البلورية استخدمت أولا قمة لعصاة أسقفية أو لصولجان ، قبل أن توضع فى حق الغفران المصور هنا .



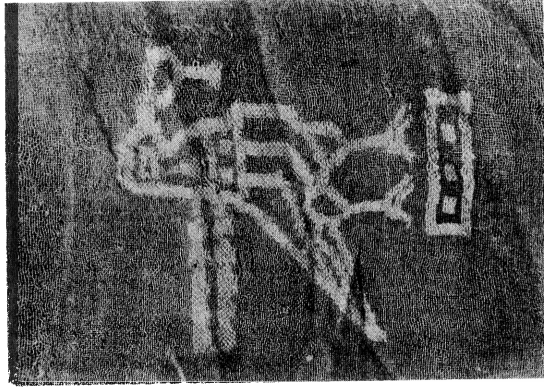
٢ - قطعة من القماش تصور الخليفة الفاطمي المستعلى ووزيره  
الأفضل ، وهي الآن قدامة عند المسيحيين .



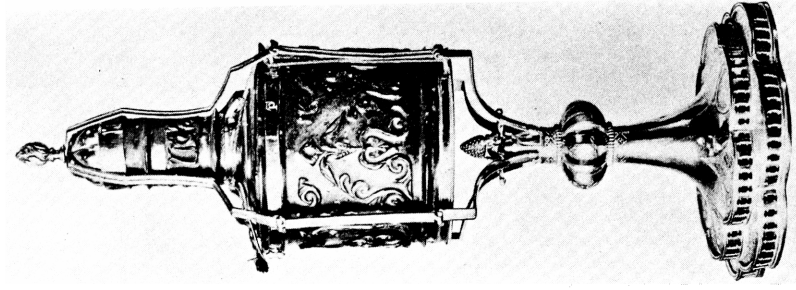
١ - طرآة أسقفية أصلها طرآة إسلامية من العصر المملوكي ، وهي  
مطرزة بكلمتي السلطان العالم .



٣ - أسطوانية للعشاء الرباني  
جزؤها الأعلى حلية فاطمية  
من البللور الصخري .



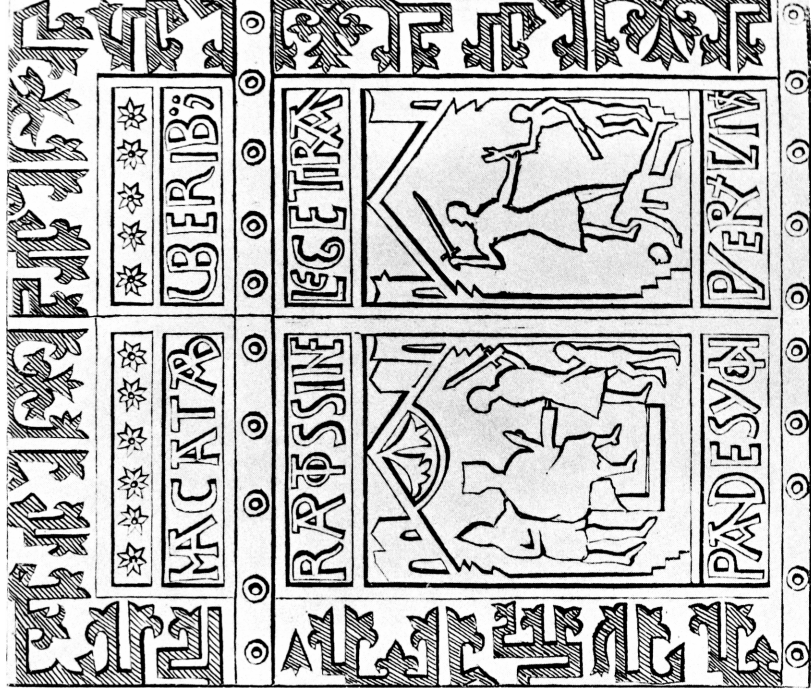
٤ - قطعة من قماش إسلامي إيراني  
شفاف ، لحفظ طريحة أثرية من  
مخلفات العذراء .



٥ - وعاء فاطمي من البللور الصخري  
بكتدرائية القديس مرقس بمدينة  
البندقية ، لحفظ الدم المقدس .



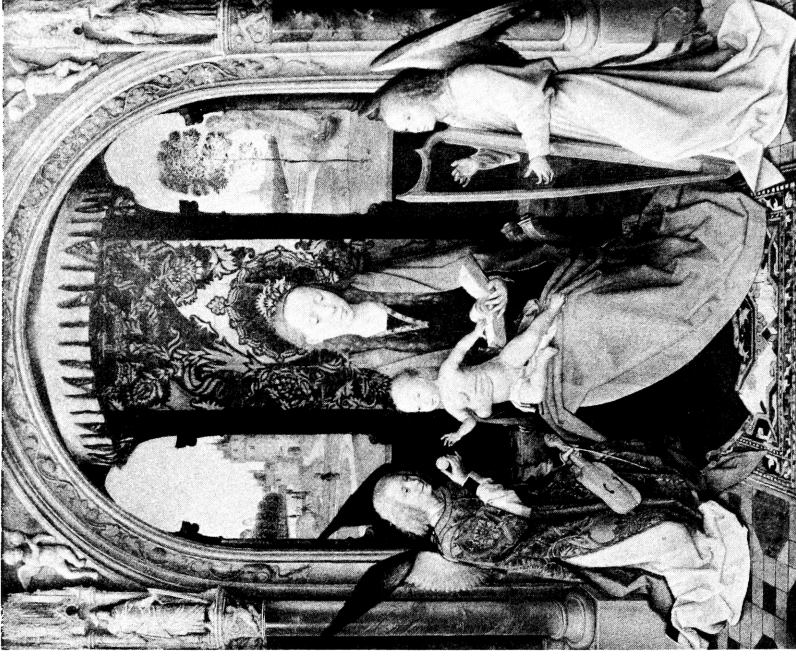
٧ - أشكال من الكتابة العربية منقوشة في حالة العذراء .



٦ - أشكال من الخط الكوفي محفورة في باب كندراية .



٩ - سجادة إسلامية ذات رسوم حيوانية في تصوير إيطالي  
من القرن الخامس عشر الميلادي .



٨ - سجادة إسلامية ذات أشكال هندسية في تصوير فلمنكي من  
القرن الخامس عشر الميلادي .





١٠ - نقوش إسلامية في صينية مصنوعة بمدينة البندقية .

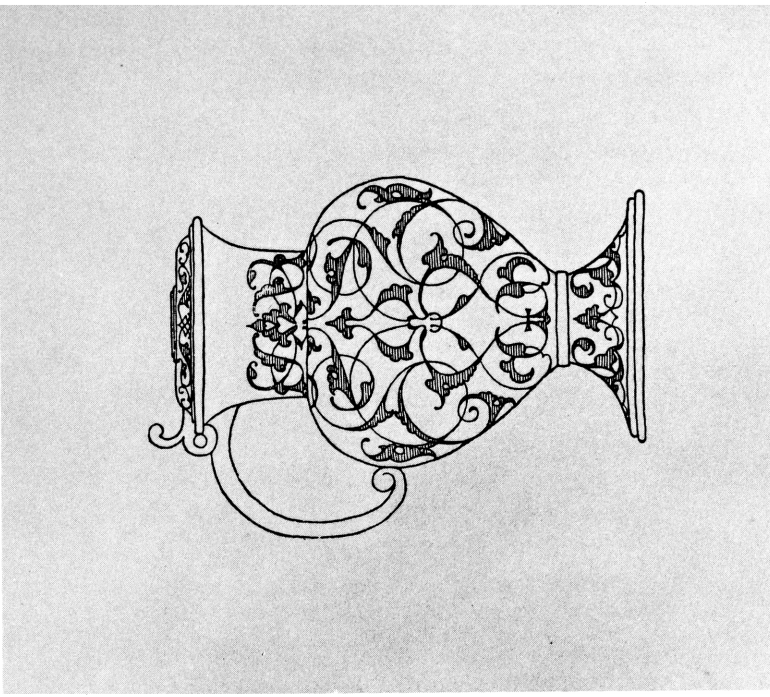


١١ - تقليد أوروبي لصناعة التكنيت .





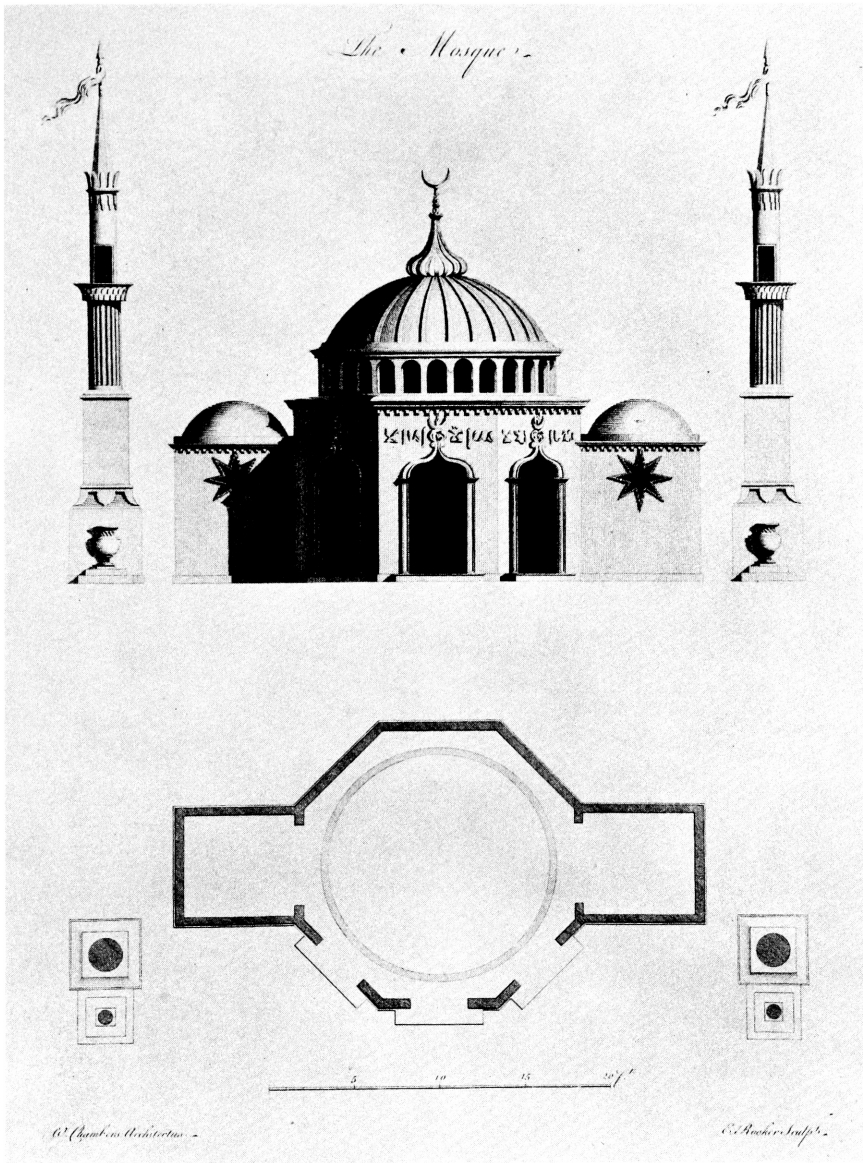
١٣ - زخرفة تركية شبيهة بزخرفة هولباين الألماني .



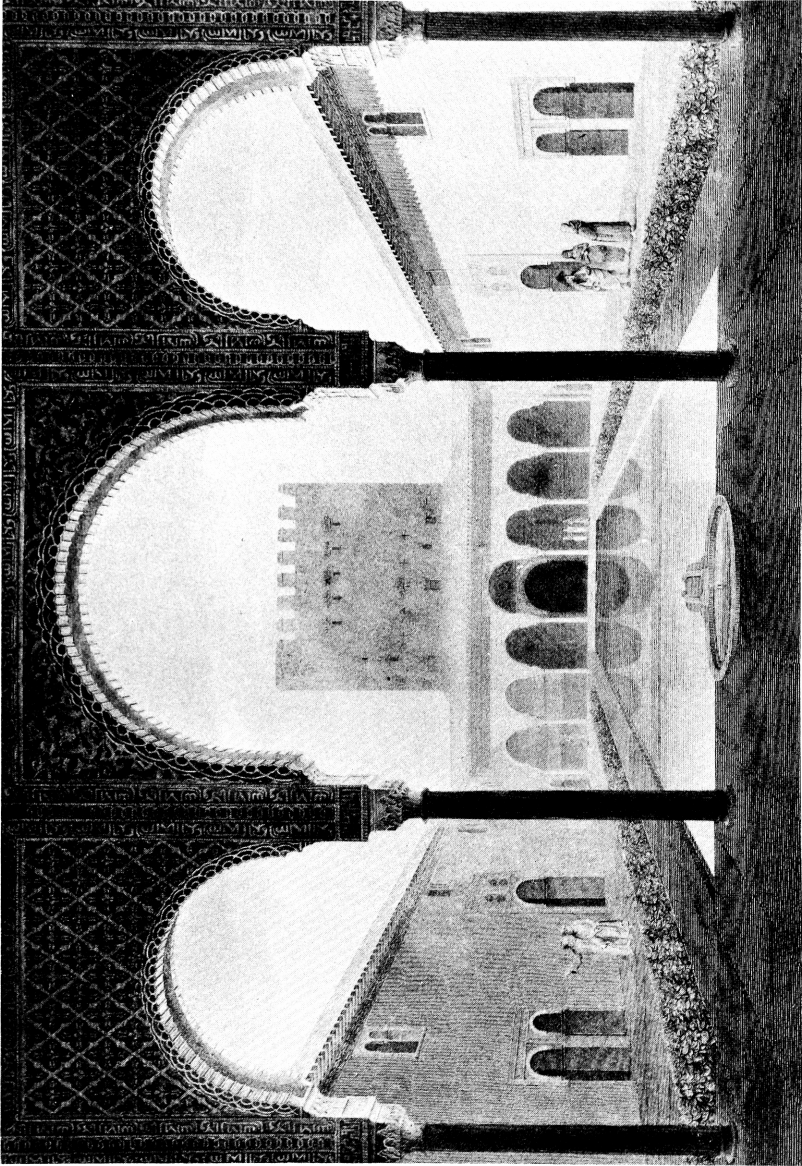
١٢ - زخرفة من أصول إسلامية استعملها هولباين الألماني في زخرفة الأواني والأقداح .



١٤ - صورة من عمل زمبراندت الهولاندى دالة على معرفته وإعجابه بالتصوير الاسلامى  
فى البلاط المغولى التيمورى بالهند .



١٥ - الفن المعماري التركي في نظر الفن المعماري الانجليزي في القرن الثامن عشر الميلادي .

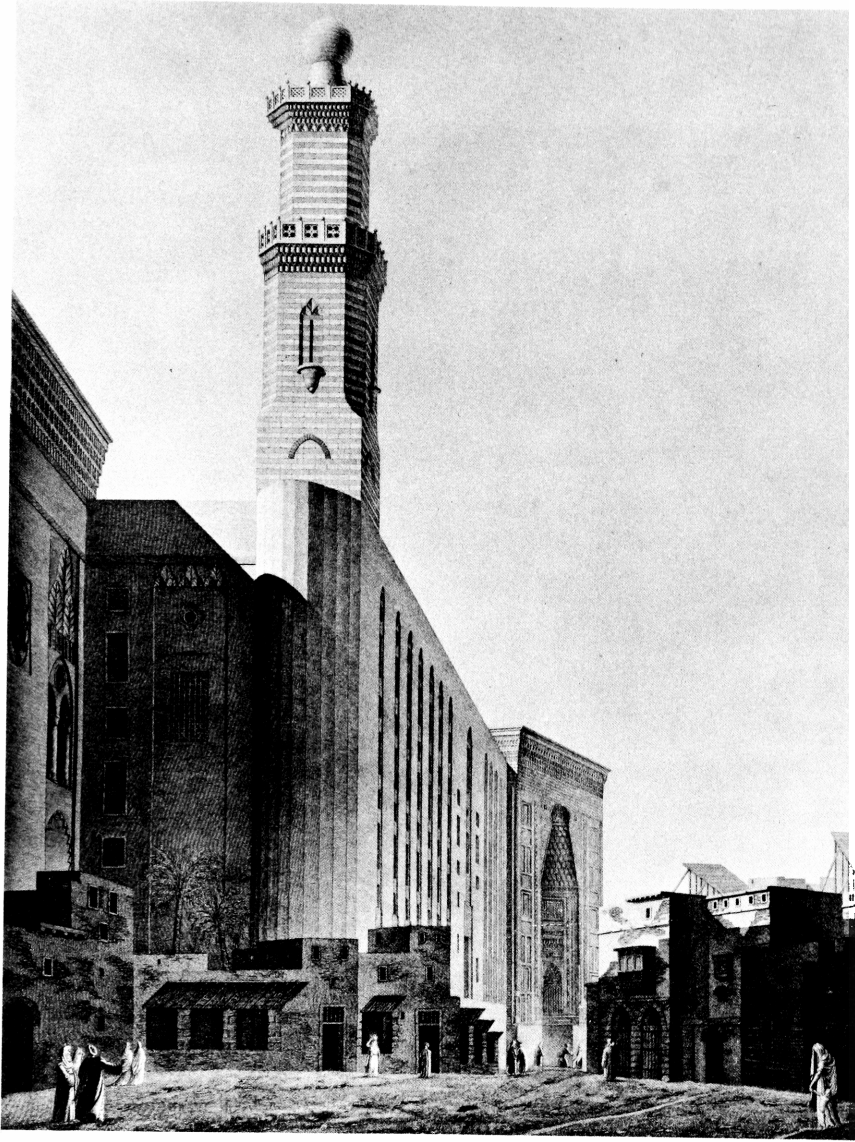


١٦ - نقطة الدوائر الفنية الأوروبية لجمال الفن المعمارى الاسلامى فى الصحن الكبير بقصر الحمراء بدينه غرناطة .

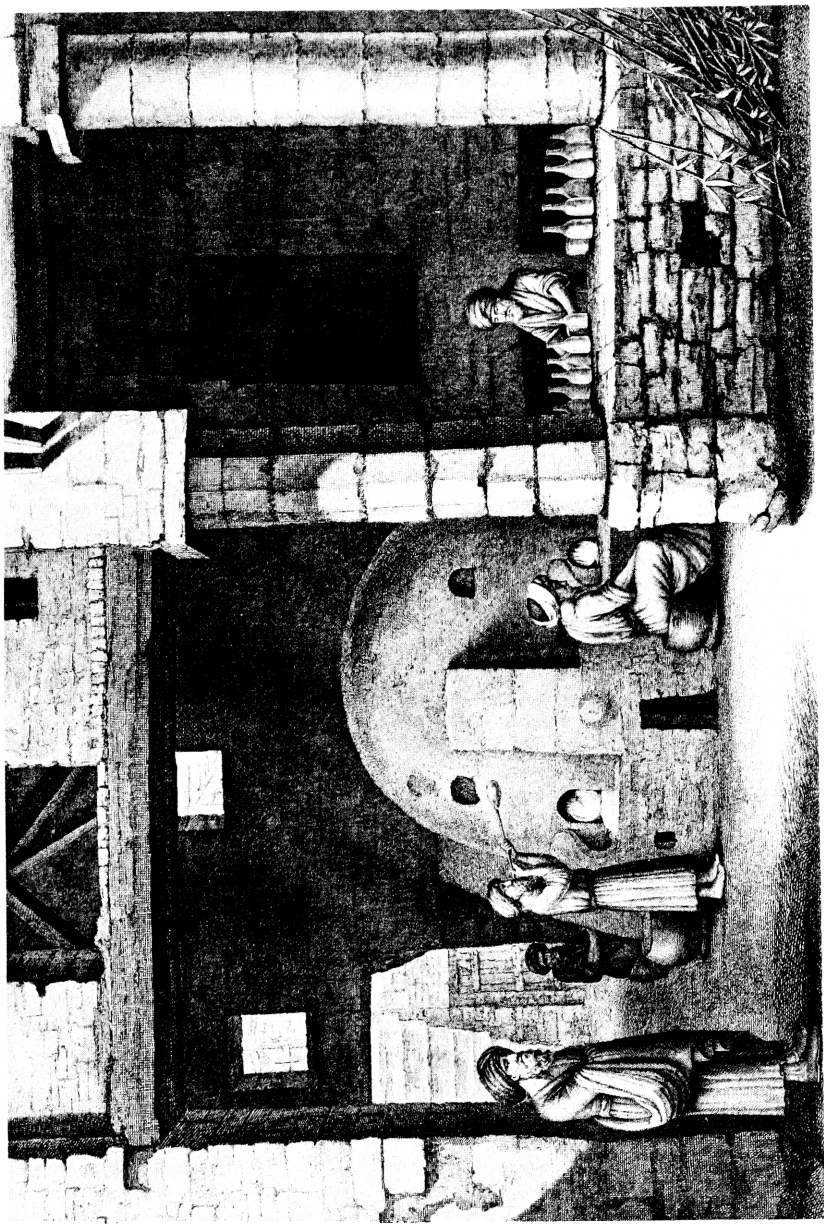


١٧ - نظرة رومانتيكية إلى نموذج شهير من نماذج المعمار الاسلامي بمسجد الجمعة  
بمدينة قرطبة .

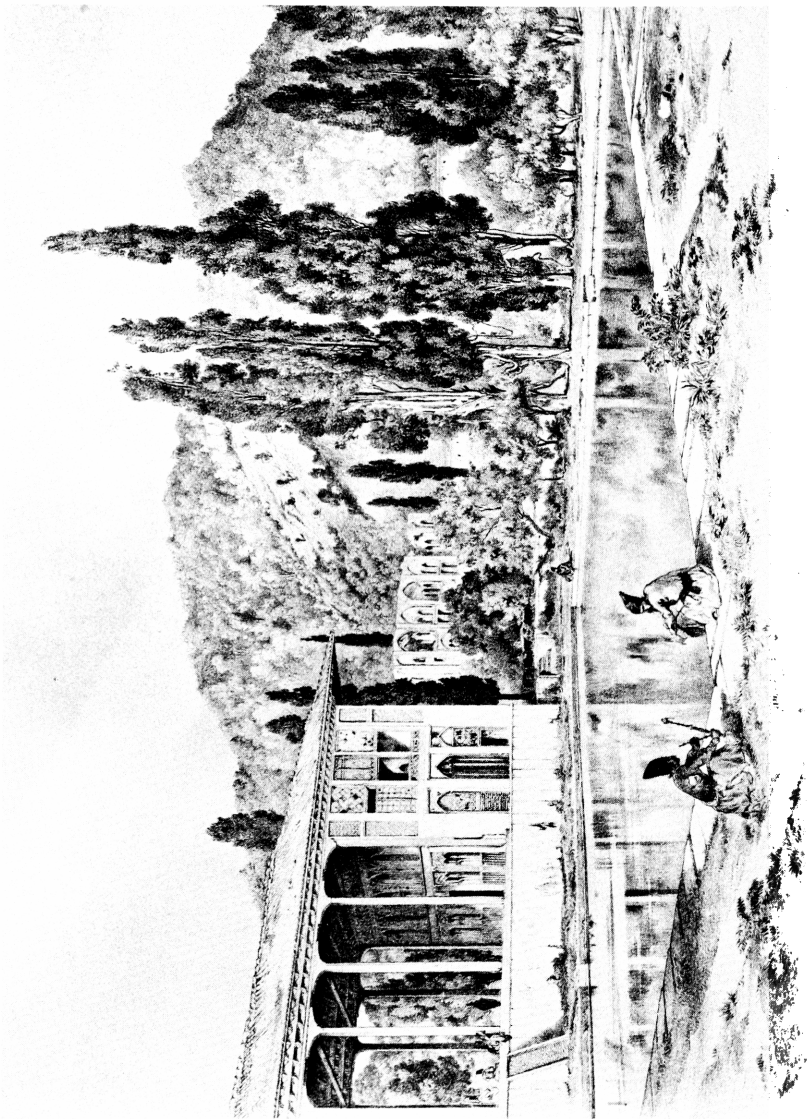




١٨ - تسجيل الآثار المعمارية الإسلامية في مصر بأمر نابليون .



١٩ - تصوير أوروبى لصناعة الزجاج فى مصر. أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

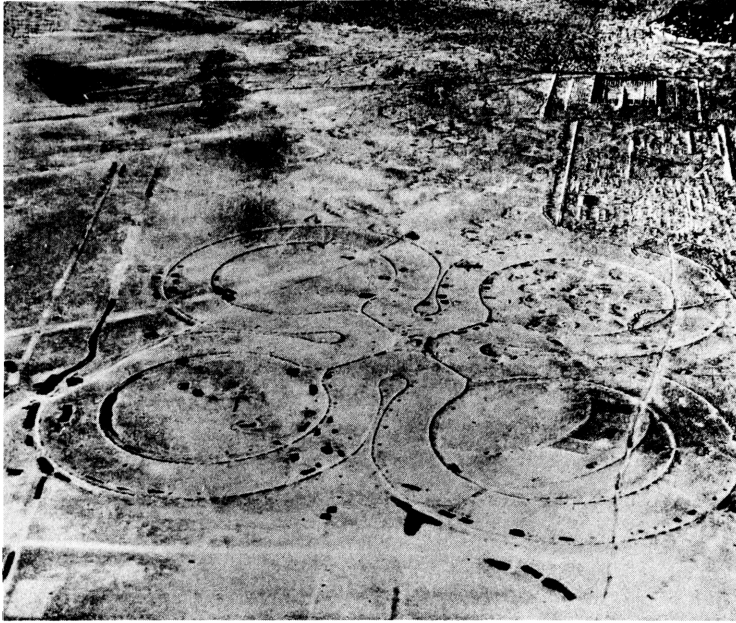


٢٠ - تصوير أوروبي للقصور والبساتين الإيرانية أواسط القرن التاسع عشر الميلادي .

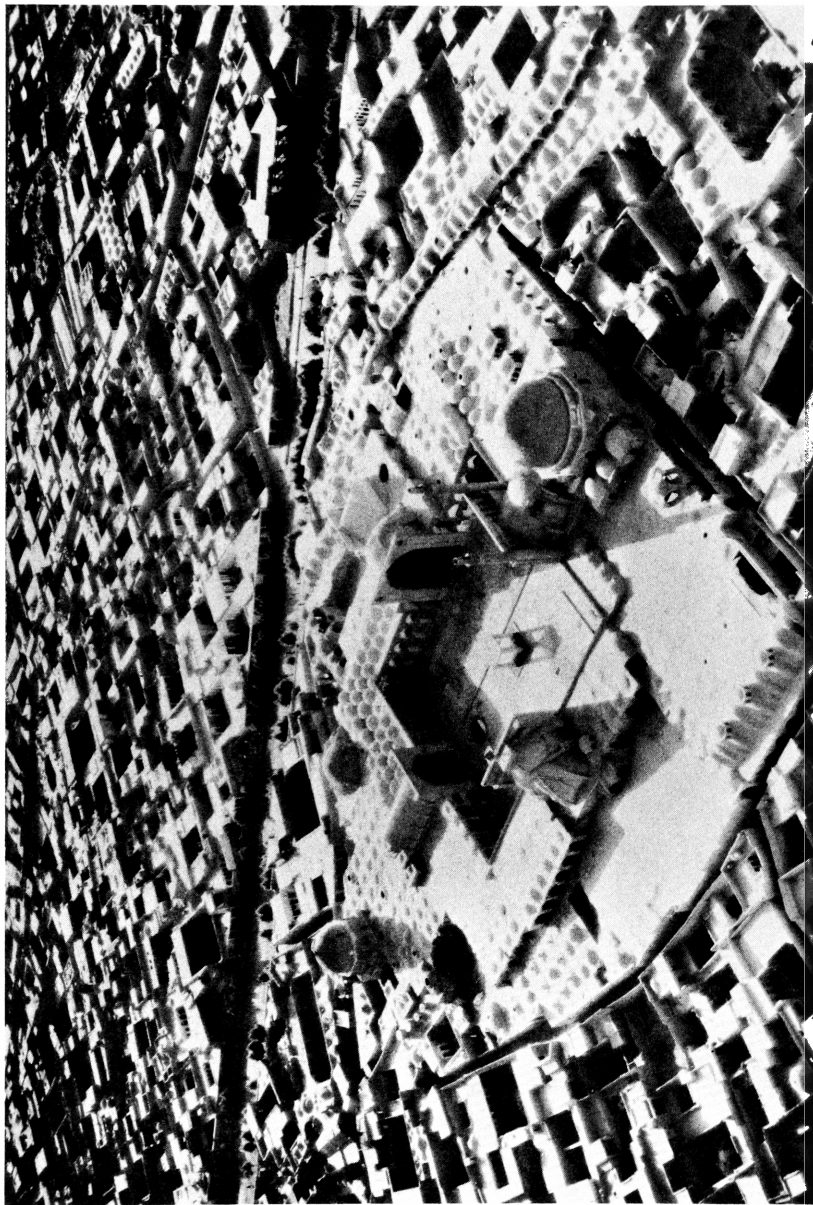




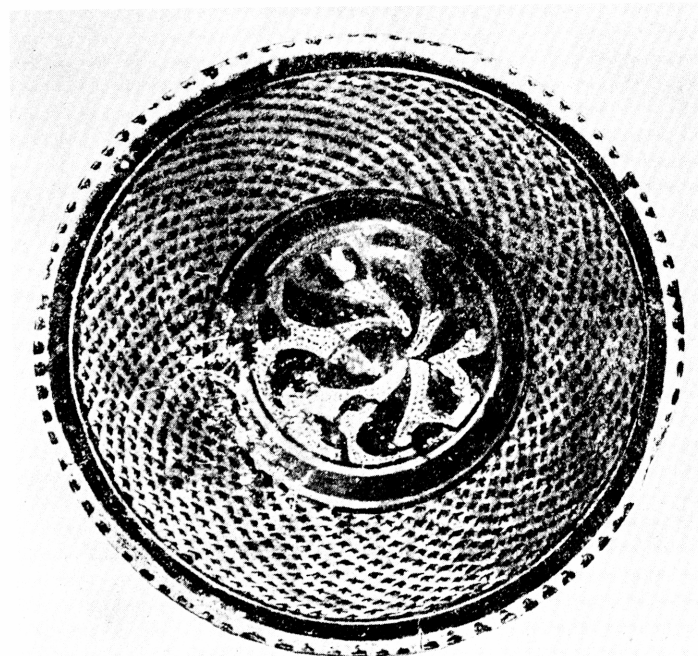
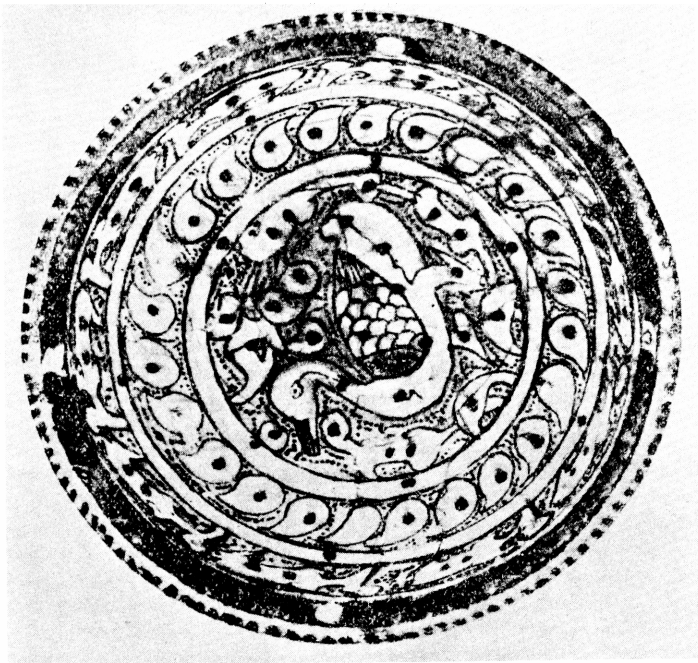
٢١ - تصوير جوى لمدينة الرافقة على نهر الفرات من القرن الثامن  
الميلادى ، وهى شكل حدأة الفرس .



٢٢ - تصوير جوى لميدان السباق بمدينة سامرا عاصمة العباسيين فى  
القرن التاسع الميلادى ، والميدان شكل ورقة برسيم  
وسطه مكان العظماء من المتفرجين .



٦٣ - تصوير جوى لمسجد بمدينة إصفهان يشرح البناء الأصلي والزيادة .



على الظاهر لاعزاز دين الله ( ١٠٢١ - ١٠٣٦ م ) تحولت من حلية لرقبة فرس الخليفة على الراجح الى أعلى جزء من حُقّ للغفران (Monstrance) من الفن القوطى المحدث ( شكل (٣) ) .

وأغلب من هذا استعمالا أن أواني اسلامية من البللور الصخرى صارت أوعية دينية في الكتدرائيات والكنائس ، وأشهر هذه الأواني التي غدت من تحف بيوت العبادة المسيحية وعاء الدم المقدس Reliquiario de Sangue Miraculoso بكتدرائية القديس مرقص بمدينة البندقية بايطاليا ، اذ يحتوى سطحه الأسطوانى على زخرفة عربية ، فضلا عن كتابة كوفية فيها اسم الله ، ولم يمنع ذلك من استعماله وعاء لحفظ الدم المقدس . ( شكل ٥ ) . الواقع أن عددا من الكنائس المسيحية يملك كثيرا من هذه الأوعية البلورية الشفافة ، وهى مستعملة لحفظ مخلفات العذراء ، أو حنا المعدان ، أو مريم المجدلية ، وغير أولئك من القديسين والقديسات . أما موضع الأهمية في ذلك كله فهو أن هذه الأشياء الاسلامية لم تستخدم لأنها أواني زعيمة بحفظ مخلفات مقدسة ، بل لأنها بسبب شفافتها دلت عقول الناس في العصور الوسطى على رمز من رموز ميلاد المسيح من العذراء الطاهرة . أليس من الوارد في كتب السلف أن المسيح تجلّى في رؤيا للقديسة بردجت ، وقال : « انى صرت لحما ودما دون خطيئة أو شهوة ، اذ مررت في رحم العذراء كما يمر شعاع الشمس في حجر كريم (٤) » .

ونحن نستطيع أن نذكر أدوات كنسية أخرى من أصول اسلامية ، وهى مصنوعة من مواد مختلفة ، مثل العاج والمعدن ، لندل على مدى ما بلغ الاسلام من التأثير في فنون الغرب المسيحي عن طريق هذه التحف ،

( ٣ ) . أنظر :

Lamm : Mittelalterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten, Berlin, 1929-1930, vol. 1, p. 213, no. 21.

(٤) وردت هذه العبارة في قصة أول رؤيا روحية لهذه القديسة

الارلندية ، انظر :

Meiss: Light as Form and Symbol in Some Fifteenth Century Paintings, Art Bulletin XXVII, 1945, p. 177).

ولكننا نمسك عنها خشية الاطالة . وكذلك لسنا بحاجة الى الاطالة في شرح أشباه الكتابة العربية في مختلف المواد والأدوات الفنية في الكنائس ( شكل ٦ — ٧ ) ، ولا سيما أن هذا النوع من التحلية في العصور الوسطى ظل موضع الدراسة منذ مائة ونيف من السنين (٥) . على أن واحدة من هذه التحف — وهى السجادة الشرقية — تستحق التخصيص بإشارة عابرة ، لأنها خلقت في الغرب إعجابا متصلا منذ أواخر العصور الوسطى الى العصر الحاضر ، إذ ازدادت الصور الايطالية من أوائل القرن الرابع عشر الميلاد فصاعدا بأنواع من السجاد الشرقي من مختلف العصور الاسلامية تحت عرش العذراء ، أو تحت أقدام القديسين ، أو فوق أرضية الغرف والدهاليز ، أو فوق الموائد والمقاعد ، أو غير ذلك من مواضع التشريف في هذه الصور . ( شكل ٨ — ٩ ) . ثم أضحت لنا صور هذا السجاد الشرقي من الأهمية الفنية بمكان ، لأنها حفظت لنا نماذج سجادية لا وجود لأصولها في العصر الحاضر .

وفي عصر احياء العلوم في غرب أوروبا لم تكن الفنون الاسلامية ميدانا مغلقا مجهولا ، برغم انصراف العقول في ذلك العصر الى الفنون اليونانية والرومانية القديمة ، بل أعجب الفنانون الأوروبيون بطرق الزخرفة في

---

(٥) يتضح من شكل ٧ هنا أن تقليد الكتابة العربية مكتوب بطريقة الحفر والتهشير (hatching) ، وهذا الشكل رقم ٧ مأخوذ من كتاب عنوانه Longpérier: L'Emploi des Caractères Arabes dans l'Ornementation chez les Peuples Chrétiens de l'Occident. Revue Archéologique, 11, 1845-1846. p. 700. — Reich : « Une Inscription Mamlouk sur un Dessin Italien du quinzième siècle », Bulletin de l'Institut d'Égypte, XXII, 1940. p. 127.

حيث توجد قائمة بجميع المصادر في هذا الموضوع . وتبغى الإشارة الى أن Reich قصر بحثه في تلك المقالة ( ص ١٢٣ — ١٣١ ) على صورة نقل فيها مصورها الأوربي — وهو من أساتذة التصوير في البندقية في القرن الخامس عشر الميلادى — نص كتابة عربية من مشكاة مطلية بالمينا للسلطان الملك المؤيد شيخ ( ١٤١٢ — ١٤٢١ م ) ، وهذه الصورة وإن لم تكن فريدة في نوعها فهى نادرة ، وهى محفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس .

الاسلام ، ولا سيما الزخرفة النباتية ( arabesque <sup>(٦)</sup> ) . من الدليل على ذلك ما حدث حين قدمت جماعة من أرباب الصناعات المعدنية من الشرق الأدنى الى البندقية فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، اذ أخذت هذه الجماعة تصنع أوانى وصحائف ( أطباق ) ذات زخارف نباتية بديعة التوزيع والتفريع ، فلم يلبث الفنانون البندقيون أن حكوا هذا النوع من الزخرفة . ( شكل ١٠ — ١١ ) . ثم لم تلبث الزخرفة النباتية برغم تفرعاتها والتواءاتها وتعاريجها أن صارت أسلوبا محبوبا لدى الفنان فى ذلك العصر الاحيائى ، حتى ان المصور الألماني هولباين الصغير — على أستاذيته وجلالته — لم يتردد فى استنباط نماذج للزخرفة من هذا الأسلوب . ( شكل ١٢ — ١٣ ) <sup>(٧)</sup> .

ومن المعروف كذلك أن المصور العظيم رامبرانت الهولندى — وهو أستاذ ميدانه وزمانه — كان من أوائل الذين اجتذبهم علو المستوى الفنى فى تصوير الأحياء فى بعض الصور التى وصلت الى يده من احدى البلاد الاسلامية ، اذ امتلك منها رامبرانت مجموعة عددها خمس وعشرون منمة مغولية تيمورية ، وبلغ من اعجابه بها أن صور لنفسه نسخا منها ، حين اضطرته ضائقة أحواله المالية الى بيعها سنة ١٦٥٦ <sup>(٨)</sup> م . ومن هذه المنمنمات المنسوخة واحدة فى متحف اللوفر فى باريس ، ويتضح

(٦) لم يصطلح علماء الآثار فى بلاد العربية على ترجمة واحدة لهذه الكلمة المحدثه فى اللغات الأوروبية ، فهى عند بعضهم الزخرفة النباتية ، او التوريقية ، وهى كذلك « الزخرفة الحاملة » ، بل اقترح بعضهم ترجمتها الى « الزخرفة الساكنة » تمييزا لها من الزخرفة بصور الكائنات الحية ، نظرا لما غلب على الزخرفة الاسلامية من استبعاد أشكال الأحياء ، فى الزخرفة والفنون عامة . زيادة .

(٧) انظر :

Jessen. Der Ornamentstich Geschichte der Vorlagen des Kunsthandwerks seit dem Mittelalter, Berlin, 1 20, pp. 63, 103, 105, 73, and figs. 41, 42, 72

ومن هذا الشكل الأخير نقلنا شكل ١٢ هنا . انظر كذلك شكل ٧٣ ، فى كتاب (Jessen) . وتدل زخرفة غلاف الكتاب المتقدم على مبلغ الاهتمام بالزخرفة النباتية فى أوروبا فى عصر احياء العلوم ، اذ نقل المؤلف هذه الزخرفة

من كتاب مطبوع فى زيورخ عام ١٥٤٩ ، وهو Floetner: Maureskenbuch وللتعريف بهذا الكتاب انظر كتاب (Jessen) ، ص ١٠٥ .

(٨) انظر :

Sarre: « Rembrandts Zeichnungen nach indisch - islamischen Miniaturen ».

منها ومن اخواتها أن رامبراندت استنسخها كلها في سرعة ، مع ادراك خارق لكل ما فيها من تفصيلات فنية هامة . وهذه المنسوخة تصور أشخاصا من السلالة التيمورية اللامعة ، ففي وسط الجزء الأيمن من الصورة تيمورلنك نفسه جالسا تحت الجتر ، أى المظلة السلطانية ، وهى من شارات الملك ، وأمامه السلطانان أكبر وجها نكير راکعان ، ووراء من ناحية اليسار ثلاثة سلاطين آخرين، لعلهم عمر شيخ ، وبابر ، وهمايون. ( شكل ١٤ ) .

ومما يدل على أن امتلاك رامبراندت لهذه المجموعة من المنمنمات الاسلامية لم يكن من دافع نزوة شخصية ، بل من دافع اعجاب وتقدير ، أن كثيرا من عظماء المصورين الانجليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى ، وأوائل القرن التاسع عشر كذلك ، تداولوا امتلاك هذه المنسوخات وأصولها ، وأن سير چوشوا رينولدز ، رئيس المعهد الملكى للفنانين (Royal Academy) فى لندن ، أعجب بمجموعة أخرى من منمنمات فاخرة ، وهى الآن من كنوز المتحف البريطانى فى العاصمة الانجليزية .

لكن الاهتمام الأوروبى العلمى بالآثار الاسلامية بدأ منذ القرن الثامن عشر الميلادى .. ومن أول ما وصل الى أوروبا من هذه الآثار مجموعة من نقود ذوات سكة كوفية من القرن الثامن الى القرن الحادى عشر الميلادى . وكانت هذه النقود وأشباهاها مطلوبة أشد طلب فى الشمال الشرقى من أوروبا أوائل العصور الوسطى ، ولذا كثر ظهورها فى القرن الثامن عشر الميلادى فى أعداد كبيرة بكثير من البلاد الواقعة حول شواطئ البحر البلطى ، وفى بلاد اسكندناوة ، وشمال ألمانيا ، وفى روسيا كذلك . وأدى ظهور هذه المسكوكات الى بحوث جدية فى النميات ( النقود ) الاسلامية ، وتألّفت حولها مؤلفات غير قليلة . ففي سنة ١٧٢٤م ظهر فى ليبزج بألمانيا بحث من تأليف جورج ياكوب كير <sup>(٩)</sup> ، وهو بحث أطلق عليه علماء الآثار اسم التأليف الأول فى علم النميات الاسلامية ،

(٩) انظر :

Kehr : Monarchiae Asiaticae-Saracenicae Status qualis VIII et IX.

لصحة قراءة المؤلف للكتابة فضلا عن جزالة الشروح ؛ وهذا البحث هو الأول كذلك في علوم الآثار الاسلامية عامة (١٠) .

على أن هذا القرن الثامن عشر الميلادي لم يختتم حتى صار لدينا قوائم ( كتالوجات ) لمجموعات من النميات الاسلامية بمختلف البلاد الأوروبية ، ومن هذه المجموعة الكوفية في متحف بورجيا في روما ، ومجموعة متحف نانيانو في بادوا ، وكلاهما بايطاليا ، ثم مجموعة المكتبة الملكية في جوتنجن بألمانيا ، ومجموعة استوكهلم بالسويد . ثم انتهت هذه المرحلة الأولى من مراحل الدراسة في الآثار الاسلامية بتأليف فرايهرن أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كتابا رتب فيه النقود الاسلامية ترتيبا تاريخيا . وهو على ما فيه من أخطاء تفصيلية صغيرة ما برح غير مسبوق في ميدانه ، بل لم يقم أحد بأية محاولة جدية في تأليف آخر يحل محله (١١) .

ولا يزال البحث في دراسة النميات قائما حتى العصر الحاضر ، اذ جعلها هذا السبق في الطليعة بالقياس الى الفروع الأخرى من الفنون والآثار الاسلامية . ففي السنوات الواقعة بين ١٨٧٥ و ١٨٩٥ م أخرج ستانلي لينبول كتالوج النقود الشرقية بالمتحف البريطاني ، في أحد عشر مجلدا . وأعقبته كتالوجات مشابهة في مجلدات أقل عددا لمجموعات بطرسبرج في روسيا سنة ١٨٨١ م ، والمكتبة الأهلية في باريس ( ١٨٨٧ — ١٨٩٦ م ) ، والمتحف السلطاني العثماني ( ١٨٩٤ — ١٩٠٣ ) ، والمتحف الملكي في برلين ( ١٨٩٨ — ١٩٠٢ م ) . الواقع أن كثيرا من المستشرقين وعلماء النميات ظلوا يعملون في هذا الميدان طوال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي ، ولا حاجة لذكر أسمائهم أو أسماء اللامعين منهم ، ولا سيما

(١٠) انظر :

Mayer: The Rise and Progress of Moslem Archaeology (in Hebrew), Jerusalem, 1935, p. 6.

وجدير بالذكر هنا أن ماير تفضل على مؤلف هذه السطور بترجمة انجليزية لتلك المقالة ، وهي أول محاضرة له في كرسي الاستاذية في تاريخ الفنون والآثار بالشرق الأدنى ، بالجامعة العبرية ببيت المقدس . وكتاب جورج يا كوب كذلك فضل كبير في اعداد هذا الفصل .

(١١) انظر المرجع السابق ، ص ٦-٧ .



بعد أن أخرج ليو ماير كتاب كشف النقود الاسلامية (Bibliography of Muslim Numismatics لندن ١٩٣٩ م ، وأحصى جميع مؤلفات هذا الموضوع حتى سنة ١٩٣٤ م . واجتذب ميدان النقود جماعة من علماء الولايات المتحدة الأمريكية ، ودل كتاب تاريخ مدينة الري من مسكوكاتها ، تأليف مايلز ( نيويورك ، ١٩٣٨ م ) على طرق جديدة في ترتيب النقود الخاصة بأحد المراكز الاسلامية الكبرى ، وموازنة حقائقها بأخبار المؤرخين المسلمين .

غير أنه من المعروف الذى لا يحتاج الى بيان أن النقود الاسلامية - على أهميتها من الناحية الأثرية - لا تستطيع أن تدخل في عداد الانتاج الفنى ، لأن غالبيتها العظمى لا تحتوى على شئ فنى سوى الكتابة ثم ان النقود المصورة ، وهى التى تحتوى على صورة خليفة أو أمير ، لا توجد الا في النادر الشاذ . ومع هذا فالنقود فرع من الفروع المساعدة في هذا الميدان ، لأنها تمد الباحث بحقائق تاريخية مادية .

ثم جاءت بعد البحث في النقود بحوث في نواح أخرى من الآثار الاسلامية تغلب عليها الصفة التاريخية ، وأهمها النقوش والخطوط . ففي سنة ١٧٧٢ م أخرج كارستن نيبور قرآنا كوفيا مزينا ضمن كتابه وصف بلاد العرب (Beschreibung von Arabien)؛ لكن البحوث المنظمة في هذا الميدان لم تبدأ الا بعد حوالى خمسين سنة من ذلك التاريخ . والواقع أن الكتابات الاسلامية لم تحتل مكانها من الأهمية العلمية الا سنة ١٨٢٨ م ، حين أخرج المؤلف رنيوه كتابه المسمى « وصف الآثار الاسلامية في مجموعة دوق بلاكاس » ، وهو أول كتاب هام يبحث في مجموعة كاملة من الآثار الفنية الاسلامية الصغرى . وفي سنة ١٨٣٨ م أخرج المستشرق الفحل يوسف فون هامر برجشتال بحثا في كتابة كوفية من مسجد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، بالقاهرة ، كما ألقى سنة ١٨٤٨ م محاضرة جامعية في موضوع الأختام ، وهذه طبعت فيما بعد . وفي سنة ١٨٤٠ م ألف ميخائيل أنجلو لانشى كتابا في شواهد القبور

الاسلامية ، وأعقب ذلك سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ بكتاب عنوانه بحث في الصور الرمزية العربية ، وفي تنوع الحروف الاسلامية في نقشها على المواد المختلفة (Trattato delle simboliche rappresentanze arabiche e della varia generazione de' musulmani caratteri sopra differente materie operati).

وهو في ثلاثة مجلدات تبحث لا في مختلف أنواع الخطوط فحسب ، بل في تنظيمات رموز الكواكب في نماذج الفنون الصغرى ، والطلاسم ، والتعاويد ، والأسلحة ، والرايات ، والملابس .

وأخيرا شهدت مطلع القرن التاسع عشر الميلادي يقظة الأوساط الأوربية الى أهمية الآثار الفنية الاسلامية ، ولا سيما الآثار المعمارية . وكانت أسبانيا أول البلاد التي أثارت هذه اليقظة فأدى ذلك الى إنتاج مؤلفات ضخمة في مجلدات كبيرة . وأول رائد في هذا الميدان جيمس كافانا ميرفى ، بكتابه الذى عنوانه الآثار الاسلامية في اسبانيا ، وهو كتاب يتميز حماسة لكل شئ اسلامى ، لا بتصويراته الجميلة للمباني الاسلامية وزخارفها وكتاباتهما فحسب ، بل بعنايته بصفحة العنوان ، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية (١٢٢٨ هـ) الى جانب السنة الميلادية (١٨١٣ م) التى تم فيها طبع الكتاب (شكل ١٦) . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي نشط مؤلفون آخرون الى البحوث الأثرية في أسبانيا ، وأخرجوا نتائج بحوثهم في مطبوعات كثيرة . ومن أولئك دولابورد ، وچيرو ديرانجى ، چول جوروى ، وأوين چونس ، وغيرهم (شكل ١٧) (١٢) . وحوالى ذلك الوقت كانت فئة أخرى من المؤلفين الذين امتدت بحوثهم الى الآثار الاسلامية بجزيرة صقلية ، وذلك عن طريق بحوثهم في الآثار الصقلية عامة .

(١٢) انظر :

De Laborde : Voyage Pittoresque et Historique de l'Espagne. Paris, 1806-1820.  
De Prangey, G.: Monuments Arabes et Moresques de Cordoue, Séville et Grenade. Dessinés et Mesurés en 1832 et 1833, Paris, 1836-1839.  
وانظر للمؤلف  
Essai sur l'Architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Séville et en Brabarie, Paris, 1841.

Goury and Jones ; Plans, Elevations : Sections and Détails of the Alhambra, from Drawings Taken on the Spot in 1834, by the late Goury, in 1834, and in 1839 by Jones. (Arch., London, 1842-1845).

وللقارىء أن يستفهم هنا عن السبب الذى أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار والفنون الإسلامية ، وهذا السبب لا ريب هو المعروف فى أوروبا باسم الحركة الرومانتيكية — أى الابتداعية — بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدنات السابقة البعيدة عن زمنها ومحيطها . الواقع أن هذه الحركة التى أعجبت بتماثيل النبلاء اليونانيين ، وصور الفرسان الأتقياء من الأقطاعيين ، وشجعت احياء النماذج اليونانية القديمة ، والنماذج القوطية العصور الوسطى ، لم تستطع الا أن تعجب كذلك بالفن الاسلامى الذى أنتج عمائر باسقة مثل قصر الحمراء فى غرناطة بأسبانيا الاسلامية ، وهو « قصر طلته يد روحانية بحلة ذهبية ، فصار كحلم من الأحلام ، وشاع فيه الانسجام والتناسب (١٣) » .

على أن هذا الاهتمام الجديد بالآثار الاسلامية لم يكن سوى فرع من تيار علمى أوروبى بدت ظواهره الأولى سنة ١٧٦٢ م ، حين ظهر الجزء الأول من كتاب الآثار الأثينية ، تأليف ستيوارت ورف (Stuart and Revett) ثم غدت أهدافه واضحة فيما أعقب ذلك من جهود لكشف أصول الأفكار المعمارية فى العصور القديمة . على أنه ينبغى أن نذكر هنا أن نوعا من الاهتمام بالمعائر الأجنبية الغريبة على الذوق الأوروبى لم يكن معدوما حتى قبل هذه السنة من القرن الثامن عشر الميلادى ، مع العلم بأن الغاية من هذا الاهتمام فى ذلك العصر المعروف فى تاريخ الفنون باسم العصر الزخرفى المبهرج (Rococo) ، لم تعد تنبيه الأذهان والأذواق الفنية الى بناء المعائر الشبيهة بالشرقية ، وابتكار المناظر البهيجة ، ولا سيما فى تنظيم الحدائق . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك النوع من الاهتمام أن المعمارى الانجليزى سير وليام تشامبرز وضع تصميمات الحدائق والمباني ببلدة كيو — فى اقليم صرى قرب لندن — حوالى سنة ١٧٦١ ، على أن يكون من هذه المباني مجموعة من الغرائب المعمارية ، من معبد للاله اليونانى پان ، وملهى للالهة الرومانية أوجستا . وكتدرائية قوطية ، وبيت

(١٣) جعل جودى وجونس هذه العبارة شعار الغلاف فى الكتاب المشار اليه فى الحاشية السابقة ، وهذا الشعار مطبوع بحروف ذهبية كبيرة ، وسط زخرفة الصفحة الاولى من المجلد الاول .

كونفوشيوسى ، وياجودا صينية ، وهكذا فضلا عن بناء أطلقوا عليه اسم الهمبرا « الحمراء » ، برغم خلوه من أية هندسة معمارية اسلامية اسبانية (moorish) ، فضلا عن مسجد من الأسلوب المعمارى التركى العثمانى ، وهو أول بناء من نوعه فى غرب أوروبا . ( شكل (١٤) ١٥ ) . ومع أن سير وليام تشامبرز طلب الى العالم الدكتور مورتون أن يمدّه بكتابات عربية صالحة للمسجد ، فإن عدم وجود محراب داخل ذلك المسجد دل على قلة معرفة ذلك العصر بما تكون عليه بيوت العبادة عند المسلمين . لكن الغرض الذى تسوخه سير وليام تشامبرز لم يتطلب شيئا سوى بهجة معمارية ، مما تتصف به المباني التركية العثمانية (turquerie) ، وبذا أحدث أسلوبا معماريا جديدا شاع فى أوروبا (١٥) .

(١٤) انظر :

Chambers: Plans, Elevations Sections and Perspective Views in the Gardens and Buildings at Kew in Surrey, London 1763, pp. 5-6 pls. 20, 21, 27 and 28. غير ان مبنى الحمراء ومبنى المسجد فى كيوتهدما قبل سنة ١٨٢٤ .

(١٥) أعقب مسجد حدائق كيوتو مسجد آخر شيده دوقات البلاطات فى حدائق القصر فى شفتزنجن بمدينة بادن قرب مانهايم بألمانيا ، وقام على بناء هذا المسجد تقولا دى بجاجه سنة ١٧٧٨ م والسنوات التالية . والمسجد لا يزال قائما ، وأسلوبه الفنى على وجه التعميم فرنسى اتباعى - أى كلاسيكى - وليس به من المعانى الشرقية التى أعجب بها ذلك العصر سوى المذنتين والكتابات العربية ، ومع غموض الأسلوب الفنى الاسلامى فى هذا المسجد الألمانى المعقد البناء ، بالقياس الى المسجد الانجليزى السابق له ، فهذان البنيان وأشباههما على جانب عظيم من الأهمية للدلالة على ميول الروح العامة الجديدة نحو الأساليب الفنية الاسلامية . انظر :

Martin : Die Kunstdenkmäler des Amtsbezirks Mannheim, Stadt Schwetzingen, Karlsruhe, 1933, pp. 289-312.

ومبنى اسلام آخر على طراز تركى مما أعقب مباني حدائق كيوتو هو كوشك - أى قصر - فى حدائق هاجا شمالى ستوكهلم بالسويد ، وكان تشييده بأمر من جستاف الثالث ملك السويد سنة ١٨٧٦ م ، بعد عدة تصميمات قدمها اليه المهندس المعمارى پير . وهذا المسجد لا يزال قائما . انظر :

Sirén: China and Gardens of Europe in the Eighteenth Century, N.Y. 1950, p. 192.

وكذلك اللوحة الملونة السابقة لصفحة ١٩٢ ، وكذا اللوحات ٣١ ، ١٦٤-١٦٦ من ذلك الكتاب . ثم ان الكتب الخاصة بالحدائق ذوات الأسلوب الجديد فى القرن الثامن عشر اليلادى لا تقتصر على نماذج من الأساليب الصينية الشائعة وقتذاك فى أوروبا ، بل تحتوى أحيانا على تصميمات ونماذج لمساجد وأكشاك تركية . انظر :

Le Rouge : Détail des Nouveaux Jardins Paris 1776-1787.

Lancaster: Oriental Forms in American Architecture, 1800-1870, Art Bulletin XXIX, 1947, pp. 185-90.

لمعرفة ما تم من البحث فى تأثير الأسلوب الفنى الاسلامى فى العمارة الأمريكية .

وثمة دافع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوربية الى دراسة الشرق الأدنى وفنونه وآثاره ، وهو دافع التوسع الاستعماري والسياسة العسكرية في العصور الحديثة ، مما يغفله الباحثون بعض الأحيان . مثال ذلك احضار نابليون في حملته على مصر جماعة من العلماء لبحث شئون البلاد المصرية بحثا شاملا كاملا ، اذ أعد أولئك العلماء رسوما تخطيطية للمدن ، والمباني ، والعمائر الأثرية ، ورسوموا مناظر معمارية للشوارع ، والحدائق ، والمساجد ، والدور ، والحدائق ، والدروب ، وأبواب الأخطاط ، ورسوموا كذلك مختلف الكتابات ، والنقوش ، والنقود ؛ ولم ينسوا أن يعملوا صورا توضيحية لأنواع الصناعات القائمة بمصر وقتذاك ، فضلا عن مختلف الأدوات المستعملة في هذه الصناعات ، وكذلك الملابس ، والآلات الموسيقية ، وهكذا . وتنتج عن هذه الأبحاث تأليف ضخيم الحجم ، وهو كتاب وصف مصر الذي استغرق طبعه من ١٨٠٩ الى ١٨٢٨ م ، في تسع مجلدات ، وعشر أخرى للرسوم والصور التوضيحية ، وأطلس للخرائط الجغرافية ؛ وهذا الكتاب في مجموعه هو القاعدة الحقيقية والمنبع الحقيقي لمعرفة الآثار الاسلامية . ( شكل ١٨ — ١٩ ) . وبعد ذلك ببضع سنين ، أى بعد أن استولى الفرنسيون على بلاد الجزائر ، سنة ١٨٣٠ م ، استطاع يوجين دلاكروا أن يقوم برحلة الى مراكش سنة ١٨٣٢ م ، وهى الرحلة التى أودع في شرحها رسومه التخطيطية الشهيرة لمناظر الحياة في المجتمع المراكشى <sup>(١٦)</sup> الاسلامي ، كما استطاع راقوازييه أن ينشر سنة ١٦٤٦ م كتابه الذى عنوانه « رحلة كشفية علمية ببلاد الجزائر في سنوات ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ م » . ومن هذه الحركة

(١٦) يوجد من هذه الكتب ذوات الرسوم التخطيطية ثلاثة في متحف

اللوثر Paris, Musée National du Louvre. Exposition Eugène Delacroix...  
Juin-Juillet, 1 30, Paris No. 773-775

ويوجد كتاب رابع منها بمتحف كوندية في شانتيني . انظر :

Le Voyage de Eugène Delacroix au Maroc

جزء من مجموعة قصر شانتيني نشره Guiffrey في باريس سنة ١٩١٣ . ومنذ بضع سنوات حصلت مكتبة بيربونت مورجان على الكتاب الخامس من هذه الكتب ، وفيه رسوم غير مطبوعة . انظر :

The Pierpont Morgan Library, Review of the Activities and Acquisitions of the Library, from 1936-1 40, N.Y. 1941. pp. 62-64, and p. 1. XII.

المازجة بين سيطرة دولة من الدول الأوروبية سياسيا على بلد من بلاد الشرق الأدنى ، وبين تشجيع هذه الدولة للبحوث الأثرية تشجيعا ناشطا في ذلك البلد ، ما هو قائم حتى العصر الحاضر ، بدليل تأسيس دائرة الآثار الفلسطينية على يد البريطانيين ، سنة ١٩٢٠ م ، بعد أن صار اليهم الانتداب على فلسطين ، واصدارهم مجلة ربع سنوية ذات قيمة علمية عالية أثرية منذ سنة ١٩٣١ . ومهما تباينت الآراء بين النافع والضار التي أدت اليها السيطرة الأوروبية في الشرق ، فإن هذا النشاط العلمى فى ذاته أثمر أطيب الثمر .

وفى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ظهرت دراسات تفصيلية أخرى فى العماائر والمخلفات الاسلامية التى كشفت عنها جهود القوامين على الآثار الاسلامية فى الجزء الشرقى من البلاد الاسلامية ، وهى دراسات قام على معظمها مهندسون معماريون ورسامون . ومن أوائل هذه جهود پاسكال كوست فى كتابه الهندسة المعمارية الاسلامية، وهو الكتاب الذى جمع رسوما لآثار مدينة القاهرة من مقاييسها ، وتم طبعه سنة ١٨٣٩ م ، بعد أن قام كوست على مسح هذا الآثار وقياسها من سنة ١٨١٥ الى ١٨٢٥ م . وأعقب كوست كتابه هذا بسلسلة من الدراسات فى الهندسة المعمارية الايرانية ، بالاشتراك مع المصور فلانندان ، واستمر ظهور هذه السلسلة بين ١٨٥١ و ١٨٦٧ م . ثم امتدت هذه الجهود الى الآثار الاسلامية فى مصر مرة أخرى ، فى مؤلفات بورجوان ( ١٨٧٣ — ١٨٩٢ م ) ، وكذلك پريس داقن ( سنة ١٨٧٧ م ) ، وهى مؤلفات لا تقتصر على العمارة فحسب ، بل تشمل مختلف الفنون الصغرى ، فضلا عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية فى الزخرفة المعمارية ، فى مؤلفات بروجوان . والرسوم التوضيحية فى هذه المؤلفات تنم عن قيمة كبيرة ودراسة زعيمة بكل ثناء ، برغم ما يتسم به بعضها من غلو الخيال ، وبرغم قصور المتون فى هذه المؤلفات نفسها عن مرتبة علمية عالية . ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم تسبق لهم معرفة خيرة بالكتابات الواردة على المباني والأدوات التى تناولتها دراساتهم ، ولم تتوفر لديهم الأساسيات التاريخية اللازمة للفهم

التام ، ولم تبلغ جهودهم مبلغ فهم اللزوميات المعمارية الاسلامية ، بل غلب عليها تفضيل المتأخر المزوق عن المتقدم العارى عن التزيق والبريق ، برغم التسليم باقتصار جهودهم على النواحي الفنية البحتة . مثال ذلك أن كوست عنى أكبر عناية بتصوير المباني فى كتابه الخاص بالمعمار الايرانى ، لكن تصويره لتصميم المسجد الأعظم فى اصفهان أهمل الحجرة ذات القبة الصغيرة التى ترجع الى سنة ١٠٨٨ م ، وهى الحجرة التى تعد فى العصر الحاضر فخر الفنون المعمارية الايرانية فى العصور الوسطى (١٧) . ثم ان الرسوم التوضيحية على جمالها وروقتها فى الأطلس الكبير الذى هو جزء من كتاب « رحلة فى تركيا وايران » ، تأليف هومير دى هل ( شكل ٢٠ ) تسر الناظر اليها على أنها انطباعات فنان من أهل القرن التاسع عشر الميلادى يزور ايران ، لا رسوم ذات قيمة وصفية دقيقة للآثار المعمارية التى زارها ، على وتيرة ما قام به المعاصرون له فى رسوم المناظر الايطالية . والواقع أن هذه الرسوم التوضيحية فى أطلس هوميردى هل تشبه من هذه الناحية متبوع التقاليد فى سابق الأطلس الكبيرة التى تصور الآثار الاسبانية وحولها جماعات من أهل البلاد ، من باب الاضافة الى زخرفتها . ومع هذا كله فلهؤلاء المؤلفين الأولين فى فنون الشرق الأدنى فضل لا يغمط ، وهو أنهم أودعوا مؤلفاتهم معلومات ذات قيمة علمية كبيرة عن مبان زالت بعد أيامهم تمام الزوال دون أن يبقى لها أثر . أما مرحلة التحول النهائى نحو الدراسة للفنون الاسلامية فهى نتيجة جهود رجلين صرف كل منهما حياته فى دراسة الناحية الأثرية من تاريخ هذه الفنون . وأول هذين الرجلين الاثنين يوسف فون كراباسك النمساوى ( ١٨٤٥ — ١٩١٨ م ) الذى شمل اختصاصه ، لا علوم النميات والنقوش فحسب ، بل يرجع اليه الفضل فى فتح ميادين بحثية جديدة ، اذ هو المؤسس لعلم الأدوات الأوراق البردية العربية فى الدراسات الاسلامية ، وهو البادىء لبحوث علم الرنوك الاسلامية . ثم انه هو الذى افتتح

Coste : Monuments Modernes de la Perse, Mesurés, Dessinés et (١٧)  
Décrit, Paris 1867, p. 1 IV.

البحوث الهامة في كتابات المنسوجات الاسلامية ، حين عكف على قراءة هذه الكتابات في الأقمشة والملابس الكهنوتية بكنيسة مريم العذراء بمدينة دانتزج ( ١٨٧٠ م ) ، وهو كذلك الأول في استخراج الحقائق والاشارات التاريخية من المراجع العربية والايرائية لفهم أنواع السجاد الشرقي ، كما هو واضح في كتابه التصوير الايراني في صناعة السجاجيد ( سنة ١٨٨١ ) . وصفوة القول ان كراباسك هو الرائد الأول في سبيل احلال الآثار الاسلامية محلا تاريخيا واسع الآفاق ، لأنه أدرك تمام الادراك أهمية علم النقوش ، فضلا عن المراجع العربية نفسها ، في تقدير الآثار الفنية. غير أنه من المؤسف أن نتائج البحوث التي قام عليها كراباسك جاءت أغلبها ناقصا ، أو خاطئا كل الخطأ ، بسبب غلوه في الاعتماد على جامع الخيال . ولذا فليس مما يدعو الى العجب أن احدى خدماته الهامة غير المباشرة في ميدان التقدم في البحوث الأثرية الاسلامية جاءت عن طريق نقد جهوده ، ولا سيما عن طرق البحوث والكشوف التي أثار هو معاصريه ولاحقيه الى انتاجها . ثم ان كراباسك جدير بالاهتمام من ناحية أخرى ، اذ بفضل جهوده صار علم الآثار لأول مرة من العلوم المحترمة في دوائر المعرفة ، وتقديرا لهذه الجهود أنعمت عليه الحكومة النمساوية برتبة الفروسية ، وعينت مديرا للمكتبة الملكية (Hofbibliothek) وسكرتيرا للمجمع النمساوي في فيينا (١٨) .

أما ثاني هذين الرجلين فهو ماكس فان برشم السويسري ( ١٨٦٣ — ١٩٢١ م ) ، وهو في شخصيته مختلف كل الاختلاف عن كراباسك ، وفي أستاذيته في النقوش العربية عميد لا نظير له . اذ بدأ حياته مستشرقاً مارناً أحسن مران ، ولاسيما في التاريخ ، مغرماً بالفنون الاسلامية أعظم غرام . ثم تحول فان برشم الى الآثار الاسلامية تحولا طبيعيا لعمله ، بسبب ما تراءى له في الآثار من وسيلة للتعمق في الدراسة التاريخية ، وكتب في ذلك سنة ١٨٩١ م يصف مختلف الفروع في



الآثار الاسلامية — من معمار وفنون زخرفية وكتابات ورميات وأختام — بأنها « هي الوثائق التاريخية الدالة بأشكالها أو بكتاباتهما على المنشود من التاريخ ، بالإضافة الى المخطوطات التي تمتد الباحث ببعض الحقائق » . وبعد اقامته الأولى بمدينة القاهرة نوه فان برشم كذلك بأهمية هذا الميدان الجديد تنويعها نصه : « انتهت الى أهمية هذا الميدان من الدراسات التاريخية ، والى المعونة الفريدة التي يستطيع هذا العلم على حداته وضالة أسسه أن يؤديها لتاريخ العادات والأفكار في الحضارة الاسلامية » . على أنه أدرك كذلك أن البحث في الآثار الاسلامية يتطلب نوعين من العمل ، وهما جمع الكتابات الواردة في الآثار الاسلامية في مصر والشام ، حتى تتيسر بذلك مجموعة من الكتابات التاريخية العربية (corpus inscriptionum arabicarum) ، ثم تأليف كتاب في الآثار الاسلامية من دراسة الآثار (١٩) نفسها . واختار فان برشم لنفسه النوع الأول من هذا العمل المزدوج ، ونشر الكتابات التي جمعها هو في تأليف سماه بعض المواد اللازمة لمجموعة من الكتابات العربية (Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, Cairo, لأنه لم يرد أن يقصر جهوده على تأليف المجموعات الحاوية للنقوش وكفى ، بل أراد أن تكون مواد هذه المجموعات بمثابة متحف أو خزانة مصرفية (clearing house) لتنظيم استثمار الحقائق الهامة في النقوش والتاريخ والآثار . غير أن ضخامة المواد التي جمعها فان برشم اضطرته أخيرا الى قصر جهوده على بحوث خاصة بالنقوش التاريخية ، وتكوين هيئة علمية لمواصلة هذا العمل حتى النهاية . واختص فان برشم نفسه بأعداد المجلدات المتعلقة بالقاهرة وبيت المقدس ، على أنه شارك خليل أدهم في اخراج الجزء الاول من المجلد الخاص بآسيا الصغرى ، وهذا على حين اختص هرتزفالد بمدينة حلب وشمال الشام ،

Notes d'Archéologie

(١٩) هذا الاقتباس مأخوذ من فان برشم

Arabe. Monuments et Inscription Fatimites.

المجلة الاسيوية ، السلسلة الثامنة ، ج ١٧ سنة ١٨٩١ ص ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٤ .

واختص جاستون فيت بالمجلد الثاني المتعلق بمصر. وبالإضافة إلى الإشراف على هذا العمل الهائل ، أخرج فان برشم عدة بحوث في نقوش مختلف العصور والأقاليم الإسلامية ، من مراكش على عهد بنى مرين إلى شوان شو بالصين على عهد المسلمين ، دون أن يقلل ذلك من عنايته البالغة بمصر (٢٠) والشام . ثم توقف العمل في مواد هذه المجموعة الأثرية بسبب وفاة فان برشم سنة ١٩٢١ م ، لكن جاستون فيت وسوقاچيه يعملان حتى الآن على إخراج مجلدات جديدة متعلقة بمكة ، والمدينة ، ودمشق ، وربما امتد عملهما إلى بروضة وإستانبول (٢١) .

وسوف يظل العمل مستمرا في ميدان النقوش ، بسبب ضخامة كمية المواد في مختلف البلاد الإسلامية ، وسوف تزداد البحوث فيه عمقا وتشعبا ، كلما تفتحت بلاد جديدة للكشف والدراسة . ويكفى أن نذكر هنا على سبيل البرهان أن قليلا من غير المسلمين استطاع أن يدخل المساجد الإيرانية قبل سنة ١٩٢٠ م ، وأن تصوير النقوش والكتابات الداخلية بهذه المساجد (٢٢) تصويرا شمسيا ( فوتوغرافيا ) كافيا لأغراض البحث لم يبدأ قبل هذه السنة . ثم إنه فضلا عن الكتب والمقالات الباحثة في نقوش المراكز الإسلامية الكبرى ظهرت مؤلفات أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهي تبحث في نقوش بعض بلاد الأطراف الإسلامية ، ومثال

(٢٠) انظر : هرتزفولد وفان برشم ، مجلة الإسلام (Der Islam)

الألمانية ، ج ١٢ ، سنة ١٩٢٢ ، ص ٢٠٦-٢١٣ ؛ وانظر كذلك : Boissier

In Memoriam Max Van Berchem في Revue Archéologique

الفرنسية ، حيث توجد قائمة بمؤلفات فان برشم في السلسلة الخامسة ، ح ٧ ، يناير - أبريل ١٩٢٣ ص ١٤٨-١٥٤ .

(٢١) انظر : Sauvaget : L'Archéologie Musulmane en France de 1939-45.

في مجلة Ars Islamica ، ج ١٣ - ١٤ « سنة ١٩٤٨ » ص ١٥٧ . وتوفي سوقاچيه فجأة بعد كتابة هذا الفصل ، وسوف تتأثر هذه المشروعات بوفاة ، بل يبدو الآن أن إكمال هذه المشروعات يتطلب جيلا جديدا من الأثريين .

(٢٢) لا تزال جميع مساجد مراكش وبعض مساجد تونس ممنوعة على غير المسلمين ، وهذا ما يجعل لمطبوعات مارسية وتراس وغيرهما من الباحثين الفرنسيين أهمية كبيرة .

ذلك كتاب النقوش الهندية الاسلامية (Epigraphia Indo-Islamica) تأليف هورفتر (١٩٠٩ — ١٩١٢ م) ، و غلام يزدانى بعده (١٩١٣ م) ، ثم كتاب النقوش والكتابات العربية الاسبانية ، تأليف ليثى بروقنسال (ليدن وباريس ١٩٣١ م) ، فضلا عن المطبوعات الخاصة بالنقوش والكتابات العربية فى البلاد الروسية ، والمجموعات التى نشرتها مدام فيرا كراتشكوفسكايا .

وحديثا هيا جاستون فيت مشروعا عظيم الفائدة مشاركة مع اتين كومب وسوقاچيه ، لاجراج المجموعة التاريخية للنقوش العربية التى ظهر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلدا تشمل جميع النقوش العربية المعروفة حتى سنة ٧٠٥ هـ ، أى ١٣٠٥ م ، وعددها ٥٢٠٠ قطعة ( القاهرة ١٩٣١ — ١٩٤٤ ) . وأحدث من هذا مشروع لاصدار سلسلة من مطبوعات تشمل النقوش الشرقية عامة ، لا النقوش الاسلامية فحسب ، وتنشرها مدام كراتشكوفسكايا ، ويحتوى العدد الأول ( ١٩٤٧ م ) — وهو الذى وصل الى العالم الغربى من هذه السلسلة حتى الآن — على مادة معظمها اسلامى . ومع أن رداءة الأسلوب اللغوى والرسوم التوضيحية فى هذا العدد قللت من القيمة المنتظرة من هذه السلسلة ، وهى رداءة غدت غالبية مع الأسف على كثير من المطبوعات الروسية الحديثة ، ولاسيما بعد أن صارت خالية من الملخصات الفرنسية التى جرت العادة على تذييل المتون الروسية بها ، فإن استمرار ظهور هذه السلسلة سوف يكون — على الرغم من ذلك كله — منبع فائدة لدراسة النقوش .

غير أنه على حين يبدو واضحا مما تقدم هنا أن دراسات النقوش أضحت من الدراسات المستقرة القواعد بين الباحثين ، لم تتعد البحوث فى ميدان الخطوط مرحلة الطفولة الأولى ، على قربها من ميدان النقوش . ومصدق ذلك أنه اذا استثنينا الدراسات العميقة للأوراق البردية العربية التى يحتل فيها أدولف جروهمان مكانة الأخصائى

الراسخ البارز ، فليس لدينا ما نستطيع الاشارة اليه في علم الخطوط سوى مجموعات لأنواع معينة من الكتابة العربية ، جمعها كل من وليم رايت ، ومورتز وشارل ايوار ، وثيران ، وآرثر آربري ، وكونيل ، ودلافيدا ، وغيرهم . وباستثناء بحوث الآنسة نبيه أبوت في أشكال الخط الكوفي في العصور الاسلامية الأولى ، ولاسيما بحوثها في كتابها الذي عنوانه « ظهور الكتابة العربية في شمال بلاد العرب » (شكاجو ١٩٣٩ م) ، فليس يوجد لدينا من البحوث العلمية الفاهمة في عصور هذا الميدان سوى الضئيل القليل ، وبخاصة فيما بعد القرن الثالث الهجري . وهذا يؤسف له كل الأسف ، لأن علو مكانة الخط في البلاد الاسلامية ينبغي أن يجتذب دراسات متصلة في هذا الميدان الهام .

وثمة فرع آخر من فروع الدراسات التاريخية الداخلة في دائرة الآثار الاسلامية ، وهو علم الرنوك ، وهذا يستأهل تنويها خاصا به في هذه العجالة القصيرة في الآثار الاسلامية ، لأنه موضوع أصبح ميدانه معروفا تمام المعرفة تقريبا ، اذ بعد قيام يعقوب أرتين ببحوث تمهيدية فيه من سنة ١٨٨٧ الى ١٩١٢ م أخرج ليو ماير سنة ١٩٣٣ م تأليفه النموذجي الذي عنوانه الرنوك الاسلامية (Saracenic Heraldry) ، وأودع فيه بحوثه الدقيقة في هذه المنشأة الايوبية المملوكية ، معتمدا على مختلف المراجع العربية التاريخية المعاصرة ، وجميع ما كشفه الكاشفون حتى تلك السنة من الآثار والأدوات ذوات الرنوك . ثم أعقب ماير ذلك التأليف بمقالات تكميلية لبحوثه السابقة ، مبتغيا من ذلك أن يشرح بعض الرنوك المستعصية شرحا جديدا ، وأن يضيف الى مواده ما جد عليه من أدوات ذوات شارات رنكية .

ومن المعنيين بالآثار الاسلامية كذلك جماعة من العلماء أخذوا في دراسة مواد هذه الآثار من الناحية الفنية فقط ، فاتبعوا بذلك طريقا مختلفا عن طرق سائر الذين تقدمت أسماؤهم في دراسة الفنون والآثار الاسلامية . ولم تتطلب بحوث هذه الجماعة من الحقائق

التاريخية سوى أسماء الخلفاء والسلطين والأمراء ، وتواريخ عهودهم ومنشأتهم ، وأسماء الفنانين فى قصورهم ، ليجعلوا منها هيكلا أو اطارا لبحوثهم . أما المقاييس والوسائل التى استعانت بها هذه الجماعة على تقدير موادهم وشرح قيمتها ، فهى الأسلوب الفنى وعلم الصور (iconography) والصنعة . وأعظم شخصية بين هذه الجماعة فردريش زره (٢٣) (١٨٦٥ - ١٩٤٥م) الذى عكف منذ سنة ١٨٩٥ م فصاعداً على دراسة الآثار الاسلامية من أسبانيا الى الهند ، لا من نواحى المعمار والتصوير والفنون الصغرى فحسب ، بل من نواحى الأصول الفنية السابقة لهذه الآثار الاسلامية تاريخيا ، أى نواحى علاقتها بالفنسون والصناعات الفنية فى أوروبا والشرق الأقصى ، وذلك فى نحو مائتين من الكتب والمقالات . وفى كثير من هذه البحوث الدقيقة التى اشترك معه غالبا فى اخراجها علماء ممتازون فى النقوش ، استطاع فردريش زره ، أن يعين الوضع التاريخى والجغرافى لمجموعات من الآثار والأدوات الاسلامية تعيينا آثار عليه بعض الأحيان معارضات لم يلبث أن ظهر بطلانها وعدم صحتها . ونظرا لما انطوت عليه بحوثه فى المعانى والأهميات أضحى من الطبيعى أن يكون أول باحث فى هذا الميدان نشر لمؤلفاته المتعددة النواحى فهرس مشروح .

ولدينا فى سالادان وجاستون ميچون شخصيتان أخريان ذاتا أهمية فى هذا الميدان ، اذ أخرجا تأليفا اسمه « كتاب فى الفن الاسلامى » فى مجلدين ( باريس ١٩٠٧ م ) وتناولوا فيه كل فن من الفنون الاسلامية على حدة ، من معمار وتصوير وفنون صغرى ، متبعين فى ذلك طريقة البحث الباكر الذى قام عليه ستانلى لينبول فى كتابه « فن المسلمين فى مصر » . وهذان المجلدان اللذان أخرجهما سالادان وميچون قبل الأوان ، نظرا لقلة المواد المعروفة لهما وقتذاك ، يدلان على مبلغ روح الاقدام فى هذين الرجلين . بل الواقع أن بحوث سالادان فى المعمار لم يستطع أحد

أن يضيف إليها من الناحية العامة، وهى لا تزال موضع أهمية معينة ،  
 بدليل طبع هذا الكتاب طبعة ثانية سنة ١٩٢٧ م . ومع أن كل فصل من  
 فصول هذه الطبعة الثانية جاء ضعف حجمه فى الطبعة الأصلية الأولى ،  
 لم يستطع القائمون على هذه الطبعة الثانية أن يستوعبوا فيها جميع  
 المواد الأثرية التى أضحت فى متناول الباحثين . مثال ذلك أن الفصول  
 المعمارية الفائقة التى كتبها مارسى لم تتعد المغرب واسبانيا وصقلية  
 الاسلامية ، وأن المجلدين اللذين كتبهما ميچيون لم تزل محتوياتهما من  
 بعض الخطأ . على أن هذا الكتاب الحافل أصبح نموذجا ومنبعا كذلك  
 لكثير من المؤلفين فى الفنون الاسلامية عامة، ومن أولئك ديتز (١٩١٧ م)،  
 وكونل (١٩٢٥ ) ، وجلوك وديتز بالمشاركة (١٩٢٥ م)، وآخرهم ديماند  
 الذى جاء كتابه ( ١٩٣٠ ) أول تأليف فى اللغة الانجليزية فى التصوير  
 والفنون الصغرى ، وكذلك أول تأليف يعتمد كل الاعتماد فى مادته على  
 مجموعة أثرية واحدة، وهى مجموعة متحف متروبوليتان فى مدينة نيويورك<sup>(٢٤)</sup> .  
 وفى بلاد العربية هذا زكى حسن ذلك الحذو ، فى كتابه ذى الصور  
 التوضيحية الجيدة فى فنون ايران الاسلامية ، وعنوانه الفنون الايرانية  
 فى العصر الاسلامى ( القاهرة — طبعة ثانية — ١٩٤٦ م )<sup>(٢٥)</sup> . ومن

Diez : Die Kunst der Islamischen Volker.

(٢٤) انظر :

Kuhnel : Islamische Berlin 1917. Kleinkunst, Berlin, 1925: وانظر كذلك

Gluück and Diez : Die Kunst des Berlin 1925. وكذلك

imand : A Handbook of Mohammedan Decorative Art. New York.

والطبعة الثانية من هذا الكتاب عنوانها : Handbook of Muhammedan Art. وقام احمد عيسى أمين المكتبة العامة بجامعة القاهرة على نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية لمؤسسة فرانكلين ، والكتاب الآن تحت الطبع ، وعنوانه الفنون الاسلامية . زيادة .

(٢٥) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٠ م ، وقبل ذلك  
 — أى ١٩٣٥ م — أخرج المؤلف الجزء الاول من تاريخ الفن الاسلامى فى مصر،  
 وهذان الكتابان اللذان أخرجهما زكى حسن ، من مطبوعات متحف الفن  
 الاسلامى فى القاهرة ( دار الآثار العربية سابقا ) . وحديثا أخرج هذا المؤلف  
 كتابا فى فنون البلاد الاسلامية قاطبة ، سماه : فنون الاسلام ( القاهرة ،  
 ١٩٤٨ ) غير أن كاتب هذه السطور لم يطلع على هذا الكتاب الاخير .

الملحوظ في هذه الكتب أن المعمار — وهو في بعض هذه الكتب لا كلها — يحتل فصولا مستقلة عن التصوير والفنون الصغرى ، وأن الفنون الصغرى نفسها مفصلة الى مواد متنوعة لشرحها واحدة بعد أخرى . والواقع أن هذا الترتيب العام سرى الى موسوعة الفن الايرانى التى قام على نشرها يوب عام ( ١٩٣٨ — ١٩٣٩ م ) (Survey of Persian Art) وهى فى ست مجلدات ضخمة استعرض فيها مؤلفوها — وعددهم تسع وستون مؤلفا — مختلف أطوار الفن الايرانى من العصر الحجرى الى القرن التاسع عشر الميلادى . غير أن هذه الطريقة على الرغم من تسهيلها فهم التطور الفنى فى متنوع مواد الآثار ، تجعل من المستحيل على الباحث أن يستخلص منها منظورا تاريخيا صحيحا ، أو أن يستخرج منها صورة حقيقية للروح (zeitgeist) التى تنبىء عن نفسها فى أسلوب مجموعة المواد الأثرية الخاصة بعصر على حدته ، وهى على أية حال طريقة تشبه تنظيم المتاحف العامة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأول خارج على طريقة سالادان وميچيون من رجال الآثار هو كونل فى الجزء الذى أسهم به فى تاريخ الفن (Handbuch der Kunstgeschichte) الذى قام على نشره شبرنجر ( سنة ١٩٢٩ م ) ، اذ عالج كونل فى ذلك الجزء جميع الفنون لكل عصر بذاته من مختلف العصور ، واستطاع بذلك أن يبين حلقات الاتصال من متنوع مراكز الفن ، وكذلك حلقات الاتصال بين مختلف الأدوات الأثرية . وحديثا أخرج مارسيه وحده الكتاب الأول من هذا النوع ، واسمه الفن الاسلامى ( باريس ١٩٤٦ م ) ، وهو مدخل مختصر دقيق بالغ الفائدة فى موضوعه .

أما أول الباحثين الذين مزجوا بين طرق البحث التاريخى والتحليل الفنى فهو ارنست هرتزفولد ( ١٨٧٩ — ١٩٤٨ م ) ، وذلك لأنه تعلم تعليما نظيميا ليكون معماريا ومؤرخا للفنون ومستشرقا ، وبذا اجتمعت فيه صفات جعلته مؤهلا أكمل تأهيل للمزج بين صرامة طرق البحث التاريخى المستند الى فهم محتويات المؤلفات التاريخية والنقوش والنقود

وبين التقدير الذاتي الخاص للمستوى الفنى فى الآثار . وعلى مقتضيات هذه الطريقة بحث هرتزفيلد آثار ايران والعراق والشام ، ولا سيما عمائرهما ، وزخارفهما وتصاويرها ، وتقوشها ، فى عدة رحلات الى الشرق الأدنى ، حيث قام على عدد من الحفائر والأعمال الاستكشافية ؛ ومؤلفاته العديدة فى مختلف الموضوعات الاثرية أضحت فى الواقع مما لا يستغنى عنه كل باحث فى ميدان الآثار (٢٦) .

غير أن الجنوح الى التخصص الذى أصبح ظاهرة ملحوظة النمو فى مختلف العلوم والبحوث فى هذا القرن العشرين الميلادى ، أصبح ظاهرة ملحوظة كذلك فى ميدان الفن والآثار الاسلامية . والدليل على ذلك جماعة الباحثين الذين يقصرون أنفسهم على اقليم واحد ، أو مادة أثرية واحدة . ومع ما فى هذا التطور الجديد من وجوه النقص نتيجة ما يحتمل من اغفال الصلات الفنية بين مختلف مراكز الآثار الاسلامية ، فضلا عما يحتمل كذلك من قلة التقدير للأفكار الفنية المتبادلة بين أرباب الصناعات ، فلا محيص عن التخصص فى بعض الفروع الكبرى فى ميدان الآثار ، أى المعمار ، والتصوير ، وفنون المنسوجات . بل يبدو أن هذا التطور عامر بالفائدة الى حد معين ، نظرا لكثرة عدد المطبوعات الواصفة للآثار والأدوات الفنية الأثرية كثرة مستمرة . ومن طليعة هذه الفئة الجانحة الى هذا التخصص كرزويل مؤرخ العمارة الاسلامية ، وتتايج معظم بحوثه واضحة فى مؤلفه الضخم الذى عنوانه المعمار الاسلامى فى صدر الاسلام . فى ثلاثة مجلدات ( اكسفورد ، ١٩٣٢ — ١٩٥٠ ) ، وكذلك فى مؤلفاته المرتقبة الظهور فى المعمار الاسلامى المصرى . ونحن مدينون كذلك بكثير من الفضل هنا لمؤرخ معمارى آخر ، وهو ألبير جابريل الذى أخرج دراساته فى الآثار المعمارية فى تركيا العثمانية فى عدة مجلدات ،

Miles : The Writings of Ernest Herzfeld (٢٦)

فى مجلة Chrs. Islamica ، ج ٧ سنة ١٩٤٠ ، الصفحات ٨٢ — ٩٢ . وسوف يظهر ملحق بمؤلفاته فى هذه المجلة ح ١٥ — ١٦ سنة ١٩٥١ م .



ومنها كتاب الآثار التركية فى الأناضول ، فى مجلدين ( باريس ، ١٩٣١ — ١٩٣٤ م ) ، وكتاب رحلات أثرية فى تركيا ، فى مجلدين ( باريس ، ١٩٣٤ م ) ، وكتاب القصور التركية حول شواطئ البوسفور ( باريس ١٩٤٣ ) . ومن قام بخدمات جليلة كذلك فى هذا الميدان جرتود بل ، وجيرلت ، ورويتز ، وكولن — وينر ، وتراسى ، وجودارد وسوفاچيه ، وسمث ، وولبر ، وغيرهم . ومن المؤسف أنه يستحيل على كاتب هذا الفصل القصير أن يذكر شيئاً من فائق البحوث التى قام عليها مختلف الباحثين فى كل فروع الآثار ، ولا بد من الاقتصار على أسماء بضعة فقط من أولئك الباحثين . ففى شاسع ميدان الفنون الزخرفية نستطيع أن نشير أولاً الى الجهود التى قام عليها والسن ، وريجىل ، وبود ، وثانياً الى المطبوعات النموذجية التى أخرجها زره وكونل ، وأخيراً الى الدراسات العالية التى قام عليها مارتان ، وكوشلان ، ومارسيه ، وفون فالكه ، وريفشتال ، وديماند ، وأغا أوغلو ، ولام ، واردمان ، وداى ، ولين ، ورايس ، وبهرامى ، وغيرهم . واجتذب التصوير عقول كثير من الباحثين والخيرين بالفنون ، ومنهم بلوشيه ، وشولتز ، ومارتو ، وثشير ، وسيرتوماس آرنولد ، وساكسيان ، وستوكين ، ودى لورى ، ومونييه دى فيلار ، ودياكوف ، وشرويدر ، وبوختال ، وأولئك بالاضافة الى بنيون وولكنسون ، وجرأى ، الذين اشتركوا ثلاثتهم فى تأليف كتاب المنمنمات الايرانية ( لندن ، ١٩٣٣ م ) ، وهو أحسن كتاب فى موضوعه .

وثمة جماعة أخرى من الجانحين الى التخصص هى جماعة العامدين الى وصف التراث الأثرى فى اقليم معين ، ولهذه الجماعة ينتسب جوميز مورينو ، وتوريس بالباس ، وفرانديس ، وهو الذى تركت ميوه فى الفن الاسبانى المغربى ( Hispano-Moresque ) ، ثم كومارازوامى ، وبراون ، وجوتز ، وهو الذى وصف الفنون الاسلامية فى الهند . وأنتج الاهتمام الحديث بالكشف عن الماضى جماعة أخرى من أولئك الاخصائيين

وهم علماء الحفائر ، وعلى رأسهم هرتزفيلد الذى لا يدانيه أحد ، ومنهم كذلك أيتون ، وهاوزر وولكنسون ، وأولئك الثلاثة من الولايات المتحدة الأمريكية ، ولعل أكثر هذه الجماعة كلها توفيقا ونجاحا شلومبرجر الألمانى ..

على أن التطور والجنوح نحو هذه الميادين الاختصاصية يدل فى ذاته على ازدياد الاهتمام بالنقش الإسلامى ، واستمرار التوفيق فى كشف مواد فنية جديدة ، فضلا عن جديد الأمعان فى شرحها . وبرهان ذلك اعتقاد فون لسنج سنة ١٨٧٧ م - أى حين نشر كتالوج السجاد الشرقى فى الصور الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى - أن أصول ذلك السجاد غير موجودة ألبتة . غير أن كتالوجا مطبوعا لخمس سنوات بعد ذلك التاريخ اشتمل على صور ست سجاجيد قديمة محفوظة لدى أصحابها مقطوع بوجودها ، حتى اذا وصلنا الى سنة ١٨٠٠ م ألفينا عدد السجاجيد المعروفة ، والمصنوعة قبل هذا التاريخ ، تزيد على الألف ، بل لدينا قطع صغيرة وكبيرة من سجاجيد يرجع تاريخها الى أوائل العصور الوسطى . ثم ان المؤلفات فى هذا الميدان أضحت من الكثرة بحيث أصبح الباحث فى حاجة الى كشاف ، أو فهرس لارشاده ، مع العلم بأن دور التحليل والشرح فى موضوع السجاجيد الشرقية لا يزال كذلك فى دور الطفولة الاولى . وهذه الملحوظة لا تقتصر على الإشارة الى دراسات الرسوم فحسب ، بل الى دراسات الكتابات النظامية الإيرانية .

ويتضح نمو مثل هذا الاهتمام فى دراسة التصوير ، ومن الدليل على ذلك أن فان برشم لم يذكر التصوير قطعا سنة ١٨٩١ م ، حين رتب فصول كتابه الذى أزمع تأليفه وتسميته « كتاب فى الآثار الإسلامية » ، وذلك لان شيئا لم يكن معروفا وقتذاك عن هذا الموضوع . والواقع ان التصوير الإسلامى لم يصبح ذا موضوع بين الباحثين الا بعد أن كشف موزيل مجموعة الصور الحائطية فى القصر الأموى فى قصر

عمره بالشام ، سنة ١٨٩٨ م اذ أدى وصول أخبار هذه الصور الى دهشة وحيرة بين المستشرقين الأوروبيين ، نظرا لما هو معروف من الكراهية التقليدية والتحریم الجامد للصور في الكتب الفقهية الاسلامية ، كما أدى الى جدل طويل حول الموقف الدينى من التصوير فى الاسلام . ثم أدت كشوف هرتزفلد لعدد من الصور الحائطية بعد ذلك بقليل فى سامرا سنة ١٩١١ م الى اعتبار فن التصوير فاحية من نواحي الحضارة الاسلامية ، حتى اذا عثر علماء الحفائر حديثا على صور ذات مقاييس كبيرة فى قصر الحير الغربى بالشام كذلك ( ١٩٣٦ م ) ، وفى نيسابور بايران ( سنة ١٩٣٩ م ) ، لم يبق وجود هذه الصور موضع دهشة أو حيرة بين الباحثين ، بل تركز اهتمامهم فى تحديد تواريخها ، وأساليبها ، وقيمتها التصويرية الفنية . وليس أدل على مدى تقدم معرفتنا بالصور الاسلامية فى العصر الحاضر من وجود فهرس تاريخى لمؤلفات الباحثين فى هذا الفرع من فروع الفن الاسلامى . فأول قائمة شاملة لمجموعة من المنمنمات ، وهى مجموعة المكتبة الأهلية بباريس ، هى التى ظهرت على شكل كتاب ، من تأليف بلوشيه ، سنة ١٩٠٠ ( ٢٧ ) م . أما أول كتاب فى التصوير الاسلامى ومدارسه المعروفة نقلا عن المجموعات الكبرى للصور ، فكان ظهوره سنة ١٩١٢ ، وهو من تأليف مارتان ( ٢٨ ) . وشهدت السنة نفسها كذلك أول كتاب يبحث فى مخطوط مزين بالزخرفة ( ٢٩ ) ، ولو أن المؤلفات الخاصة بمخطوط بذاته لم

---

Erdman : Orientalische Tierteppiche auf Bildern des XIV ( ٢٧ )  
and XV, Jahrhunderts Jahr. d. Pruess.  
Kunstsamml. : 1929, pp. 261-98.

٢٧ ( مكررة فى الأصل ) انظر  
Inventaire et Description des Miniatures  
des Manuscrits Orientaux Conservés à la Bibliothèque Nationale, Paris, 1900

Martin : The Miniature Painting and Painters of Persia, India ( ٢٨ )  
and Turkey from 8th to 18th Century, London 1912.

( ٢٩ ) وللمؤلف المتقدم كتاب :  
Les Miniatures de Behzad dans un  
Manuscrit Persan daté 1485, Munich, 1912.

تكثر الا بعد سنة ١٩٢٥ م<sup>(٣٠)</sup> . على أن أول تأليف يبحث في صورة واحدة بذاتها لم يظهر الا سنة ١٩٤٨ م ، وهو مؤلف مصرى<sup>(٣١)</sup> من بلاد العربية ، على حين أن جميع المؤلفات المتقدمة جاءت من غرب أوروبا ، ومن مؤلفين أوروبيين .

وعلى مر السنين أدى ازدياد اليقظة الى أهمية الفن الاسلامى — فى مختلف البلاد الاسلامية — الى اعداد القوائم الخاصة والكتالوجات المرتبة ترتيبا علميا ، وهى قوائم المباني والعمائر ، وكتالوجات الأدوات الأثرية . وأول هذه ما قام عليه جماعة العلماء الملحقه بجيش نابليون فى مصر، مما تقدمت الاشارة اليه فيما سبق . ثم انقضى مايزيد على خمسين سنة قبل أن يبدأ العمل ثانيا فى هذا النوع من البحث ، والرائد الأول بين فئة الاثريين الذين وقفوا جهودهم على البحث فى آثار اقليم واحد بأسره هو فيكتور جيران الذى أخرج بحوثا فى كثير من المباني والمواقع الأثرية فى فلسطين ، ومهد بذلك لبحوث دائرة الآثار الفلسطينية<sup>(٣٢)</sup> . وتحققت مرحلة أخرى فى هذا الميدان سنة ١٨٨١ م ، حين ألف چوليوس فرانز وروجرز لجنة حفظ الآثار العربية فى مصر ، بأمر الخديو محمد توفيق ، على أن تكون هذه اللجنة تابعة لوزارة الاوقاف . وتعينت أعمال هذه اللجنة فى محضر أول اجتماع لها ، أول فبراير سنة ١٨٨٢ م ومن نصه :

---

Glück : Die indische Miniaturen des Hamzae-Romanes, (٣٠) راجع  
Wien 1925.

Arnold : The Miniatures in Hilali's Poem, The King and the Dervish, Vienna 1926. وكذلك

Martin : Miniatures from the Period of Timur, Vienna, 1926. وانظر كذلك

Martin and Arnold : The Nizami MS., Illuminated by Behzad, وكذلك  
Mirak and Kazim Ali, British Museum, Or. 6810, Vienna 1926.

(٣١) بشرفارس : منمنمة دينية تمثل الرسول من أسلوب التصوير العربى البغدادى ، منشورات المجمع العلمى المصرى ، ج ٥١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

Leo Mayer : Saracenic Heraldry, p. 12.

(٣٢) انظر :

١ — اعداد قائمة بالمباني الاسلامية ذوات الاهمية المعمارية الفنية والتاريخية .

٢ — مراقبة ترميم وحفظ هذه المباني ، بتقديم مقترحات لوزير الاوقاف بشأن الاعمال اللازم اجراؤها لذلك ، والاشارة عليه بالحالات المستعجلة .

٣ — فحص مشروعات الترميم لهذه المباني ، والتصديق عليها ، والعناية بتنفيذها في دقة .

٤ — تحمل المسؤولية في حفظ الاوراق لجميع هذه المشروعات في أرشيف وزارة الاوقاف والاشارة على وزير الاوقاف بما ينبغي نقله من الآثار المعمارية الى المتحف الأهلي ( وقتذاك ) لحفظه (٣٣) .

وهكذا لم تقتصر جهود هذه اللجنة على اعداد القوائم للآثار الاسلامية في مصر ، بل تعدتها الى القيام على ترميمها وحفظها . ولا تزال أعمال هذه اللجنة مستمرة حتى العصر الحاضر ، ومطبوعاتها الثمانية والثلاثون المشتملة على مراحل نشاطها ( وتاريخ آخرها ١٩٤٤ م ) منابع هامة للمعلومات الاثرية .

ثم أخذت بلاد أخرى تحذو حذو مصر ، فقامت في ايران مثلاً جمعية الآثار الاهلية ( أنجمن آثار ملی ) ، وحديثاً قامت ادارات حكومية في عدة دول اسلامية على رصد آثارها ، وتركيز العناية نحو الآثار الهامة المفتقرة منها الى الترميم بانجاز هذا الترميم .

ومنذ ثلاثين سنة تقريباً قام جماعة من الباحثين فضلاً عن ذلك كله باعداد القوائم المؤرخة ( check lists ) للآثار الهامة ، وهذه القوائم أداة علمية عظيمة الفائدة للمعماري والمؤرخ معا ، ومنها ( مؤرخة الآثار الاسلامية في مصر حتى سنة ١٥١٧ م ، تأليف كرزويل (١٩١٩ م) ، وكشاف المباني الاثرية في حلب ، وعددها مئة وواحد وعشرون مبنى

---

(٣٣) لجنة حفظ الآثار الاسلامية : محاضر الجلسات ، القاهرة سنة ١٨٨٤ .

اسلاميا ( ١٩٣١ )<sup>(٣٤)</sup> ، وقائمة المباني الأثرية في اصفهان ، تأليف جودارد ( ١٩٣٧ م ) .

غير أن تأليف القوائم والكتالوجات لمختلف المجموعات الأثرية جاء أكثر صعوبة وتعقيدا من تأليف القوائم والكتالوجات للمباني والعمائر ، بسبب تنوع مواد المجموعات وبعثتها في قارات الأرض ، ولذا غدا ترتيبها ومضاهاتها بالمواد المشابهة من الصعوبة بمكان . وعلى الرغم من ذلك استطاع زرتيه ( مشاركة مع متشوخ ) أن يخرج كتالوج مجموعته من الأدوات المعدنية سنة ١٩٠٦ م ، ، وهو كتالوج لا يزال مرجعا هاما في موضوعه . على أن الادارة الحكومية الوحيدة التي استطاعت أن تخرج سلسلة كبيرة من الكتالوجات هي ادارة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، اذ طبعت الآن ستة عشر مجلدا تتخللها رسوم متقنة وحواشي تفسيرية دقيقة ضافية ، وذلك بفضل ارشاد جاستون ثيت ومشاركته الناشطة في اخراج هذه السلسلة<sup>(٣٥)</sup> . وهذه المجلدات أضافت الى معلوماتنا اضافات طيبة في الفنون الصغرى ، ولا سيما بامدادنا بالحقائق التاريخية والنقشية المتعلقة بكل مادة من مواد هذه الفنون .

بقي علينا أن نذكر هنا أن كشف الأثرين في بلاد الشرق الأدنى سبقتها طلائع كشفية يرجع الفضل فيها الى مشاهير الرحالين منذ العصور

---

Sauvaget : Inventaire des Monuments Musulmans de la Ville (٣٤) d'Alep. Etudes Islamiques, 1931, pp. 59-114.

(٣٥) مؤلفات جاستون ثيت في هذه المطبوعات هي

Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé, 1929.

Les objets en Cuivre, 1932.

Stèle funéraire, vols. II, IV; 1395, and Vols. V-X 1937, 1942.

اما الجزآن الأول والثالث فمن تأليف حسن الهوارى وحسين راشد سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٨ . وهناك مجلدات أخرى من تأليف

David Weill : Les Bois à Epigraphes jusqu'à l'époque Mamlouke, 1931, وله كذلك Les Bois à Epigraphues depuis l'Epoque Mamlouke, 1936.

Panty : Les Bois sculptés jusqu'à l'Epoque Ayyoubide, 1931. وكذا

Olmer : Filtrés des Gargoulettes, 1932. وكذا

الوسطى حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهم ماركوبولو ، ومشاردان ، وتافرنبيه ، وتقنوه ، ودبروان ، وپورك وغيرهم . لكن الملحوظات التى دونها أولئك الرحالون غدت ضئيلة تافهة بالقياس الى ملحوظات الكشافين والأثريين أمثال ديولافوا . وموزيل ، ويوسن ، وسافنيك ، وبرونو ، وفون دورماسزوفكى ، وجرتروود بل ، وزرغ وهرتزفلد ، وریشستال . وبرغم قلة المظهر فى كثير من النقوش والأدوات التى سجلها وشرحها أولئك الأثريون ، فهى فى غير شك ذوات قيمة تاريخية عظيمة ، وهذا القول ينطبق كذلك على المباني التى كشفوها ، برغم ما ران على أغلبها من الخراب حين بدأ كشفها .

وفى عشرات السنين الماضية من القرن العشرين أضيفت الى قديم الوسائل الكاشفة للآثار وسيلة جديدة ، وهى الطائرة التى سهلت العثور على المواضع الأثرية وفحص تكوينها فحص الطائر ، فضلا عن تسهيلها دراسة الأشكال المختلفة فى بناء المدن ، ورؤية التطور المعقد فى نمو الحواضر<sup>(٣٦)</sup> (شكل ٢١ و ٢٣) .

ولكى يستطيع الباحث أن يرى أعماق الحياة والحضارة الاسلامية فى عز أيامها صار من المتعين المفروض عليه أن يحفر ، وأن يكشف بعض المراكز الأثرية الشهيرة بالحفر العلمى . ولعل أول الأعمال الحفرية فى موضع اسلامى بحث هو الذى بدأه پلانشييه سنة ١٨٩٨ م ، وعاد اليه جنرال بيليه سنة ١٩٠٨ م ، فى قلعة بنى حماد ببلاد الجزائر ، وهى عاصمة الحماديين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى . ثم بدأ فلاسكويز بوسكو فى الحفر حوالى سنة ١٩١٠ م ، فى خرائب عاصمة اسلامية أخرى ، وهى مدينة الزهراء التى سكنها الخلفاء من الأمويين قرب عاصمتهم قرطبة بالأندلس . أما أعظم أعمال الحفر أهمية فهى التى

---

(٣٦) انظر Schmidt : Flights over Ancient Cities of Iran, (Chicago 1940).

وفى هذا الكتاب معلومات ذات أهمية عظيمة للباحث فى تاريخ الآثار الاسلامية .

قام عليها زرتة وهرتزفولد من ١٩١١ الى ١٩١٣ م ، في سامرا عاصمة  
العباسيين بعد بغداد ، لا لأن هذه الأعمال أنتجت معلومات فنية هامة  
فحسب ، بل لأنها غدت بفضل دقة التواريخ في منتجاتها دليلا لدراسة  
مراكز أثرية أخرى ، ومرشدا لتحديد أزمنة أدوات لم يكن من السهل  
تحديدتها . وثمة حفائر أخرى أجريت في مدينة القسطنطينية ، وهي العاصمة  
الإسلامية الأولى في مصر العصور الوسطى ، وفي مدينة بركة سراى على  
نهر ائل ( قولجا ) ، وهي عاصمة دولة القبيلة الذهبية المغولية ، وفي مواضع  
إسلامية قديمة أخرى ، مثل نيسابور ، واصطخر ، والرى ، وترمز ،  
وباليس ، وتاهرت ، وغيرها ، فضلا عن مواضع القصور الخليفية القديمة  
مثل خربة المنية ، وقصر الحير الغربى ، وخربة المفجر ، وغيرها .  
وبالإضافة الى ذلك كله أجريت حفائر في مواضع أخرى للكشف عن  
حضارات من التاريخ القديم تعلوها أكوام من الحضارة الإسلامية ، اذ  
وجدت هذه الأكوام بعض الأحيان أثريا يفهمها ويعتنى بتسجيل  
محتوياتها ، وهذا هو ما حدث في سوسة ، وملطية ، وبعليك ، وحماة ،  
وأنطاكية ، وعلى شار هيوك ، وغيرها . ولكن نظرا لتشعب انتشار  
الحضارة الإسلامية وسعة توزيعها الجغرافى ، فالواقع أن عدد المواضع  
التي تمت أعمال الحفر فيها حتى العصر الحاضر لا يزال قليلا ، وأقل  
من ذلك مع الأسف مستوى المطبوعات الناتجة عن هذه الحفائر ، لأن  
هذه المطبوعات على ضرورتها لمواصلة البحث في كشوفها لا تكاد تذكر  
شيئا عن مفردات هذه الكشوف ، ماعدا اسمائها ، ولأنها لا تظهر  
الا أجزاء في فينات متقطعة . والمأمول أن تتطور هذه الحال الى ما هو أحسن  
منها ، ولو أن وفاة أصحاب هذه الحفائر يجعل هذا التطور أحيانا من  
المستحيلات الأسيفة . ومما يدعو الى ضرورة الاتقان والدقة في الحفائر  
العلمية - زيادة عن ذى قبل - أن كثيرا من المدن الرئيسية مثل بغداد  
لا تبعث شيئا من الأمل في حفائر مفيدة ، وأن مراكز أخرى هامة ، مثل  
الرقّة أو الرى ، عشت بها أيدي أرباب الحفائر التجارية ، وهم الذين  
أثقلوا معظم المادة التاريخية في هذه المراكز .



واذ نتج عن ازدياد الاهتمام بالفن الاسلامى وفرة من الأدوات الاسلامية فى دور المتاحف والمكتبات العامة ، لم يكن بد من قيام فئة من الاخصائيين المقيمين ، وهم المعروفون فى هذه الدور باسم الأمناء الفنيين ، من أمثال كونل ، وهوبسون ، وولكنسون ، وديماند وجراى ، وغيرهم ، ممن أخذوا فى ترتيب الأدوات الموكول اليهم حفظها وأما تهم ، فعكفوا على دراستها وتحليلها واصدار المطبوعات الوصفية لها . ومن المعروف أن المجموعات العامة فى متاحف أوروبا تكونت مما حصلت عليه هذه المتاحف من البلاد الاسلامية فى الشرق الأدنى التى أضحت دولا مستقلة . أو من الكنوز التى بعثتها الأيام فى الكنائس وبيوت الأمراء ، أو من مشتريات السائحين والمقيمين بالشرق من الأوربيين ، أو من مجلوبات الأفراد الخيرين أو المولعين بجمع الآثار ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . أما تأسيس أقسام خاصة بالفن الاسلامى فى المتاحف الامريكية فهو مما يلفت النظر ، اذ بدأت أول علامات الاهتمام بالفنون الشرقية عامة بظهور مجموعات منها فى بيوت عظماء الاغنياء من المالىين الامريكيين الذين اجتذبهم البذخ المتناهى فى هذا النوع من الفنون ، وهو بذخ جعل هذه المجموعات صالحة لزينة بيوتهم الشامخة . ثم نزل كثير من أولئك الأغنياء عن مجموعاتهم هذه للمتاحف العامة ، ومن هؤلاء هنرى والترز ، وشارل فرير (٣٧) ، على حين فضل آخرون أمثال حنا بيرينت مورجان ، وجورج هوايت مايرز ، أن يجعلوا لمجموعاتهم متاحف خاصة بها مفتوحة للجمهور (٣٨) .

وفى أوروبا مجموعات كبيرة من أدوات الفنون الاسلامية توجد عادة فى المتاحف العامة بالعواصم الأوروبية فحسب ، على حين أن متاحف مدن الولايات المتحدة فى طول البلاد وعرضها تحتوى على كميات من

---

(٣٧) هذه المجموعات هى الآن متحف والترز للفنون فى بلتيمور ، ومتحف فرير للفنون بواشنطن ، بالولايات المتحدة .

(٣٨) هذه المجموعات هى الآن مكتبة بيربونت مورجان فى نيويورك ، ومتحف المنسوجات فى واشنطن .

الأدوات الفنية الإسلامية . وليس يرجع هذا الى وفرة الثروة الالهية وسعة الاهتمام العام ، بل يرجع كذلك الى استطاعة عديد المتاحف بمختلف المدن ابان تأسيسها الحديث أن تشتري نماذج طيبة من الفنون الشرقية الواصلة اليها من آسيا ، أو غيرها من القارات ، للبيع بأثمان معتدلة ، بالقياس الى أثمان الصور والتماثيل الأوروبية التي أخذت طريقها سابقا على أية حال الى المتاحف الأمريكية الكبرى . والحديث في المجموعات الاثرية الإسلامية لا يكمل الا بذكر المتاحف والمكتبات في عواصم الشرق الأدنى ، وهي استانبول ، والقاهرة ، وبيت المقدس ، ودمشق ، وطهران ، وبعضها متاحف قديمة في قصور بالية عتيقة ، وبعضها متاحف حديثة في بنايات حديثة بنيت خصيصا لأغراض متحفية . وينبغي أن يضاف الى هذا العدد من المتاحف بعواصم الشرق الأدنى بضعة من المتاحف الاقليمية كذلك ، وهي أحسن ضمانا لحفظ الكنوز الأثرية المحلية ، وأحفظ لها من الضياع والنسيان في زوايا حوانيت التجارة في الآثار .

ثم انه نظرا لبعثرة مواد الفنون الإسلامية بين متاحف تفصلها مسافات جغرافية بعيدة بعضها عن بعض ، لا يوجد في الواقع متحف واحد فيه من الغناء والوفرة في الآثار الفنية ما يعطى صورة كاملة للتطور الفني في هذه الآثار . ولهذا السبب فكر المعنيون بالفنون والآثار عامة ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، في اقامة معارض دورية أو شبه دورية للفن الإسلامي في بعض المدن العالمية ، وأول هذه معرض الفنون الايرانية الإسلامية في نادي برلنجتون للفنون الجميلة في لندن ، سنة ١٨٨٥ م . وظلت هذه الفكرة موضع التنفيذ منذ هذه السنة في معظم البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأدنى كذلك ، حيث أقيم أول معرض من هذا النوع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٢٦ م .

على أن أول معرض ذى معنى هام هو الذى أقيم في مدينة ميونيخ

بألمانيا سنة ١٩١٠ م ، اذ أعقبه تأليف حافل أسهم فيه جميع الاخصائيين البارزين وقتذاك بمقالات متنوعة ، ومن ذلك وحده يتضح مدى الحماسة الكبيرة التى أضفاها هذا المعرض على دراسات الفنون الاسلامية. وينطبق هذا القول على معرض الفن الايرانى فى لندن ، سنة ١٩٣١ م ، اذا أعقبته كذلك سلسلة كاملة من المطبوعات الهامة ، المتصلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الفن . وفى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى كذلك أقام بعض أصحاب المجموعات وبعض أرباب الأطلاع فى الفنون معارض خاصة بمادة واحدة من المواد الفنية ، ومن هذه المعارض العظيم الذى أقيم فى متحف الصناعات (Handelsmuseum) بمدينة فيينا سنة ١٨٩١ م ، لسجاجيد الشرق الأدنى . وترتبت على هذا المعرض بداية البحوث فى هذا الميدان ، على حين أدى أول معرض للمنمنمات الايرانية والهندية والتركية ، فى متحف الفنون الزخرفية فى باريس سنة ١٩١٢ م الى أول بادرة من بوادر الاهتمام العام بهذا الميدان فى دوائر أرباب المجموعات الفنية . وحديثا أدى الجنوح والامعان فى التخصيص الى اقامة معارض فى فرع واحد من مادة من المواد الفنية ، مثل معرض السجاد المعروف باسم السجاد البولندى فى متحف متروبوليتان ( ١٩٣٠ م ) . ومعرض السجاجيد الصينية ذوات الرسوم الأفغوانية ( dragon rugs ) ، بمتحف المنسوجات فى واشنطن ، عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ، ( ١٩٤٨ م ) .

ومنذ أوائل الاهتمام بالفن الاسلامى درج الأثريون على اخراج نتائج البحوث الأثرية التى لم تصل أحجامها الى مرتبة الطبع فى كتاب مستقل ، فى مقالات تشر فى المجالات الخاصة بالدراسات الشرقية . ثم انه نظرا لازدياد المجموعات الأثرية فى المتاحف العامة تعين طبع البحوث الوصفية لها ، مثل بحوث زرعه وكونل فى التقارير السنوية أو النشرات الدورية التى تصدرها هذه المتاحف . ثم أخذت مطبوعات المعاهد الأثرية الأوروبية فى الشرق الأدنى تحتوى كذلك على عدد مطرد الزيادة

من المقالات الخاصة بالعصر الاسلامى ، على حين أخذت النشرات الرسمية الخاصة بدوائر الآثار التابعة لمختلف الحكومات بالشرق الأدنى تعلن عن اكتشافات جديدة أو بحوث أثرية حديثة في بلادها ، ومثال ذلك مجلة آثار ايران التى يشرف على نشرها جودارد ، ومجلة سومر العراقية (٣٩) . وشجعت مجلة الفن الاسلامى (Ars Islamica) مواصلة البحوث الأثرية تشجيعا كبيرا ، وهى أول مجلة مخصصة لدراسة الفنون والآثار الاسلامية ، ومؤسسها محمد أغا أوغلو ، سنة ١٩٣٤ م ، وتتولى اخراجها جامعة متشجان . وحديثا بدأت الدائرة الشرقية بمتحف هرميتاج فى لينجراد نوعا جديدا من المطبوعات المتأخرة بخلوها من التخليط الذى تتصف به النشرات المتحفية الأوروبية ، والأمريكية . وأصدرت هذه الدائرة بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٧ أربعة مجلدات عنوانها بحوث الدائرة الشرقية ، وهى تبحث فى فنون كل من الشرق الأدنى وآسيا عامة فى العصور القديمة . وفى هذه المجلدات تشغل الفنون والصناعات الفنية فى العصر الاسلامى والعصور السابقة له مباشرة صفحات كثيرة . ونظرا لاحتواء متحف هرميتاج وغيره من المتاحف الاقليمية فى روسيا السوفيتية على كميات كبيرة من مواد أثرية هامة على أهميتها غير معروفة للباحثين ، فالمرجوح أن تظل هذه السلسلة متصلة الظهور . وأخيرا ينبغى أن نذكر هنا مجلتين على جانب من الأهمية لدراسة الفن الأسباني المغربى ، وهما مجلة الأندلس (Al-Andalus) التى تشرف على اخراجها معاهد الدراسات الاسلامية فى مدريد وغرناطة ، ومجلة المذكرات الاسبانية (Notes Hispaniques) التى أخرجتها الجمعية الاسبانية فى أمريكا من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ م ، ولكنها لسوء الحظ باتت محتجبة عن الظهور .

ومما ترتب على كثرة المطبوعات الأثرية الحديثة وتنوعها ، فضلا

---

(٣٩) تتولى دائرة حفظ الآثار فى ايران طبع هذه المجلة المذكورة هنا ، وتشرف الادارة العامة للآثار القديمة فى العراق على اصدار مجلة سومر العراقية .

عن بعثة المؤلفين المعاصرين بين أقطار الأرض من الولايات المتحدة الى الهند ، أن صار اخراج المؤلفات الراصدة لهذه المطبوعات (Bibliographies) ضرورة علمية واضحة . وبعد جهود منقطعة في هذا السبيل خال الأثريون أن المشكلة انحلت حين أخرج ليوماير الدليل السنوي لمراجع الفنون والآثار الاسلامية منذ سنة ١٩٣٥ م ، غير أن قيام الحرب العالمية الثانية أمت هذا العمل التعاوني ، بعد أن ظهر منه ثلاثة مجلدات ، والأمل غير قليل أن تعود الحياة الى هذا العمل في المستقبل القريب . وثمة أمنية أخرى جديرة بالتحقيق ، وهي تأليف كتاب شامل للمطبوعات والبحوث المفردة التي سبق اخراجها في الفنون والآثار ، لأن أخشى ما تخشاه دوائر الأثريين أن تطفئ سرعة النسيان على كثير من البحوث والكشوف ، ولا سيما ما نبع منها من روسيا واسبانيا وبلاد الهند . وهناك حاجة ماسة الى مرجع يحصى الجذاذات ( الفيشات ) الدالة على الأصول . والصور الشمسية ، والنقوش المنسوخة ، والرسوم التخطيطية ، التي خلفها المؤلفون المتوفون . ومن هذه على سبيل المثال لا الحصر جذاذات فان برشم في مدينة چنيف ، وجذاذات ريفشتال في نيويورك ، وجذاذات هرتزفلد في واشنطن ، وجذاذات لو امتد هذا المشروع الى جذاذات الأحياء من المؤلفين . وسوف يظل كثير من البحث معتمدا على الاكتشافات التي تأتي بالصدفة ، مستهلكا للأوقات الطويلة في غير حساب ، حتى يتم هذا المشروع بالذات ، بل ربما يؤدي عدم اتمامه الى تكرار البحث في موضوع سبق بحثه بحثا نهائيا حسنا

وهنا ينبغي أن نخصص بضع عبارات لمسألة تدريس الآثار والفنون الاسلامية ، وذلك لأنه مع ما هو معروف من أن معظم الباحثين الذين تفوقوا في ميدان الفنون والآثار الاسلامية لم يتعلموا على أحد ، بل علموا أنفسهم بأنفسهم (autodidacts) ، فالغاية التي ينشدها الباحثون دائما هي تكوين جيل جديد من الباحثين الذين يتلقون تمرينا

باكرا في المؤهلات الخاصة والطرق الجديدة في البحوث الأثرية . وربما كانت جامعة فينا أول جامعة تنشئ كرسيًا أستاذيًا خاصًا بدراسة « العلوم التاريخية الشرقية المساعدة » ، نظرا لاختصاصات أول أستاذ لهذا الكرسي ، وهو فون كراباتشك . ومنذئذ قام أثريون معروفون في عديد الكراسي الأستاذية بمختلف الجامعات في أنحاء العالم ، ومنهم فان يرشم ، وجوميز مورينو ، ومارسيه ، وكرزول ، وريفشتال ، وكونل ، وأغا أوغلو ، وماير ، وسوفاجيه ، وزكى حسن ، وغيرهم . واعتبر آخرون ، أمثال هرتزفلد وسير توماس آرنولد ، ان الفنون والآثار الإسلامية موضوعا واحدا من موضوعات دراساتهم . ومن الملحوظ حتى العصر الحاضر أن علوم الفنون والآثار الإسلامية — فضلا عن المؤهلات الواسعة التي تتطلبها — دلت على أنها ليست مما يسهل اقتناصه واستيعابه في سرعة ، بدليل أن من جمهرة الدارسين الذين تأهلوا أحسن تأهيل في هذه العلوم والمؤهلات لم يصل منهم الى مستوى أساتذتهم سوى القليل .

وهذه الحقيقة تجعلنا وجها لوجه أمام المسائل التي ينبغي مناقشتها ، اذا أردنا النظر الى المستقبل ، وقصدنا الى حساب حاجتنا المستقبلية ، ومبلغ ما نأمل من التوفيق في تحقيقها . ويتضح للقارئ مما تقدم هنا أن دراسة الفنون والآثار الإسلامية تنبت وتستمد من أصلين اثنين ، وهما المعرفة العامة بالدراسات الإسلامية ، ثم المعرفة بتاريخ الفن . وفي المرحلة الأولى من مراحل التطور في دراسة الفنون والآثار الإسلامية نرى جماعة من النمين ، والنقشيين ، والمؤرخين ، تأسسوا أحسن أساس ، ولا سيما في اللغات ، والأدب ، والتاريخ ؛ ولكنهم لم يمرنوا أى مران في تمييز الأساليب الفنية بعضها من بعض . ثم جاء من بعد أولئك فئة عارفة تمام المعرفة بتحليل الأسلوب الفني ، ولكنهم أضفوا الى عملهم كمية دافقة من الحماسة للأدوات والآثار الفنية ، ولتفسيراتهم الشخصية لها ، دون كمية متساوية من المعرفة بالحياة الدينية ، والمراجع الأدبية ، والحقائق

التاريخية . وكان مما لا محيص عنه أن يرتكب رجال هذه الفئة الثانية في بحوثهم أخطاء في التفاصيل التاريخية لا يغفرها رجال الفئة الأولى ، برغم ما يكون في هذه البحوث من آراء وأفكار أساسية مقبولة . وانطبق هذا النقد في صورة خاصة على مؤلفات شتر زيغوفسكى في الفنون الشرقية ، بما في ذلك الفنون الاسلامية ، لأن هذا المؤلف خلق عددا من النظريات المثيرة للدهشة ، دون أية رعاية للحقائق الجغرافية والتاريخية ، وذلك أوائل القرن العشرين ، وهى سنوات المرحلة التكوينية في ميدان البحوث الفنية والأثرية . ومن ناحية أخرى لم يستطع الأثريون والنقشيون من رجال الفئة الاولى أن يبنوا نتائج بحوثهم دائما على حقائق تاريخية قاطعة ، بل اضطروا أحيانا الى الاعتماد على أحاسيسهم وانطباعاتهم الشخصية ، وأن يستخدموا التحليلات الأسلوبية استخدام مؤرخى الفن لها ، وذلك كلما اصطدموا بأشياء فنية أثرية (artifacts) غير مؤرخة . فضلا عن ذلك لم تكن طرق المستشرقين في مؤلفاتهم بنجوة من النقد دائما ، برغم ما تتسم به هذه المؤلفات من التزام الحقائق والصبغة العلمية . ونضرب لذلك مثلا بالصور المنسوبة الى بعض المصورين بعد قراءة مزعوم توقيعاتهم عليها ، دون الانتباه الى احتمال اضافة هذه التوقيعات الى تلك الصور المختلفة تمام الاختلاف في أسلوبها عن الصور المقطوع بنسبتها لأصحابها من المصورين ، وهو ما يتبين لمؤرخى الفن في وضوح بعد شيء من الفحص .

وربما قال قائل هنا ان نظرة خالصة الى هذه الحال كان ينبغى لها أن تؤدى في هذه المرحلة من مراحل التطور في البحوث الفنية والأثرية الى شيء من التمازج بين هاتين الطريقتين ، كما حدث في كثير من التوفيق في ميدان الفنون الغربية الأوروبية . غير أنه برغم ما استعرضنا هنا من المحاولات في هذا السبيل ، سواء بقيام اثنين أو أكثر من الباحثين ، على غرار المؤلفات التى أنتجها مشاركة كل من زرّه ومتفوخ ، وزرّه وفان برشم ، أو بتمرين شخص تمرينا خاصا ، كما يتضح من مؤلفات

هزرتفلد وكونل وسوقاچيه ، فالخلاف بين هاتين الطريقتين في التأليف أدى غالبا الى شيء من عدم الاعتبار وقلة الثقة بين الفئتين ، وهذا بدوره أدى الى شيء من تضاد الشخصية في أرجاء ميدان البحث في الفنون والآثار الاسلامية (٤٠) . والواقع أن هاتين الطريقتين لا ينبغي انفصالهما ، لأن كلا منهما تكمل الأخرى . ونحن ندرس الحضارة الاسلامية ، لا لأجل أنها حضارة معينة قامت بل لأجل أنها حضارة ذات منتجات وأفضال خاصة على البشرية . ولهذا يجب علينا أن ندرس هذه المنتجات كلها ، ماهو منها عام شائع ، وماهو خاص نادر ، في أدوار الحضارة الاسلامية ، لأن لدينا كميات هائلة من المواد ذات الأهمية والمعنى الأثرى ، وهى مواد تكشف لنا عن سالف العصور فحسب ، دون أن تشبع شيئا من حاسة الجمال فينا ، كما أن لدينا مواد كثيرة تكتشف عن محاولات واضحة للخروج على النماذج الشائعة ، وتنبئ عن جهود عامدة ومقدرة على ابتكار قطعة فنية . ومواد هذا النوع الثانى هى وثائق تاريخية مثل غيرها من المواد ، ولكنها تستأهل عناية خاصة ، وتتطلب دراسة خاصة كذلك ، اذا أردنا أن نصل الى معانيها وصولا تاما ، وهذا فضلا عن أنها من مبتكرات الأفذاذ من أساتذة الفن . ومن ذلك يتضح أن دراسة المواد الأثرية لحضارة من الحضارات يتطلب أولا عدم التقيد ، لا بطرق الباحث الأثرى فحسب ، ولا بطرق مؤرخ الفن فحسب . ومن المعروف أن الفصل بين الطريقتين ليس فى الامكان فى متاحف الآثار ، والغاية السليمة هى أن نعمل على الوصول الى أحسن الطرق الصالحة لأنواع التحليل والتفسير ، وأن نسمو عن المستوى الذى يفرق فى الاعتماد على الاحساس الذاتى ، لا الموضوعى .

واذ نستطيع بعد ذلك أن ننظر الى الامام لنرى ما سوف تتمخض عنه الأيام من التطورات المستقبلية فى ميدان البحوث فى الفنون والآثار الاسلامية ، فلعل من الأكيس والأحوط أن نصف هذه التطورات فى

Sauvaget : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, (٤٠)  
Paris, 1943, pp. 51-53.



عبارات عامة جريا على المستوى التعميمي الذى وصفنا فيه تاريخ تقدم هذه البحوث فى الصفحات السابقة . ويبدو أن هذا النحو من الوصف هو الأليق ، ولاسيما بعد أن أخرج كونل تأليفا حديثا عين فيه ما يجب على الأثريين أن يقوموا به فى المستقبل ، وبخاصة المواضيع الأثرية المختلفة التى لا معدى للحرف فيها أن ينتج أطيب النتائج (٤١) . وفى محاضرة بجامعة برنستون بأمريكا أدلى كرزويل باقتراحات مماثلة لما أدلى به كونل فى كتابه (٤٢) .

الواقع أن استمرار العمل فى ميدان الفنون والآثار الاسلامية عن طريق التنقيب ، والاستطلاع والفحص ، والدراسة الممعة فى الأشياء الأثرية ، سوف يظل الواجب الأول أماننا . وليس فى استطاعة أحد أن يعرف ما عسى تنبؤنا به مخبوءات الآثار والمخلفات الأثرية ، أو مدى ما تغيره هذه المخبوءات والمخلفات بعد كشفها من معلوماتنا فى الحضارة الاسلامية . ونسوق لذلك أمثلة واضحة من الماضى القريب ، وهى حفائر القصور الأموية بالشام وفلسطين ، فهى التى أمدتنا لا بمعلومات جديدة فى أصول المعمار والزخرفة الجصية (Stucco decoration) فحسب ، بل ساعدتنا أكبر المساعدة على دحض خرافة انعدام النحت فى تصوير الكائنات الحية فى الفن الاسلامى . وعلى هذا كلما ازدادت المواد الأثرية لدينا ازداد استحضارنا للماضى دقة وسلامة علمية ، ففى شبه جزيرة العرب وأفغانستان مساحات لم تمسسها أيدي الأثريين حتى العصر الحاضر ، وفى استانبول وحدها ما يربو على مئة وأربع وعشرين ألفا من المخطوطات معظمها لم يدرسه أحد دراسة وافية بعد ، وبعضها يحتمل أن يحتوى على منمنمات ذات أهمية بالغة . وفى استانبول كذلك كنوز عظيمة من

(٤١) Kühnel : Ergebnisse und Aufgabender Islamischen Archæologie in der Orient in Deutscher Forschung, Leipzig, 1944, pp. 255-259.

وكذلك Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, Leipzig, 1944, pp. 254-263.

(٤٢) تنشر مجلة (Art Bulletin) قريبا اقتراحات كرزويل فى محاضراته.

المنسوجات ، والأسلحة ، ومختلف الأدوات العسكرية ، من المغافر ، والزرود ، والتروس ، وهكذا (٤٣) ، بل ان المجموعات المخصصة في المتاحف الغربية من مختلف الأدوات لا تزال تنطوي على كثير من الجديد المثير للبحث والاستقصاء . وفي بلاد الأطراف الاسلامية ، وهي تركستان الروسية ، والقوقاز ، وباكستان ، والهند الاسلامية القديمة ، واسبانيا ، ينبغي أن يكون العمل في هذه البلاد مزدوجا ، لأنه يتحتم أولا أن يقوم على الكشف والتنقيب المبدئي كشافون وتقابون من أهلها ، ثم أن يقوم آخرون على نشر نتائج هذا الكشف والتنقيب ، وبدون ذلك يخشى أن يظل العمل المبدئي في هذه الأقاليم مجهولا لدى الأثريين الغربيين ، مثلما حدث في كشوف حفائر سراى برکه (شكل ٢٤-٢٥) ، وخوارزم ، وغيرهما من البلاد .

واذ وضح للقارئ أن من المفيد دائما أن تكون نظرنا الى العالم الاسلامي شاملة لأوسع المعاني ، بسبب سعة التاريخ والجغرافية ، فلا ريب أن الفنون والآثار الاسلامية لا تستطيع كذلك الا أن تتطلب هذا المستوى من سعة النظر والشمول . وعلى هذا ليس يكفي لفهم الفنون الاسلامية على وجه كامل أن ندرس أشكالها فحسب ، لأن هذه الأشكال لا تدل وحدها على جميع المفاتيح اللازمة للوصول الى أصولها وأوضاعها التاريخية ، بل ينبغي علينا أن نؤغل في بحث فنون الحضارات السابقة والمعاصرة لظهور الاسلام ، وهي فنون أثرت في الفنون الاسلامية تأثيرات متنوعة . ومن هذه فنون مصر البيزنطية القبطية ، وإيران الساسانية ، وفنون الشام في العصر الكلاسيكي الأخير ، وفنون سهوب وسط آسيا ، فضلا عن فنون الامبراطورية البيزنطية نفسها ، وأرمينية ، والقوقاز ، والصين . الواقع أن كشفا أثريا جديدا واحدا في أى من هذه

(٤٣) انظر Tahsin O. P. : Tûrk Kuma ve Kadifeleri No. 1.

استنبول ، سنة ١٩٤٦

وكذلك Stocklein : Die Waffenschatze in Topkapu Sarayi Mûzesi zu Istanbul. Ein Vorläufiger Bericht, Ars Islamica, I, 1934.

الميادين يحتمل أن يحدث عكوسا هامة في بعض القواعد المصطلح عليها في الفنون الاسلامية ، والحاصل أن الدراسات المستقبلية في الفنون والآثار الاسلامية لا تستطيع أن تبقى في معزل عن دراسات الفنون والآثار في غيرها من الميادين ، وأن الفنون والآثار الاسلامية يلزمها أن تقرر كشوفها بكشوف الميادين التاريخية والجغرافية القريبة ، وربما البعيدة كذلك .

ثم اننا اذا أردنا أن نتصور التيارات المستقبلية في البحث في الآثار والفنون الاسلامية ، ففي استطاعتنا أن نقول ان هذه التيارات سوف تدرك ادراكا مطردا أن ليس يكفي أن نحلل أسلوب مبنى معمارى ، أو صورة ، أو أداة من الأدوات الأثرية ، وان ليس يكفي أن نعرف خاصيات هذا وذاك ونقوشه ، أو بعبارة أخرى ان ليس يكفي أن ننظر الى كل من هذه الأشياء الأثرية كأنما ننظر الى شىء مستقل بذاته ، دون أى اعتبار للأحوال والأفكار التى أسهمت في ابتكاره وتكوينه ونتاجه . فالبيديهي أن هذه العماير والأدوات تم بناؤها أو صنعها لغرض خاص ، ولادخال السرور الى قلوب أصحابها ، وأنها ابتكرت في أحوال وأجواء اجتماعية خاصة ، لتحمل في أجزائها أفكارا خاصة كذلك . ولهذا يتعين علينا أن ندرس الغرض الذى من أجله بنى المبنى ، والمنفعة التى من أجلها صنع الشئ الأثرى ، وأن ندرس أحوال الحياة الاجتماعية والصناعية في عصر هذا وذاك ، وأن نعرف المصدر الذى جاءت منه المادة الأثرية أو فكرتها ، وكذا جميع المعانى التى ساعدت على ابتكار هذا المبنى وذاك الشئ الأثرى ، سواء أكانت هذه دينية ، أو سحرية ، أو تنجيمية ، أو شعبية . ومن الواضح أنه مهما اتسمت به عمارة ، أو صورة ، أو أداة أثرية ، من سمات عامة أو زخارف موققة تسر العين ، فواجب الباحث أن ينظر كذلك الى ما تنطوى عليه هذه الأشياء الأثرية من المعانى الأوسع والمدلولات الحضارية العامة ، ما دامت غايته معرفة المعنى الحقيقى والمعزى الكامن في أداة من أدوات آثار الماضى .

وليس في هذه الملحوظات التوجيهية التي تتنبأ بها للتيارات المستقبلية في بحوث الأثرين شيء جديد تقترحه هنا لأول مرة ، إذ الواقع أن عددا غير قليل من البحوث الحديثة يدل على ظهور هذا التيار . ونسوق من بضعة الأمثلة للبرهان على ذلك دراسة تكوين مدينة اسلامية كبيرة دراسة تستمد من الآثار والمتون التاريخية معا (٤٤) ، أو بحث أدوات معدنية معينة بحثا لا يقتصر على أشكال هذه الأدوات وزخارفها فحسب ، بل يتعدى الى بحث وضعيتها في المجتمع الاسلامي (٤٥) ، أو دراسة أصل رمز من الرموز الفلكية ومدى تطور هذا الرمز في الاسلام (٤٦) . فهذه الأمثلة كلها تستمد من روح واحدة ، ولو أنها تختلف في طريقة استمدادها من هذه الروح في سبيل حل مسائل مختلفة . ولا يخالجنا شك في أن التقريب بين ميدان تاريخ الفنون الاسلامية وميدان الآثار الاسلامية سوف ينتج نماذج كثيرة من هذه البحوث المتكاملة ، وكما تنبأ فان برشم سوف تضيف هذه البحوث اضافات عظيمة الى مستوى معرفتنا بالحضارة الاسلامية التي يبلغ الفن فيها منتهى آيات الجمال .

ولعل من الواضح بعد ذلك أن هذه الروح الجديدة سوف تؤدي الى ازدياد مدى معرفتنا واحساسنا بجمال العمائر والأدوات الأثرية الاسلامية ازديادا بالغا ، وأنها سوف تفتح فضلا عن ذلك ميادين جديدة لبحوث لم تتناولها الأيدي الا قليلا حتى العصر الحاضر . ومن هذه ميدان علم التصوير (Iconology) ، وهو علم يبحث في فن الملاءمة والجمع بين الخيال والحقيقة في الصور وبين الأفكار المعاصرة البادية في الأدب . وثمة ميدان آخر هو علم الاصطلاحات الفنية (terminology) ولم نر منه حتى الآن سوى بحوث مبدئية متقطعة ، ونحن فيه بحاجة الى بحوث شاملة لا تزال في عالم الغيب . ويتضح من طبيعة العمل في ميدان الاصطلاحات الفنية أن المران والدراسة في فقه اللغات ليس يكفي ، بل

---

Sauvaget : Alep, Essai sur le Développement d'une Grande (١١)  
 Ville Syrienne, des Origines au Milieu du XIXe siècle. Paris, 1941.  
 Aga-Aglu About a Type of Islamic Incense Burner, (Art (١٥)  
 Bulletin, XXVII, 1945, pp. 28-45).

يجب استكمال هذا وذلك بمعرفة المواد الأثرية والطرائف الفنية معرفة تامة . وأخيرا سوف تنشأ بحوث في الجمال المثالي الذي يسطع في الأدب ، وتنعكس أشعته في الفنون الرفيعة . ولعل مما يساعد على الإهتمام الى معان جديدة أن نقرن بين مستويات الجمال في الشرق ومثيلاتها في الغرب ، وهى مستويات يغلب اختلافها بعضها عن بعض ، نظرا لاختلاف العقلية والمسافات الزمنية والجغرافية .

يتبقى بعد ذلك كله سؤال للاستفهام ، وهو هل دراسة الآثار والفنون الاسلامية جزء كمالى من الجهود السادرة في سبيل المعرفة ، أو مظهر من مظاهر حب استطلاع الماضى ، أم هناك معان أو أهميات أخرى لهذه الدراسة ؟ الجواب على ذلك أن العلماء والفلاسفة المسلمين أثروا في العقل الأوروبى في العصور الوسطى تأثيرا بعيدا عن طريق مؤلفات الرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وكثيرين غيرهم ، وأن الآداب والأفكار الاسلامية غدت موضع اعجاب كبير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، بدليل الترجمات الكثيرة لقصة ألف ليلة وليلة ، كلها أو بعضها ، وأولهما ترجمة المستشرق الفرنسى جالاند التى ظهرت بين ١٧٠٤ و ١٧١٧ م ، وهذا فضلا عن ديوان الشرق والغرب (Westöstlicher Diwan) تأليف جيته الألمانى ، وقصيدة سهراب ورستم ، تأليف ماثيو آرنولد الانجليزى ، ورباعيات عمر الخيام التى نقلها فتر جيرالد الايرلندى الأصل الى الانجليزية . ثم انه لا ريب أن للفن الاسلامى بالقياس الى غيره من الفنون جاذبية قوية بين الغربيين من هذا الجيل ، وأن هذه الجاذبية واضحة في كثير من الحالات . والواجب المتعين على مؤرخ الفن الاسلامى — في الغرب والشرق — أن يعمق الشعور بهذه الجاذبية الى رغبة في فهم جميع نواحي الحضارة الاسلامية التى يعيش فيها عدد جسيم من البشرية .

---

Hartner, W. : The Pseudoplanetary Nodes of the Moon's (٤٦) Orbit in Hindu and Islamic Iconographies, Ars Islamica, V. 1938, pp. 113-154.

وتستطيع الفنون الاسلامية وأربابها من الباحثين الغربيين أن يؤدوا خدمة كبيرة للعالم الاسلامى فى العصر الحاضر ، بعد أن أصبح واضحا أن هذه الفنون هى العمل الثقافى الذى صادف هوى واعجابا عند الغربيين ، وذلك بأن ينصرف أولئك الباحثون الى احيائها انصرافا يتعوض الشرق به مؤقتا عن تأخره الحالى ، فى العلوم النظرية والصناعات المكنية ، مما لا تستطيع حقول البترول الخام أو أهميات الموقع الجغرافى أن تعوضه . ومهما يكن من شىء فلن يوجد سفير للسلام والوئام بين الأمم أذكى من الفن ، وهذه الملحوظات وغيرها اذا اتسعت دوائر فهمها اتساعا جديرا فسوف يقوم الفن الاسلامى بدور هام فى مصائر المستقبل .

ابريل سنة ١٩٥٣

محمد مصطفى زيادة

---



# السياسة الدولية في الشرق الأوسط

تأليف  
كوينسي رايت

ترجمة  
جعفر خياط





بعد الاعتراف بالأهم البلقانية دولاً أوروبية مستقلة ، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية ، أضحي اسم الشرق الأوسط هو السارى فى المصطلح الدولى الحديث ، للدلالة على منطقة من أهم مناطق الأرض ، وهى معظم ممتلكات الدولة العثمانية التى كانت فى آسيا وأفريقيا ، فضلاً عن مساحات أسيوية وأفريقية أخرى . وعلى هذا يشتمل الشرق الأوسط على ثلاثة أقاليم جغرافية ، أولها إقليم الهضبات الأسيوية الممتدة من بحر ايجيه الى باكستان ، فيضم أفغانستان وإيران وتركيا ، ويحتوى على ربع مساحة الشرق الأوسط ، وفيه ما يقرب من ثلث سكانه ، وهم مسلمون فى الغالب . أما الاقليمان الآخران - أى إقليم بلاد العرب والهلال الخصيب وإقليم أفريقيا الشمالية ، فيؤلفان معا ثلثى المساحة . ولكنهما يشتملان على ٣٩٪ فقط من سكان الشرق الأوسط كله . وهؤلاء السكان الذين يبلغ عددهم ستة وستين مليوناً هم فى الغالب مسلمون كذلك ، ويتكلمون اللغة العربية وتسود بينهم المدينة العربية . غير أن عرب أفريقيا يختلفون عن عرب آسيا ، فعلى حين يجرى كثير من دم العرب الفاتحين الذين جاءوا من الجزيرة العربية فى عروق الأفريقيين ، فإن هذا الدم اختلط على مقاييس مختلفة بكل من الدم المصرى والسودانى والبربرى والأوروبى . وفى الساحل السورى نرى الدم العربى والحضارة العربية مختلطين بدماء السكان الأصليين اختلاطاً ساعدته الأوضاع والجيرة الجغرافية والحوادث التاريخية معاً . والبلاد العربية تقرب فى مساحتها من الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن تشبيهها بأرخبيل جزائره العراق ، والساحل السورى ، وساحل البحر الأحمر ، وجنوب شبه جزيرة العرب، ووادى النيل ، وساحل بربرة . وتفصل بين هذه الجزائر وديان يسكنها حَصَرٌ مستقرون فى الواحات، وبدو متجولون فى الصحارى على ظهور سفن البادية ، أى الأبل .

ويمتد الشرق الأوسط فى ثلاث قارات ، ولا يفصل عن أية من هذه

القارات بحدود جغرافية ، ولكن أجزاءه تنفصل عما يجاورها من كل من هذه القارات من الأقاليم . يوضح ذلك أن جبال القفقاس والبحر الأسود والبحر الأبيض تفصل الشرق الأوسط عن أوروبا ، وجبال البامير ووديان جيحون والسند تفصله كذلك عن سائر القارة الآسيوية والصحراء الكبرى ، ومرتفعات الحبشة تفصله كذلك عن سائر القارة الأفريقية .

وتقلصت حدود هذا الشرق الأوسط واتسعت تبعا لمشيئات الحرب والسياسة خلال تاريخه الطويل ، وهو في الواقع أطول تاريخ ، لأن الشرق الأوسط يحتوى عن مواقع أقدم المدن ، وأقدم المدن التى استنبطت الكتابة ، وأقدم السجلات ، فضلا عن أعرق النظم السياسية . وأقوام الشرق الأوسط هى التى أنشأت وتعمدت المدن المصرية والبابلية والآشورية والحيثية ، وتاجرت وتفاوضت وتحاربت فيما بينها فى هذه المنطقة الشاسعة أثناء الألف الثانية قبل الميلاد . وعلى غرار ذلك فعل اليونانيون والفرس ، والرومانيون والسوريون ، والمسيحيون والمسلمون ، فى القرون المتأخرة . وظل طابع هؤلاء وأولئك جميعا مطبوعا فى حاضر المنطقة ، فى أشكال مختلفة .

وفى الجلسة الخاصة التى عقدتها عصبة الأمم فى ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧ أشار رئيس الجلسة التركى الى كثير من هذا التاريخ القديم السالف اشارة رمزية ، عندما رحب بمصر عضوا فى العصبة ، حيث قال ان أقدم معاهدة سياسية فى العالم هى التى عقدت بين قدماء المصريين والحيثيين الذين يعدهم الأتراك أسلافهم الأقدمين . ثم أعقب ذلك خطب التهئة من ممثلى العراق وايران واليونان ، فأشار كل منهم الى قديم العلاقات التى تربط مدينة بلاده بالمدينة المصرية . وكان هذه الجلسة الخاصة رمزية كذلك ، اذ حضرها مندوبون عن خمسين دولة من مجموعة الدول الأعضاء فى العصبة ، وعددهم وقتذاك ثمانية وخمسون عضوا ، منها عشر دول من الشرق الأوسط ، أى أن هذه الجلسة كانت أقصى ما توسعت اليه العصبة .

وبرغم انعدام الوحدة الجغرافية والدينية والحضارية بدا الشرق الأوسط متحدا سياسيا ، فالامبراطورية الفارسية على عهد دارا ، والخلافتان الأموية والعباسية ، والامبراطورية العثمانية بعد سليمان القانوني ، كل منها اتجه في فتوحه نحو الشرق ، وكل منها حكم معظم هذه المنطقة . وكذا كان اتجاه اسكندر المقدوني والرومان والبيزنطيين من الغرب الأوربي نحو الشرق ، وبذا تناوب الشرق والغرب السيطرة على الشرق الأوسط . غير أن تاريخ الشرق الأوسط في العصور الحديثة تابع من تفكك الوحدة السياسية التي خلقها المتأخرون من أولئك الفاتحين ، وهم الأتراك العثمانيون ، ويرجع هذا التفكك فيما يرجع الى قوى القومية والامبريالية والدولية ، وهذه كلها نشأت في الغرب ، وامتدت روحها نحو الشرق الأوسط ، فكونت لسكانه المشكلة الغربية .

حكمت تركيا منذ أواخر عهد سليمان القانوني ، أى منذ أوائل القرن السادس عشر الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، جميع البقاع الداخلة في الشرق الأوسط ، ماعدا مراكش ، وجنوب شبه جزيرة العرب وايران ، وأفغانستان . وفي أثناء القرن التاسع عشر الميلادي ، احتلت فرنسا الجزائر وتونس ، كما احتلت بريطانيا مصر . وفي خلال القرن العشرين احتلت ايطاليا طرابلس الغرب . وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تم ' الاعتراف باستقلال الحجاز ونجد ، وهما الآن المملكة العربية السعودية ، كما تم الاعتراف باستقلال مصر واليمن . أما فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق ، فصارت كلها تحت انتداب عصبة الأمم . ثم تحررت العراق من الانتداب سنة ١٩٣٢ م ، واستقلت كل من سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية ، كما استقلت الأردن واسرائيل بعد انتهاءها . وتنتج عن ذلك كله أن تركيا أضحت مقتصرة على شبه جزيرة الأناضول وأجزاء معينة من أرمنية وكرديستان في آسيا ، فضلا عن بقعة صغيرة من أوروبا حول استانبول . ونشأت في تركيا جمهورية وطنية حديثة بفضل عبقرية كمال أتاتورك .

وهذه الحوادث المعروفة فى التاريخ الأوروبى باسم المسألة الشرقية لم تكن سوى تصفية للدولة العثمانية ، وتخلل هذه الحوادث نمو القومية فى مصر وبلاد العرب وسورية ولبنان وتركيا وإيران ، كما تطلّتها خصومات إمبريالية ونشاط دبلوماسى دائب فى دوائر وزارات الخارجية الأوربية ، فضلا عن عدد من الحروب . يضاف الى ذلك أن هذه المسألة الشرقية أضحت مشكلة المشاكل بين الدول الأوربية الكبرى ، وتطلب حل أزمتها صداقة هذه الدول بعضها نحو بعضها الآخر . وعلى هذا أضحت الشرق الأوسط ميدان السياسة الأوربية الإمبريالية ، حتى اذا انتهت الحرب العالمية الأولى ورثت عصبة الأمم هذه المشاكل ، وبذا اتصفت هذه المشاكل بصفة الدولية .

ثم تولت هيئة الأمم المتحدة هذه المشاكل بذاتها ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . غير أن تفوذ الشرق الأوسط فى الدوائر الدولية ازداد فى الوضوح والاضطراد منذ أواخر الحرب العالمية الأولى ، فعلى حين كانت تركيا وإيران هما الدولتان المستقلتان الوحيدتان فى هذه الرقعة من الأرض ، أضحت دول الشرق الأوسط عشرا ذوات عضوية فى عصبة الأمم . وفى هيئة الأمم المتحدة ازدادت هذه الدول حتى صارت اثنتى عشر دولة ، وتؤيدها فى هذه الهيئة بعض الأحيان ست دول آسيوية ، ودولتان من دول أفريقيا الوسطى ، فضلا عن عشرين دولة من أمريكا اللاتينية . وهذه المجموعة من الدول تستطيع أن تصبح ذات تفوذ فعال ، لأنها تؤلف ثلثى أعضاء المجلس العام فى هيئة الأمم المتحدة .

وأهمية الشرق الأوسط ترتكز الى تاريخه ووضعه الجغرافى معا ، فهو منبع الديانات العظمى ، ومصدر أقدم المدينات التى اجتذبت إليها الأثريين والحجاج من جميع الأمم . وترجع لتاريخ الشرق الأوسط قيم لا تخضع للتقدير بالمقاييس الاقتصادية أو التعاريف القانونية ، وهذه القيم التى لا يريد الغرب الإمبريالى أن يعترف بقوتها هى التى

جعلت التوفيق صعبا بين المطالب القانونية والاقتصادية والمطالب القومية التي لا محيص عن احترامها في الشرق الأوسط . ثم ان الشرق الأوسط يصل بين ثلاث قارات ويربط بين بحرين عظيمين ، ويحتوى على نفط وافر . ولذا فهو كذلك موضع اهتمام الاستراتيجيين ، فضلا عن الامبرياليين وأصحاب رءوس الأموال .

وليس يشبه الشرق الأوسط في الوضع السياسى العالمى سوى منطقتين أخريين من مناطق الأرض ، وهما اقليم البحر الكاريبى ، واقليم بحر الصين الجنوبية وجنوب شرقى آسيا . ووجه الشبه بين هذه المناطق الثلاث أن كلا منها يمر فيه طريق مائى ضيق ، وهى قناة السويس وقناة بناما ، ومضيق مالقا ، وان كلا من هذه المناطق يعوزه الفحم والحديد اللذان يغذيان التصنيع في السلم والحرب الحديثة .

وكانت كل منطقة من هذه المناطق جزءا من امبراطورية قديمة ، وهى الامبراطوريات العثمانية والاسبانية والمانشوية الصينية ، كما احتوى كل منها على ترسبات نفطية ومنتجات استوائية هامة . وتنتج عن ذلك كله أن أية منطقة من هذه المناطق غدت مسرحا للخصومات السياسية بين الدول الكبرى . ففى خلال القرون الثلاثة الأخيرة تورطت أسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولاندا والولايات المتحدة في حروب متكررة من أجل منطقة البحر الكاريبى . ثم استطاعت الولايات المتحدة بفضل قربها الجغرافى ، وسيادتها على قناة بناما وپورتريكو وجزر العذراء ، وبحكم مبدأ منرو السارى على جميع الدول الأمريكية ، أن تسيطر على هذه المنطقة خلال القرن العشرين . لكن ألمانيا تحدث هذه السيطرة بغواصاتها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية .

أما اقليم بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا فتورطت فيه الصين والبرتغال وهولاندا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا والولايات المتحدة ، ثم استطاعت بريطانيا بفضل سيطرتها على سنغافورة وهونج كنج ، وتعاونها مع الولايات المتحدة في مانىلا بجزائر الفيلين ، أن تسيطر

هى كذلك على هذه المنطقة فى القرن العشرين . ثم تحدث اليابان هذه السيطرة البريطانية ، ونجحت فى تحديثها أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما استتحت الحرب الباردة فى منتصف هذا القرن العشرين أضحت الصين الشيوعية تحمل لواء التحدى القديم فى هذه المنطقة .

وفى الشرق الأوسط اشتركت تركيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة فى منازعات عديدة خلال القرن التاسع عشر ، فكان فى وسع بريطانيا صاحبة القواعد الحربية فى جبل طارق ومالطة وعدن وقبرص والسويس والخليج الفارسى أن تهيمن على الموقف كله ، بأن آزرت تركيا ضد روسيا ، كما حصرت الأسطول الروسى فى البحر الأسود . ثم أدت السياسة التى انتهجتها بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى الى إضعاف تركيا العثمانية ، وتأيد العرب ضد الأتراك ، وترسيخ أقدامها فى مصر وفلسطين والعراق . على أن القوات الألمانية تحدث هذه السيطرة الشامخة فى الحرب العالمية الثانية بحركة كماشية جبارة فى ليبيا وروسيا ، فضلا عن حركة اندفاعية أزمعتها ألمانيا عن طريق تركيا . وهدفت ألمانيا بذلك كله أن تصل جيوشها الى نقط القوقاز والموصل ، والى قناة السويس والخليج الفارسى . لكن بريطانيا صامدت هذا التحدى حتى كادت تزهق ، واضطرت بعد أن خرجت منهكة القوى من الحرب أن تشارك معها الولايات المتحدة فى مصائر المنطقة ومعالجة المطالب التى عزمت القوميات المحلية الثائرة على تحقيقها ، وهى القوميات التركية والإيرانية ، والعربية والصهيونية . وكان من نتائج ذلك أن أضحت البلاد العربية كتلة سياسية هى جامعة الدول العربية .

والمعروف أن الأهداف السياسية والاجتماعية التى أزمع الشرق الأوسط تحقيقها منذ نهضته القومية تغيرت بتغير الأحوال ، وهى لا تزال حتى العصر الحاضر فى تغير وتطور نحو الكمال ، بل ان ما يعنيه الشرق الأوسط فى المستقبل من التغيرات والتطورات لا يمكن تعريفه أو التكهن

به . ولأجل أن نحكم على هذا المستقبل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار قوى القومية والدين في الشرق الأوسط من ناحية ، ومن ناحية أخرى قوى الامبريالية الغربية ، فضلا عما سوف ينتج عن تناحر الكتلتين الديمقراطية والسوفييتية في الحرب الباردة داخل هيئة الأمم المتحدة وخارجها .

غير أن التنبؤ بالمستقبل يكون على درجة كبيرة من الصعوبة برغم معرفة حقيقة القوى السياسية المحلية والعالمية ، وبرغم القدرة على تصور وقع بعضها على بعض . ذلك أن الأمر هنا ليس كما يقيس الفلكي تأثير الشمس وتجاوب الكواكب والقمر بعضها في بعض ، لتقدير سيرها وتعيين منازلها المقبلة . انما الذي يحدث في القوى السياسية أنها تتأثر في كل عصر من العصور بالأفكار الدينامية التي يؤيدها رأى عام ، وبطريقة الالتقاء يصبح بعض هذه الأفكار هو السائد ، كما يصبح البعض الاخر قليل الأهمية ، لأن الناس يدلون رأيهم تبديلا غامضا ، ولذا يصبح التنبؤ بالمستقبل أشد غموضا وابهاما . وعلى هذا يتحتم علينا أن نجمع بين اعتبار الاتجاهات التي تسير فيها القوى الكائنة حاليا ، واعتبار رغباتنا في المستقبل ، فضلا عن خططنا التي توضع لتحقيق هذه الرغبات . وكلما أصبح العالم منظما تنظيما سياسيا ، كلما تصبح السياسة العالمية جهودا لتحقيق الخطط المختلفة الناتجة عن ذلك التنظيم ، لا نتيجة القوى المتناحرة في السياسة العالمية . ولذا نسأل اذا أردنا التكهن بمستقبل الشرق الأوسط : ما الذي تنطوي عليه سياسة هيئة الأمم المتحدة المعبر عنها في الميثاق بشأن هذه المنطقة . الجواب هو أن الرأى العالمى العام اذا عبيء تعبئة منظمة وراء ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، واذا وضع رجال السياسة والحرب خططهم لمنع الخراب والدمار، وكبح استغلال القوى للضعيف ، فان تقدما مستمرا سوف يؤدي بالشرق الأوسط الى تحقيق أهدافه .



ولهذا يتعين علينا هنا تحليل القوى السياسية ، واتجاهات الرأى العالمى العام ، والمؤسسات الدولية وسياسة هيئة الأمم المتحدة .

## ١ - القوى السياسية

أكثر القوى تأثيرا فى مصير الشرق الأوسط هى التى تصدر عن الكتلتين المتخاصمتين ، وهما كتلة الديمقراطيات الغربية ، وكتلة الدكتاتوريات السوفيتية . وتقوم سياسة الديمقراطيات على قاعدة الاعتراف بالأمانى القومية والوطنية ، وكفالة الحريات الأساسية للإنسان ، فى كل مكان ، كما تقوم على سياسة التنظيم الدولى والزام ما تقرره التنظيمات الدولية ، رغبة فى استتباب السلم العام والأمن والاصلاح . أما سياسة الاتحاد السوفيتى فيبدو أنها تصبو الى تكتيل الأمم جميعا بواسطة الكومنترن الذى يسيطر عليه الكرملين فى روسيا ، وذلك لاجداث ثورة اقلابية فى البناء الاجتماعى ، وفى الصناعة والانتاج والاستهلاك ، بغض النظر عن المنفعة الفردية كائنة ما كانت .

ومما لاشك فيه أن الوسائل والأغراض المحلية التى لا تنسجم مع هاتين الكتلتين المتخاصمتين سوف تجعل التأثير العاجل لأية واحدة منهما فى الشرق الأوسط شيئا صعبا ، وهذا على فرض أن تحرز احدى الكتلتين المتخاصمتين انتصارا تاما فى حلبة التنافس الدولى . ولذا سوف يظل مستقبل الشرق الأوسط متأثرا زمنا طويلا بسير الحرب الباردة .

وربما كانت بلاد الشرق الأوسط أقل قبولا لاتخاذ موقف ايجابى معين من احدى الكتلتين المتخاصمتين ومناهجهما من قبولها موقف الرغبة فى تحاشى التورط ، فى أى نوع من منازعات الحرب الباردة ، نظرا لما يربط بعض الدول فى الشرق الأوسط بدولة ما من الدول الكبرى ، أو بسبب الاغراء أو التهديد الذى تستطيعه احدى هذه الدول الكبرى فى المستقبل العاجل . من الأمثلة على ذلك أن تركيا انضمت الى جانب

ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم بقيت على الحياد الى قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ثم أكدت صداقتها لبريطانيا وفرنسا عشية نشوب القتال ضد المحور ، وذلك مقابل التنازل لها عن القسم الشمالى من الانتداب الفرنسى في سوريا ، ومن أجل خشيتها من روسيا . وبعد أن احتلت القوات الألمانية جزءا كبيرا من روسيا سنة ١٩٤١ عقدت تركيا مع ألمانيا معاهدة تجارية ، ولكنها أخذت تميل ميلا واضحا نحو الأمم المتحدة حتى انضمت اليها ، عندما أضحت النصر وشيكاً ضد الدول المحورية . أما الولايات المتحدة فعاضدت تركيا في مقاومتها للسياسة السوفيتية وأهدافها ضد الأراضى التركية ، ولذا انضمت تركيا واليونان الى منظمة معاهدة شمال الاطلسنى .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عرفت بلاد العربية وايران من الامبريالية البريطانية والفرنسية ما لم تعرف من الامبريالية الألمانية والايطالية ، وأمعنت محطّات الاذاعة في دول المحور في اظهار مساوئ الاستعمار ، كما أن مفتى القدس ورشيد عالى الكيلانى رئيس وزراء العراق ورضا بهلوى شاه ايران حاولوا التقرب الى دول المحور أملا في التخلص من مختلف ربقات الاستعمار . لكن التدابير العسكرية السريعة التى اتخذتها بريطانيا بمساعدة روسيا قضت على حركات المحور في ايران ، كما قضت تدابير سريعة أخرى على الحكم الفرنسى الفيشى في سورية ولبنان . ومما ساعد على نجاح ما قامت به بريطانيا في سوريا ولبنان أن العرب الذين انضموا الى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وحصلوا على شىء من الاستقلال لبلادهم وقتذاك مالوا الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية . وعملت السياسة البريطانية على استرضاء أولئك العرب بالاعتراف باستقلال كل من سوريا ولبنان ، وبالجامعة العربية وبالعزم على انهاء الانتداب والخروج من فلسطين . ثم أصبحت سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية أعضاء أصليين في هيئة الأمم المتحدة .

وفي سنة ١٩٣٦ تم الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، ومع أن

مصر ظلت الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية ، ورضيت أن تكون المعقل الرئيسى للقوات البريطانية وغيرها من القوات في الشرق الأوسط، بل صارت أرضها مسرحا للحرب فعلا ، فانها لم تدخل الحرب رسميا ضد الدول المحورية حتى سنة ١٩٤٥ ، ثم أصبحت مصر عضوا أصليا في هيئة الأمم المتحدة ، ولكنها اختلفت مع بريطانيا حول تفسير معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وأدت أحوالها الداخلية الى نزول الملك فاروق عن العرش ، وتأسيس حكومة جمهورية يرأسها اللواء محمد نجيب سنة ١٩٥٢ . وحافظت مصر التى هى أقوى الدول العربية على نوع من الزعامة بين هذه الدول فى هيئة الامم المتحدة .

وفى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش تكتشف أهميات استراتيجية للحلفاء بعد احتلالهم شمال أفريقيا ، سنة ١٩٤٢ . ولما كانت هذه البلاد خاضعة لحكم استعمارى ليس فيه الا القليل الضئيل من الحكم الذاتى ، فانها لم تكن متيقظة لأحوالها السياسية ، بالقياس الى مصر وسائر البلاد العربية . غير أن عرب ليبيا لم يكونوا راضين عن السياسة الايطالية التى اضطرت كثيرا منهم الى الهجرة ، لافساح المجال للمستوطنين الايطاليين قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . فلما انتهت الحرب ، ونقضت ايطاليا يدها من ليبيا ، تناقشت الدول الكبرى فى أمرها حتى ١٩٤٩ ، وجعلتها خاضعة لوصاية الأمم المتحدة مدة سنتين . ثم أصبحت ليبيا دولة مستقلة سنة ١٩٥١ ، ولكنها لم تدخل هيئة الأمم المتحدة . أما تونس والجزائر ومراكش ، فارتبط كل منها بحماية فرنسا سنين عديدة ، ثم ثارت بلاد الريف المراكشية فى العشرينات من هذا القرن العشرين ضد فرنسا وأسبانيا . وفى الحرب العالمية الثانية وضحت أهمية شمال أفريقيا ، وهذا على حين سقطت فرنسا . ثم أعقب ذلك ازدياد شأن القومية فى مصر وسائر البلاد العربية ، واستقلت ليبيا ، وهى أقل بلاد شمال أفريقيا تقدما ، فتنادت تونس والجزائر ومراكش بضرورة الحكم الذاتى والاستقلال عن فرنسا ، واثارت المنازعات مع السلطات الفرنسية ، وبذلت الدول

العربية الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة جهودا لعرض قضية هذه البلاد على مجلس الأمم المتحدة عام ١٩٥٢

والقومية في الشرق الأوسط عموما قوة ذات أهمية ، وهي لا تزال في ازدياد . وانتهجت القومية في الشرق الأوسط طريق سائر القوميات في التاريخ الحديث ، اذ بدأت بتشكيل الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية لاهياء أمجاد الماضي العربي ، واطهار التعسف التركي العثماني، وأدى ذلك الى قيام السلطات التركية العثمانية بتشريد هذه الجمعيات الأدبية والجماعات السياسية ، فلجأ معظمها الى مصر ، وصارت مصر مركزا للدعاية وطبع المطبوعات لترويج القومية العربية . وفي المراحل الأولى لهذه الحركة كانت بعض المؤسسات المسيحية وهيئات التبشيرية وسيلة من وسائل نقل البذور القومية من الغرب الأوربي والأمريكي الى بلاد الشرق الاوسط ، ثم قام المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد العربية للعمل جنبا الى جنب ، لأن زعماءهم أعلنوا أن العقيدة الدينية أمر يعود الى وجدان الفرد .

ومما ساعد على تغذية القومية العربية أن الامبريالية التركية العثمانية ، وكذلك الامبريالية الأوربية — بريطانيا وفرنسا — لم تأل جهدا في معارضة أمانى العرب . ولهذا انتهزت البلاد العربية الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى، ورحبت بالوعود البريطانية الفرنسية ، وأعلنت انفصالها عن تركيا العثمانية . غير أن تضحيات العرب في تلك الحرب ، ونقص الاستقلال الذي حصل عليه كل منها ، والاختلاف بين بريطانيا وفرنسا والصهيونية ، كل ذلك حفز القومية العربية الى الحركة أثناء المدة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية . ومما ساعد على ازدياد هذه الحركة ما استولى على الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والألمانية والايطالية من الضعف نتيجة الحرب العالمية الثانية ، وانشغال الغرب الأوربي كله بمقاومة الشيوعية والامبريالية الروسية . يضاف الى ذلك فشل الحرب

ضد اسرائيل ، وقيام زعماء من العرب العارفين بتاريخ الشعوب العربية وطاقاتها الماضية ، ويقظة السياسيين العرب في هيئة الأمم المتحدة . وللقومية العربية اليوم زعماء ومنظمات وأدب خاص ، لكن منهجها لا يزال غير واضح تمام الوضوح . فهل هي تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف ايران الى شاطئ المحيط الاطلنطي ، أو أمة تضم العرب الآسيويين فقط ، أو أمة من عرب البلاد الشمالية فقط . أو أنها تستهدف خلق عدة دول عربية مستقلة ، وهو ما تحقق أكثره ؟ غير أنه يبدو من غير المحتمل مثلاً أن تستطيع القومية العربية خلق أمة واحدة من عرب آسيا وحدهم ، لأن ذلك لا يمكن أن يدخل في الحساب قبل تحسين المواصلات وزوال الأمية ، وتقليل الفروق بين العرب البادية والعرب المستقرين في المدن والحواضر والسواحل . ثم ان العراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ومصر والمملكة الهاشمية الأردنية وليبيا هي الآن دول عربية مستقلة ، وجميعها عدا الدولتين الأخيرتين أعضاء في هيئة الأمم المتحدة . ثم ان هذه الدول كلها أعضاء في جامعة الدول العربية ، واذا كان نظام الانتداب الذي أشرفت عليه عصبة الأمم مرحلة انتقالية من السيطرة الامبريالية الى الاستقلال لعرب آسيا ، فهل يقوم نظام الوصاية الذي تشرف عليه هيئة الأمم المتحدة بدور انتقالي نحو الاستقلال لعرب أفريقيا الشمالية ؟

واذا نظرنا الى جيران الدول العربية نجد أن الشعور القومي خلق دولاً مستقلة في تركيا وايران وأفغانستان ، ولاشك أن الشعور القومي في كل من هذه الدول قوة دينامية هائلة ، وهذه القوة كفيلة بمقاومة أى خطر يتعرض له استقلالها في المستقبل . غير أن ميثاق سعد أباد الذي انضمت اليه تركيا وايران والعراق وأفغانستان سنة ١٩٣٧ ، والمعاهدات العربية التي عقدها بريطانيا وغيرها سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧ مع مصر والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن كانت كلها محالفات ، ولم تهدف واحدة منها الى تكوينات اتحادية ، وفي ذلك

دلالة على انعدام تماسكها الجغرافي . ثم ان بعض الدافع الى كثير من هذه المعاهدات كان عبارة عن الخطر الذى أخذ النظام السياسى العالمى يتعرض له فى الشرق الأوسط باستيلاء موسولبنى على الحبشة . يضاف الى ذلك أن جامعة الدول العربية التى تكونت سنة ١٩٤٥ وميثاق الضمان الجماعى الذى انعقد بين هذه الدول سنة ١٩٥٠ يتتبع ايجاد تماسك يمهّد لشيء من النظام الاتحادى بين العرب . لكن الخلافات الموجودة بين بعض الدول الأعضاء لا تدل على امكان بلوغ هذا الهدف فى زمن قريب ، ومع هذا كله فالمعروف على وجه التأكيد أن القومية فى الشرق الأوسط سوف تقوم بدور هام فى السياسة الدولية عن طريق الدول العربية ، ما دامت هذه الدول تسير نحو تحقيق قوميّتها .

أما الامبريالية فهى قوة سياسية تدفع حكوماتها الى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى ، بتشديد النكير على حرية الرأى ، وتنمية السيطرة على الموارد الاقتصادية الموجودة فى ممتلكاتها ، وغير ممتلكاتها . وتتشأ الامبريالية عن دافع بشرى يدفع الفرد الى السيطرة على الغير ، وقد سرت عدوى الامبريالية فى بعض الأزمان الى الحكومات المبنية على نظريات التفوق الشخصى أو الطبقي أو الجنسى . غير أن درجة العدوى اختلفت باختلاف الحكومات ، وبحسب تاريخ حكومة دون أخرى ، وربما تكون الامبريالية متممة للقومية فى دولة من الدول ، وربما تكون نتيجة من نتائجها .

غير أن القومية فى ذاتها تقوم على أساس تعريف الفرد لنفسه ، باندماجه فى مجموعة من الأفراد الذين يتشابهون عقليا ، ويسعون لتنظيم أحوالهم فى اقليم من الأقاليم يتسع اتساعا كافيا ، للحصول على درجة عالية من الحكم الذاتى السياسى والحضارى . فاذا نشأت حركة من الحركات القومية فى احدى ممتلكات دولة كبيرة ، نهضت الامبريالية فى هذه الدولة الكبيرة الى مقاومة هذه الحركة ، للمحافظة على تكوينها ونظامها ، حتى اذا نجحت الحركة القومية فى التخلص من الامبريالية المتسلطة عليها ،

فانها تظل عادة وجها لوجه أمام هذه الامبريالية التى لا تزال تتحكم فى ممتلكاتها الباقية . ومن أجل ذلك لا تكتفى الأمة ذات الحركة القومية الناجحة بما حصلت عليه من الاستقلال ، بل تظل متأثرة بالخطر الذى يهدد بعض حدودها من ناحية الامبرياليين القدماء أو غيرهم ، وبعدم كفاية مواردها الاقتصادية أو قلة سكانها ، أو كثرتهم ولذا تسعى الدولة القومية الجديدة الى اخضاع مناطق مجاورة ، وعلى هذه الشاكلة تنتقل الى الامبريالية . غير أن هذه الفروض على صحتها لا تؤدي الى هذه النتيجة دائما الا اذا بلغت الأمة ذات الحركة القومية الناجحة مبلغ الامبرياليين فى القوة الحربية والاقتصادية ، والحضارية كذلك . ثم ان الأمم الحديثة العهد بالاستقلال تنشأ عادة بفضل مجهودات المنظمات الدولية ، وتبلغ نضجها السياسى بفضل ما تبذل من جهود فى سبيل المعرفة بأن الاشتراك السياسى والاقتصادى والثقافى ، فى هيئته أوسع حدودا وآفاقا من حدود الأمة الواحدة وآفاقها ، هو الثمن الذى تدفعه كل أمة من الأمم الكبيرة قبل الصغيرة ، لقاء الحرية فى تكوين حضارتها ومؤسساتها ومستقبل سكانها . ومن هذا يتضح أن بلوغ أية حركة قومية مبلغ الامبريالية لا يكون الا نادرا وعلى غير القياس .

ومع هذا يستطيع الباحث أن يلحظ المراحل المتعاقبة فى حياة الأمم على وجه التعميم ، وهى مرحلة الاستقلال القومى ، ومرحلة الامبريالية القومية ، ومرحلة التعاون الدولى . فأمم الشرق الأوسط هى على الأغلب فى أول مرحلة من هذه المراحل ، والأمم السوفياتية فى المرحلة الثانية ، وأمم حلف شمال الأطلنطى فى المرحلة الثالثة . على أن أمم حلف شمال الأطلنطى اجتازت مرحلة الامبريالية القومية ، بالنسبة للعلاقات التى تربط بعضها ببعض ، وهى تعمل الآن من أجل التعاون الدولى ، وتريد أن تنظم علاقاتها على قاعدة التعاون مع قوميات الشرق الناشئة .

وعلى هذا فان شعوب الشرق الأوسط لم تجابه فى كفاحها من أجل الاستقلال الوطنى امبراطورية العثمانيين وامبريالية بريطانيا وفرنسا

وايطاليا وألمانيا فقط ، بل انها تجابه الآن امبريالية روسية ، واهتماما متزايدا من ناحية الولايات المتحدة. وكانت المصالح الامبريالية لكل دولة من هذه الدول في الشرق الأوسط مختلفة ، غير أنها جميعها أدركت الأهمية الاستراتيجية والتجارية لطرق الشرق الأوسط في البر والبحر ، كما أدركت في السنين الأخيرة أهمية موارد النفط الموجودة في تلك المنطقة . وبالنظر لاعتماد بريطانيا على قوتها البحرية ، ولاهتمامها بالمرور الى الهند ، فان مصلحتها في هذه المنطقة أعظم من مصلحة جميع الدول الأخرى ، مع العلم بأن روسيا التي تمسك المضائق التركية بخناق موانئها في البحر الاسود تكاد تكون مصلحتها بالأهمية نفسها . يضاف الى ذلك أن روسيا القيصرية اضطلعت نفسها بدور الحامي للمسيحيين الأرثوذكسين في بلاد البلقان وتركيا وسوريا - وهذه مصلحة تخلت عنها الحكومة السوفياتية . وبالنظر لأن امبريالية بريطانيا ضمت عددا كبيرا من السكان المسلمين ، صادقت بريطانيا مسلمى الشرق الأوسط صداقة تقليدية ، لكنها عندما تولت الانتداب اضطلعت بدور يشوبه التناقض ، وهو دور الحامي لليهود في فلسطين . وحاولت ألمانيا بعد زيارة القيصر لدمشق سنة ١٨٩٨ أن تحل محل بريطانيا في دور الصديق الأول للمسلمين ، كما أن فرنسا بتقاليدها التي تعود الى الورا حتى تصل الى أيام الصليبيين ، وايطاليا التي اتصلت اتصالا وثيقا بالفاتيكان منذ الحرب العالمية الأولى ، حاولت كل منهما الاضطلاع بدور الحامي للكاتوليكين في الشرق ، برغم عدد المسلمين الكبير الخاضع لحكم كل منهما . واليوم ترقب كل من الدول السوفياتية التي تقودها موسكو ، والدول الديموقراطية التي تقودها واشنجطن مناورات الكتلتين في منطقة الشرق الأوسط .

وتعد المصلحة الدينية قوة كبيرة في الشرق الأوسط ، بصرف النظر عن ارتباطها بالامبريالية القومية . ذلك لأن المسلمين والنصارى واليهود وهم في مجموعهم نصف سكان العالم يولون وجوههم شطر المدن المقدسة في فلسطين والحجاز ، باعتبارها أماكن ذات أهمية تاريخية ، وقدسية واجلال يحج اليها الحجاج . وجهدت بعض المنظمات الدينية لكى تحصل لنفسها



على السيطرة على هذه المناطق ، لتؤمن الحجاج ومستعمرات المستوطنين والأماكن المقدسة . ولم يناع أحد سيطرة المسلمين على مدينتي الحجاز المقدستين — مكة والمدينة — منذ أيام محمد صلى الله عليه وسلم حتى الآن . واجتدم النزاع خلال أربعمئة سنة من العصور الوسطى بين المسيحيين والمسلمين على الأراضى المقدسة ، لكنه كان نزاعا لا طائل تحته . أما اليهود فابتهلوا منذ أيام السبي ، بالقرب من حائط المبكى الكائن فى موقع هيكل سليمان فى القدس ، من أجل عودة السيطرة لهم على هذه البقعة المقدسة ، ونجح الصهيونيون الحديثون فى تعريف معظم الساسة الأوربيين والأمريكيين بحق الشعب اليهودى فى فلسطين ، حتى ان كثيرا من الصهيونيين فسروا هذا الحق بأنه ينطوى على فرض سيطرتهم على المسلمين أصحاب الحق الفعلى فيها منذ القرن السابع الميلادى . ثم انتقلت السيطرة على فلسطين من تركيا المسلمة الى بريطانيا المسيحية ، وهى التى يوجد فى امبراطوريتها ما يكفى من الأصدقاء لكل من الجانبين للتأثير على سياستها . وينص الانتداب على فلسطين على سيطرة الدولة المنتدبة على الأماكن المقدسة ، وعلى تشكيل لجنة يصادق عليها مجلس عصبة الأمم لتعيين حقوق الطرفين . غير ان هذه اللجنة لم تتشكل ، مع ان لجنة خاصة صادق على تشكيلها ذلك المجلس قدمت تقريرا عن الادعاءات الخاصة بحائط المبكى ، ١٩٢٩ . ولم تكن الجهود البريطانية المبذولة للتوفيق بين مطالب اليهود والمسيحيين والمسلمين المتعارضة بالنسبة للسيطرة النهائية على الأراضى المقدسة ترتضيها أية جهة من هذه الجهات ، فاللجنة العربية فى فلسطين ، ومفتى القدس الأكبر ، وجمعية فادليومى التى تنظم شأن اليهود فى فلسطين ، والمؤتمر الصهيونى العالمى ، وبطريك اللاتين فى القدس ، والمستعمرين المسيحيين فى فلسطين — كانوا كلهم ينتقدون الإدارة البريطانية فى فلسطين .

ثم أدى طلب الصهيونيين بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بتأسيس دولة مستقلة لهم ، ومقاومة جامعة الدول العربية المؤسسة حديثا لذلك الطلب ، الى حصول توتر شديد والى عرض القضية على هيئة الأمم

المتحدة وتوصية مجلسها العام في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة اسرائيل اليهودية . ثم تخلت بريطانيا عن الانتداب ، وعدل مجلس الأمن تنفيذ قرار المجلس بالقوة ، فأدى ذلك الى وقوع حرب سافرة نتجت عن فوز اسرائيل التي اعترف بها بصورة عامة عضوا في هيئة الأمم المتحدة .

## ٢- اتجاهات الرأى العالمى

ليست هناك معلومات يمكن بواسطتها اجراء تقدير دقيق للتأثير الذى تحدثه اتجاهات الرأى العام فى الشرق الأوسط حاليا . ولما كانت اتجاهات الرأى العالمى تعتمد على آراءدولية تتعرض للتبدل والتغير السريع بواسطة التعليم والدعاية ، فان المحاولات التى تبذل لتطبيق هذا التقدير على المستقبل لا بد أن تتعرض لمقدار كبير من الخطأ .

غير انه من المعقول مثلا ان المواصلات الداخلية بين بلدان الشرق الأوسط نفسها ، والمواصلات بينها وسائر أنحاء العالم سوف تزداد ، وان ذلك سوف يصحبه ازدياد فى تأثير الاتجاهات العالمية السائدة فى العالم على بلاد الشرق الأوسط . والمعروف ان الحضارة العالمية منذ عهد النهضة الأوربية اتجهت نحو الاعتراف بحرية الفرد فى اختيار الديانة التى يعتنقها ، والثقافة التى يتخذها لنفسه ، ونحو التسليم بالمساواة المعنوية بين البشر ، مع تخطئة المزاغم القائلة بالتفوق الفطرى لأى طبقة أو صنف أو عنصر أو قومية . واتجهت الحضارة العالمية كذلك نحو التسليم بأن الطريقة العلمية هى السبيل الى المعرفة ، وان هذه الطريقة هى التى تضمن الفائدة الاقتصادية ، لأنها تضمنى على تقاسيم العمل الوظيفى والجغرافى والتبادل المهنى أوسع معانيه الروحية والجغرافية . والفضل فى استقرار هذه القواعد يرجع الى التسليم بنسبة الانسانية الى الحضارة والتاريخ ، وبالفائدة الاقتصادية من الوجود المشترك لعدة قوميات مختلفة تتصل بعضها ببعض اتصالا معتدلا .

غير ان القوميات الحديثة أوذيت فى بعض الأزمان والأماكن بسبب الاضطهادات والاضخاع بالاكراه ، وقمع الأفكار والحكم المطلق ،

والمقترحات الاستعمارية والديكتاتورية . ومع هذا لم تكن هذه المعاصر اتجاهات الرأى العام عن السير نحو الحرية والانسانية. وفي الشرق الأوسط قامت سابقا عدة عقبات فى سبيل أشباه هذه الاتجاهات ، مثل الحزابات الدينية ، وقلة المسؤولية الجماعية تجاه الاعتداءات الخارجية ، وبقايا الاقطاع ، وانعدام الزعامة التى تحمل روحية الشعور بالمصلحة العامة ، والتأخر الموجود فى التطور الاقتصادى والرأى العام والادارة المدنية . على أن الاتجاهات العالمية نحو الحرية والانسانية اذا استمر وجودها سوف تجعل الدين شأننا من شؤون الوجدان الفردى ، لا قوة من القوى السياسية التى لها المقام الأول . وسيزداد تسليم القانون باستقلال الفرد ومسؤوليته ، ويعظم شأن الشعور القومى باعتباره قوة سياسية ذات أثر فعال بين سكان البلاد الذين تجمع بينهم صفات حضارية وجغرافية واضحة ، ثم ان استخدام العلم فى الشؤون الاقتصادية سيزداد ، فيعمل على انتشار التجارة الدولية والتخفيف من غلواء القومية . وستتضاءل الامبريالية ، الاستعمارية فتفسح المجال للحكومات القومية كى تكون مسؤولة عن الأمن والنظام محليا ، كما تفسح للمؤسسات الدولية لتصبح مسؤولة عن تسوية الخلافات الدولية وتنظيم التجارة العالمية . ومن الواضح أن السبيل الى هذا وذاك ينحصر فى تقوية هيئة الأمم المتحدة وسياستها المتمشية مع اتجاه المدنية العالمية .

### ٣ - المؤسسات الدولية

العالم السياسى والقانونى يسير اليوم فى دور الانتقال ، فمنذ عهد النهضة الأوروبية ، وخاصة منذ معاهدة وستفاليا ، أضحي القانون الدولى يؤكد سياسة الدولة الاقليمية ، ويحدد اتجاهات الدول التوسعية ، وترك المحافظنة على النظام القائم الى طبيعة توازن القوى . وظلت هذه الأفكار ذات أهمية كبيرة منذ القرن السادس عشر ، ، حين تألفت من الطبقة الارستقراطية وطبقة رجال الدين طبقات دولية ذات شأن يلتزم أعضاؤها بعض المقاييس الدولية المصطلح عليها بينهم . وفى القرنين السابع

عشر والثامن عشر كون التجار طبقة دولية خاصة ، بعيدة نوعا ما عن الشؤون السياسية ، وبنوا لأنفسهم نفوذا للمحافظة على مقاييس دولية معينة لحماية التجارة . ثم تغيرت معايير هذه الطبقات الاقتصادية وخاصة في القرن التاسع عشر ، ودخلت دول جديدة ذوات تقاليد حضارية مختلفة في أسرة الأمم ، وانحط شأن التأثير الأخلاقي الذي دعم النظام الدولي ، وأصبح التوازن المادي وحده أساسا للقانون الدولي .

وعلى الرغم من رداءة المواصلات وشؤون النقل والاقتصاديات في القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع المجتمع الأوروبي ، برغم عدم انتظامه النسبي والانشقاق الذي ولدته الحروب ، أن يحافظ على احترام كاف للمقاييس الدولية القانونية والأخلاقية ، وأن ينشر الاعتقاد بأن أوروبا مجتمع يسير قدما نحو التكوين الذاتي . واستمر القانون الدولي في القرن التاسع عشر على القيام بواجبه حتى بعد وقوع الثورة الصناعية، وانتشار الطبقات الدولية السابقة في الشرق . ومن الأمثلة على ذلك أن بريطانيا استطاعت بقوتها البحرية ونفوذها المالي أن تسيطر على حرية البحار لتجارتها ، وأن تخفف من غلواء الحواجز التجارية ، وتمنع غيرها من الاستيلاء المفرط على ما وراء البحار ، ثم تدعم توازن القوى في أوروبا . غير أنه ثبت في القرن العشرين أن هذا النظام لا يفي بالمرام ، لأن اختراع الغواصة والطيارة ، وتصنيع الولايات المتحدة وألمانيا واليابان حطم قدرة بريطانيا على تنظيم شؤون العالم حسب مشيئتها . يضاف الى ذلك أن ازدياد السيطرة الديمقراطية على العلاقات الخارجية زاد في تأثير المصالح الداخلية على سياسة الدول الخارجية ، فجعل توازن القوى أقل استقرارا ، كما أن نمو المبادئ الاشتراكية أواخر القرن التاسع عشر ، وازدياد نفوذ العمال غير الملمين بقواعد علم الاقتصاد ، أدى الى اشتداد الضغط القديم لحماية التجارة . وتنتج عن ذلك أن ازدادت الحواجز التجارية على الحدود الوطنية ، وتضعف صرح العالم السياسى ، وازدادت المخاوف من الحرب وحالة الحصار ، وأخذت الدول تركز اقتصادها

الوطني للاستعداد الحربى ، وعلى هذه الشاكلة تعثر الاقتصاد العالمى فى تأدية واجبه ، وأخذت كل أمة تكثر من اعتمادها على خطة مرسومة للتجارة العالمية ، من أجل المحافظة على مستوى معيشتها . وامتد ذلك الفساد فى النظام السياسى العالمى ، واندفاع العالم نحو أتون الحرب المستعرة .

ثم أدرك الساسة فى المدة التى وقعت فيها الحرب العالمية الأولى خطورة هذا الوضع ، وخاصة وذرؤو ويلسن ، فاقترح تعديل القانون الدولى فى اتجاهات أربعة ، أولها حفظ سيادة الدول مع الحد من هذه السيادة ، وتقييد حقها المطلق فى شن الحروب والبقاء على الحياد . وثانيها تقييد الحق المطلق فى حكم كل دولة من الداخل لرعاياها داخل بلادها ، بمعاهدات الأقليات ومؤسسة العمل الدولى وسائر المؤسسات الدولية والانسانية . وثالثها تقييد الحق المطلق للدولة الاستعمارية فى حكم المستعمرات ، بقواعد نظام الاتداب ، وبالاتفاقات المختصة بالرقيق وتجارته ، وسائر الاستعمالات التى تنزل بالشعوب المتأخرة . ورابعها تقييد التجارة الدولية ، وتجارة الترانسيت . واشتمل ميثاق عصبة الأمم ، كما اشتملت اتفاقية باريس على هذه التعديلات التى وضعت موضع التنفيذ عن طريق عدد من المؤثرات الدولية الاقتصادية .

ولوضع الأسس السياسية لهذه التعديلات تقرر أن تحل عصبة الأمم محل التوازن الدولى المرتكز الى المحالفات والمؤتمرات السياسية والسيطرة البحرية البريطانية . فتقوم العصبة بتنظيم العمل الجماعى ضد الاعتداء، وفرض التسويات للمنازعات الدولية، وتسهيل المداولة المستمرة بين الدول لتعزيز التوازن السياسى ، وخلق رأى عالمى عن طريق اجراء مباحثات بين حين وآخر بين ممثلى الأمم فى مجلس عالمى . وأدركت دول العصبة أهمية القوانين الجديدة التى شرعتها ضد الحرب واضطهاد الأقليات ، والامبريالية والجواجز التجارية . لكن الدول التى أخذت تولى وجهها شطر الأمن الجماعى ، واحترام حقوق الانسان ، واستقلال

الشعوب، والتجارة الحرة، أحست بأن القوانين الجديدة شديدة التحديد، ضيقة المجال، غير وافية بالمرام، وإن الساسة والرأى العام فى معظم الدول الكبرى ما يزالون يفكرون بعقلية القوانين القديمة. وتتج عن ذلك ان عادت أمريكا الى عزلتها القديمة، وعادت الدول الى مزاوله أساليبها البالية، والسير على مقتضى الرجعية، فكانت النتيجة وقوع حرب عالمية ثانية. ثم أدت هذه الحرب الى محاولة تنظيم الشؤون العالمية بميثاق الأطلاتنى ( ١٩٤١ ) أولا، وباعلان تأسيس هيئة الأمم المتحدة ( ١٩٤٢ )، ثم بميثاق الأمم المتحدة ( ١٩٤٥ ).

وبرغم الفشل الذى منيت به مبادئ عصبة الأمم قبيل الحرب العالمية الثانية، فمما لا شك فيه ان ما حدث بفضل هذه المبادئ فى المدة الواقعة بين الحربين العالميتين لم يخل من فائدة، برهان ذلك فى الشرق الأوسط أن نظام الانتداب ساعد العراق على أن يصبح دولة مستقلة. على أن هذا النظام كان أقل نجاحا فى سوريا ولبنان، لأن سياسة فرنسا عملت على المحافظة على وضعها الاستعمارى القديم فى مناطق انتدابها، وهذا على حين أخذ الرأى العام فى كل من سوريا ولبنان يسير مسرعا فى الطريق التى سار فيها العراق. ففى سنة ١٩٣٦ امتنع البرلمان الفرنسى عن المصادقة على معاهدتى التحرر المنعقدتين مع سوريا ولبنان، وفى سنة ١٩٣٩ خالفت الحكومة الفرنسية شروط انتدابها بتنازلها عن الاسكندرونة الى تركيا. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، فلم تلبث سوريا ولبنان أن أصبحتا دولتين مستقلتين، ولم يلبث استقلال هاتين الدولتين ان اعترفت به جميع الدول، قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، ثم أصبحتا عضوين فى هيئة الأمم المتحدة.

وتطلب الانتداب على فلسطين من الدولة المنتدبة أن تمهد للحكم الذاتى وحصول البلاد على الاستقلال فى النهاية، كما جرى لسائر بلاد الشرق الأوسط التى خضعت للانتداب، على أن تساعد الدولة المنتدبة فى تكوين وطن قومى لليهود، مع اعتبار ما يستحقه سائر السكان المحليين

من حقوق مدنية ودينية ، وما يلزم من الوسائل لحماية الأماكن المقدسة . غير ان العرب الذين احتجوا على فصل فلسطين عن سوريا ، لأنها كانتا وحدة ادارية في ظل الحكم التركي ، أصروا على ان الانتداب لا يمكن أن يتحقق الا بتأسيس حكومة عربية في البلاد ، وهذا على حين اعتقد الصهيونيون بأن الانتداب يسمح بتكوين دولة يهودية . وقال آخرون ان شروط احترام الأماكن المقدسة تحول دون حصول هاتين النتيجتين ، وازاء هذه المتناقضات اتهمت الادارة البريطانية في فلسطين سياسة انتهازية ، فوقعت عدة حوادث عنيفة ، وشب الوطن القومي اليهودي ، وبتأثير الضائقات التي حصلت في الثلاثينات السابقة للحرب العالمية الثانية ازداد التوتر ، وأخذت بريطانيا تتراوح بين محاولة التوفيق بين العرب واليهود ، أو تقسيم البلاد بين الطرفين ، أو تكوين دولة يكون فيها اليهود أقلية دائمة .

وأثارت الناحية القانونية من مشكلة فلسطين عدة أسئلة وهي : أولا هل كانت سوريا في الوعود البريطانية المعطاة للعرب تشتمل على فلسطين أيضا ؟ هل كان يقصد بالوطن القومي لليهود أن تكون فلسطين كلها وطنا قوميا لهم ؟ هل كانت الحقوق المدنية والدينية الموعودة للعرب تشتمل على الحقوق السياسية أيضا ؟ هل كان امتياز الهجرة اليهودية الى فلسطين ينص على قيود تقتضيها اعتبارات النظام السياسي في البلاد ، أو انه كان مرتبطا بالقيود التي تقتضيها قابلية البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين ؟ أما البريطانيون فصرحوا بأنهم لم يعنوا فلسطين مطلقا في وعودهم المعطاة الى العرب ، وانهم لم يعدوا اليهود قط بدولة قومية في فلسطين ، وان الحقوق المدنية والدينية تشتمل أيضا على الحقوق السياسية الضرورية لتأمينها .

والسؤال الخاص بالهجرة يضع المشكلة أمام الأنظار وضعا عمليا ، اذ أصرت السياسة البريطانية المعبر عنها في الكتاب الأبيض ، المنشور سنة ١٩٣٩ ، على ان الاعتبارات السياسية يجب أن تؤثر في الخطة الموضوعة

للهجرة ، وان واجب المحافظة على النظام في البلاد لا يسمح باتخاذ سياسة تؤدي الى أن تتجاوز نسبة اليهود في البلاد ثلث عدد السكان الموجودين في البلاد ، وهى نسبة كانت موجودة تقريبا في ذلك الوقت . ثم ان هجرة شعب أجنبي الى منطقة مسكونة تسبب حدوث اضطرابات سياسية ، عندما تتجاوز تلك الهجرة مقدارا معيناً من الناس . ومع هذا يمكننا أن نشك فيما اذا كان التحديد القاطع لنسبة اليهود بثلث مجموع السكان متفقاً عليه ، اذ المعروف ان كلا من اللجان البريطانية واليهودية قدرت العدد الممكن استيعابه تقديراً مختلفاً. ومثال ذلك أن بعض الصهيونيين يعتقد بأن مليونين آخرين من اليهود يمكن اسكانهم في فلسطين، وهذا على الرغم من ان فلسطين وحدها لا يمكنها أن تحل مشكلة اضطهاد اليهود ، وان معظم اليهود يجب أن يعيشوا على الدوام خارج تلك البقعة الضيقة .

الحقيقة هى ان نظام حماية الأقليات الذى كان موضع الأمل في علاج هذه المشكلة دل على انه أقل نجاحاً من نظام الانتداب ، وهذا مع العلم بأن كلا من النظامين أعوزوه الكثير من الصراحة من جانب الدول الكبرى . يضاف الى ذلك ان نظام الأقليات كانت تنقصه لجنة فنية مثل لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم ، فكانت النتيجة ان جنح مجلس العصبة الى التأكيد على النواحي السياسية لكل قضية من قضايا الأقليات . ثم انه لا يمكن أن يقال مثلاً ان الأقليات المسيحية في العراق استفادت بشئ من العهود التى أضيفت الى شروط التحرر من الانتداب ، كما لا يمكن أن يقال ان اليهود تمتعوا بالحماية التى كانت من حقهم في دول أوروبا الوسطى المرتبطة بمعاهدات الأقليات .

على ان نظام العصبة الموضوع لتسوية المنازعات السياسية نجح في منطقة الموصل ، حيث استخدمت طريقة تعيين لجنة تحقيقية في موضع النزاع ، وأخذ فيها رأى استشارى من محكمة العدل الدولية الدائمة ، ثم استخرج الحكم النهائى من مجلس العصبة ، وكانت النتيجة ان وافقت تركيا آخر



الأمر على ضم هذه المنطقة الهامة الى العراق . ونظرت عصبة الأمم في مشاكل مشابهة ، ومنها فيما يخص الشرق الأوسط مشكلة امتياز النفط البريطاني في ايران ، ومشكلة الحدود بين العراق وايران ، ومطالبة تركيا بمنطقة الاسكندرونة ، وساعدت المؤتمرات التي انعقدت بمساعدة العصبة على تسوية مشكلتي المضائق التركية والامتيازات الأجنبية في مصر .

ومن ناحية الأمن الجماعي امتحنت عصبة الأمم امتحانا عسيرا بالهجوم الذي شنته ايطاليا على الحبشة الواقعة على حواشى الشرق الأوسط ، ولا شك ان الفشل الذي منى به نظام الأمن الجماعي ساعد كثيرا على انهيار العصبة ، ونشوب الحرب العالمية الثانية . على أن نشاط العصبة بوجه عام خلال السنوات الخمس عشرة التي سبقت هذا الامتحان ساعد على شيء من الاستقرار في الشرق الأوسط ، كما ساعد على نمو القومية العربية ، والتخفيف من غلواء المنافسات الاستعمارية ، فضلا عن تحسين شئون التجارة في الشرق الأوسط .

#### ٤ - سياسة الأمم المتحدة

تقوم سياسة هيئة الأمم المتحدة على قاعدة تعميم مبادئ عصبة الأمم وتحقيقها عمليا. ذلك أن النصر الذي أحرزته الأمم المتحدة في الحرب مهدها السير في طريق عملي ، كما أضافت الخبرة التي حصلت عليها الدول في عصبة الأمم الى مقدرتها الدبلوماسية على اختيار الأساليب الكفيلة بالنجاح . على أن الانشقاق الحاصل بين روسيا والدول الغربية على أثر الانتصار المشترك كان شيئا أكيدا ، كما ان انقلاب هذا الانشقاق الى حرب باردة بعد ١٩٤٧ أضرب كثيرا بقدرة المنظمات التي تأسست بموجب ميثاق هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٥ . وتنحصر غايات الميثاق فيما يلي : ( ١ ) المحافظة على السلم الدولي ، وتوطيد دعائم الأمن عن طريق العمل الجماعي الذي يستهدف منع الاعتداء والحيولة دون وقوعه ، وحسم المنازعات الدولية بالطرق السلمية ( المادة الأولى ١ - ٣٣ - ٥٤ ) . ( ٢ ) اعطاء الشعوب المستقلة حقوقا متساوية وحكما ذاتيا ، لتبادر الى ترويج التقدم السياسى

والاقتصادي ، والاجتماعي ، والتعليمي ، لتلك الشعوب وتمتعها بالحكم الذاتي أو الاستقلال في النهاية ( المادة الأولى ٢ — ٧٣ — ٨٥ ) . ( ٣ ) . احترام حقوق الانسان والحريات الأساسية للجميع ، دون تفرق بين عنصر أو جنس أو لغة أو دين ( المادة الأولى ٣ — ٥٥ — ٥٦ ) . ( ٤ ) تحقيق التعاون الدولي لرفع مستويات المعيشة ، وتهيئة الأحوال المناسبة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وحل المشاكل الدولية الاقتصادية ، والاجتماعية ، والحضارية ، والتعليمية ( المادة الأولى ٣ — ٥٥ — ٦٠ ) . وبدأت الأمم المتحدة في تحقيق هذه الغايات جميعها بدرجات مختلفة من النجاح في بلاد الشرق الأوسط .

وللمحافظة على السلم والأمن تدخلت الأمم المتحدة في الاشتباكات التي وقعت بين الدول العربية واسرائيل ، ونجحت في عقد الهدنة التي تدخل فيها وسيط الأمم المتحدة بين اسرائيل والدول العربية لوقف القتال ، لكنها لم تحقق السلم في فلسطين . وسعت هيئة الأمم المتحدة في حسم النزاع الناشب بين بريطانيا ويران بشأن تأمين شركة النفط الانجلوإيرانية ، وبين بريطانيا ومصر بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، وبين فرنسا ومحميات شمال أفريقيا ، ولكنها لم تحسم واحدة من هذه المشاكل ، مع ان محكمة العدل الدولية اعترفت بأهلية ايران لتأمين الشركة ، على أن تلتزم ايران بدفع التعويضات المطلوبة ، كما أن مصر ألغت المعاهدة المختلف بشأنها .

ومن الواضح ان عزم هذه الشعوب على الاستقلال هو محور هذه الاختلافات ، فتمكنت كل من مصر وايران من تحرير نفسها من القيود المفروضة عليها ، وحظيت تونس ومراكش بسماع قضيتهما في سبيل الحكم الذاتي في هيئة الأمم المتحدة ، غير انه لم تتخذ من أجل ذلك أية خطوة عملية سوى مناشدة فرنسا الاستمرار في التفاوض . على ان استقلال ليبيا تحقق عن طريق الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة ، بعد أن عجزت الدول الكبرى عن الاتفاق على وضع منهج ما لتلك البلاد .

على ان الجهود التى بذلتها هيئة الأمم المتحدة لترويج احترام حقوق الانسان كانت أقل أعمالها نجاحا ، فالمبادئ التى سجلها الميثاق باعلان حقوق الانسان اعلانا عاما صادق عليه مجلس الهيئة سنة ١٩٤٨ ، ولكن أريد بذلك تعظيم شأن الخطط الموضوعة لحماية الأقليات فى ظل عصبة الأمم وتعميمها فى العالم . غير ان معاهدات حماية الأقليات التى انعقدت أيام عصبة الأمم لم تؤد فى الواقع الى حماية الأقليات ، فالأرمن فى تركيا عانوا اضطهادات كثيرة ، كما ان اخراج الأقليات وتقتيلهم بصورة وحشية فى ألمانيا الهتلرية وروسيا الستالينية تكرر وقوعها فى الشرق الأوسط أيام وجود هيئة الأمم المتحدة . ذلك أن قيام اسرائيل أدى الى هرب ما يزيد على نصف مليون عربى من تلك الدولة والتجائهم الى البلاد العربية المجاورة ، وبذلك فرضت مشكلة اللاجئين العرب على هيئة الأمم المتحدة ، كما هاجر اليهود فى أعداد كبيرة من تركيا والعراق وأفريقيا الشمالية بالاكراه أحيانا . وقد حاولت هيئة الأمم المتحدة أن تنمى منهج حقوق الانسان عن طريق اعداد موثيق تنص على أساليب فعالة لوضع تلك الحقوق موضع التنفيذ ، غير انه برغم المجهود الجدى المبذول فى لجنة حقوق الانسان لم ينجز الا القليل فى هذا الشأن ، والحقيقة هى ان عدة دول بما فيها الولايات المتحدة تخشى أن تصطدم هذه الموثيق بتشريعاتها الداخلى .

وفى مناهجها للمساعدة الفنية سعت هيئة الأمم المتحدة والولايات المتحدة أن تدخلا أساليب جديدة فى الزراعة ، واصلاح الأراضى ، ومساعدة التقدم الصناعى ، وتحسين الحالة الصحية ، ورفع مستويات المعيشة فى بلاد الشرق الأوسط . وتعاونت فى هذا المجهود المنظمات المختصة ، ولاسيما اليونيسكو ، ومنظمة التغذية والزراعة ، ومنظمة العمل الدولى ، ومنظمة الصحة العالمية . وأصاب بعض هذه الجهود نجاحا غير يسير ، لكن مشاكل المقاومة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فضلا عن التخريبات التى سببتها الحرب فى كثير من الاصقاع ، جعلت التقدم بطيئا .

ويشجع ميثاق الأمم المتحدة تأسيس تكتلات اقليمية لأغراض سياسية

واقتصادية معا ( المواد ٥٣ - ٥٤ ) ، ثم هو يسمح بتكوين تكتلات للدفاع الجماعى . ( المادة ٥٢ ) . والمعروف أن الدول الأمريكية ، ودول الشرق الأقصى ، وبعض الدول الأوروبية الغربية ، ومجموعة الدول السوفياتية ، ورابطة الشعوب البريطانية ، أسست مؤسسات اقليمية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . ثم قامت هذه الدول كلها على تنمية هذه المؤسسات مع وجود هيئة الأمم المتحدة ؛ لكن الشرق الأوسط لم يفكر فى اقتراحات للتنظيم الاقليمى قبل الحرب العالمية الثانية ، مع ان عددا من المحالفات انعقدت بين دول تلك المنطقة خلال المدة الواقعة بين الحربين ، كما ان بريطانيا عقدت معاهدات تحالف مع العراق ( ١٩٣٠ ) ، والمملكة العربية السعودية ( ١٩٢٧ ) ، والأردن ( ١٩٢٨ ) ، ومصر ( ١٩٣٦ ) ، ولا يزال بعض هذه المعاهدات نافذ المفعول اسما . ثم تأسست جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، وأتمت معاهدة الضمان الجماعى سنة ١٩٥٠ ، وهى تقوم بعملها فى ظل هيئة الأمم المتحدة ، وهى أكثر منظمات الشرق الأوسط شمولاً منذ زوال الامبراطورية العثمانية .

ويتطلب النظام العالمى تدبير شؤون الشرق الأوسط بحزم فائق ومساعدة مستمرة من ناحية المؤسسات العالمية ، على غرار ما هو مطلوب فى منطقتى البحر الكاريبى وبحر الصين الجنوبية . وفى استطاعة المؤسسات العالمية أن تمهد السبيل لتقوم الدول الوطنية والمنظمات القومية ، كجامعة الدول العربية ، بتوسيع أفق الشؤون الاقتصادية . وبذلك يروج استتباب الأمن السياسى والتقدم الاجتماعى ، ويقل انجذاب الخصومات الامبريالية نحو هذه المنطقة الهامة التى بقيت ضعيفة حتى الآن . ثم ان التنظيم الدولى الذى يؤمن حقوق الملاحة الحرة فى الطرق المائية الموجودة فى الشرق الأوسط سوف يلطف من خشية الأمم من الاختناق التجارى ، ويعمل على استقرار العالم .

غير ان هذا الاستعراض لقوى القومية والامبريالية والدين والسياسات التى كانت تدفع دول العالم بتأييد من رأى العام ومؤسسات

عصبة الأمم المتحدة — لا يعطى أى دليل يشير الى المستقبل الذى ينتظر هذه البقعة من العالم . وأهم العوامل الحاضرة جميعها هو الحرب الباردة التى تتطلب من الدول المختلفة أن تجنح نحو احدى الكتلتين ، أى الكتلة السوفياتية التى تسيطر عليها روسيا ، وكتلة شمال الاطلانتى التى تسيطر عليها الولايات المتحدة . والشرق الأوسط منطقة ذات أهمية رئيسية فى هذا التخاصم ، كما كانت فى النزاع السابق الذى احتدم بين دول المحور والأمم المتحالفة .

وكانت ميول هذه المنطقة متجهة نحو الغرب ، لأن سياسة ترومان التى أعلنتها الولايات المتحدة فى مارس ١٩٤٧ ، شملت المساعدة العسكرية والاقتصادية لليونان وتركيا وإيران ، ونصت فى الحقيقة على ان سياسة الولايات المتحدة ترمى الى تأييد الشعوب الحرة التى تقاوم الاخضاع بالاكراه أو بالضغط الخارجى . والمعروف ان الوضع الجغرافى الإيرانى عرضة للطوارئ على الرغم من المساعدة الأمريكية ، لأن إيران تشترك مع الاتحاد السوفياتى فى الحدود ، كما ان حزب توده الموجود فيها حزب قوى يصطبغ بالصبغة الشيوعية . ثم أن إيران جابهت قلاقل محلية خطيرة ، وبقي خلافها متزيدا بالنظر لايقاف العمل فى شركة النفط الانجلو إيرانية ، وبقي خلافها مع بريطانيا بشأن تعويض هذه الشركة غير محسوم . وكذلك وضع البلاد العربية غير معلوم ، على انه من المفيد للغرب ان العراق والمملكة العربية السعودية وبلادا عربية أخرى تستفيد من الأرباح التى تدفعها لها شركات النفط الغربية . وحصلت ليبيا على استقلالها عن طريق هيئة الأمم المتحدة ، وانتفعت معظم البلاد العربية من مساعدة الغرب الفنية ، وتوظيف الأموال الغربية ، ومن تعلم أبنائها فى الغرب . ثم ان مبدأ الكرامة والمساواة بين البشر ، واحترام الدين ، مما يمتاز به العالم الاسلامى ، من شأنه أن يجذب الشرق الأوسط الى الغرب ، لا الى الدول السوفياتية . ومما يلفت النظر أن نذكر بأن أهم مناقشة بحثت فيها مبادئ المعسكرين الديموقراطى والشيوعى جرت فى جلسة من جلسات اليونسكو ، وكان يدافع فيها عن الجانب الديموقراطى شارل مالك من لبنان ، وعن الجانب

الشيوعى رينكار من يوغوسلافيا ، وكلا البلدين منضم الى الغرب فى الوقت الحاضر .

غير ان استياء البلاد العربية من تأييد اسرائيل فى هيئة الأمم المتحدة ، وخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، أضحت مشكلة من المشاكل الدولية . ذلك أن استقلال تلك الدولة على غير رغبات أكثرية سكان فلسطين الأصليين ، ومخالفة ذلك لما جاء فى شروط ميثاق الأمم المتحدة التى ضمنت حقوق الشعوب ، أساء الى الشعوب العربية أساءة غير معرفة النتائج والمستقبل . ولم تسترجع الدول العربية ثقتها بعد ما أصابها من الاندحار فى حرب اسرائيل ، ثم انها تخشى أن تتكون فى اسرائيل اتجاهات توسعية نتيجة ازدياد السكان ، ولا يزال يساورها القزع بسبب تشتت شمل اللاجئين من فلسطين ، مع العلم بأنها لا تستطيع أن تعمل الاقليلا على تحسين الحالة . والشرق الأوسط مشتمز أيضا من ضخامة حصة اسرائيل من المساعدة الفنية التى قدمتها الولايات المتحدة وهيئة الأمم المتحدة ، بالقياس الى الحصة التى أصابت الدول العربية ، برغم كثرة عدد سكانها . يضاف الى ذلك ان سير الخلاف الناشب بين بريطانيا ومصر وايران ، وخلاف فرنسا مع تونس ومراكش ، يعتبرهما العرب دليلا على دوام الامبريالية التى قاوموها ردحا طويلا من الزمن . ثم ان تردد الولايات المتحدة والدول الغربية فى تأييد قضايا الاستقلال ، فى هيئة الأمم المتحدة ، يقارن مقارنة سيئة بموقف السوفيات فى هذا الشأن . وأخيرا فان وجود الفلاحين العرب بمستوى معيشى وثقافى منخفض يخلق حالة اجتماعية من النوع الذى تستفيد منه الدعاية الشيوعية بوجه عام .

وتدل المعارضة الشديدة التى تبذلها مصر وسائر الدول العربية ضد مشروع قيادة الشرق الأوسط التى اقترحتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وتركيا فى ١٩٥١ ، للدفاع ضد الاعتداء السوفياتى ، على ان مجموعة الدول العربية غير مستعدة للانحياز الى جانب الغرب . والظاهر ان هذا الموقف متأثر بما تذكره الدول العربية من

مركز تموين الشرق الأوسط الذى سيطرت بريطانيا بواسطته على العرب سيطرة اقتصادية أثناء الحرب . ويبدو كذلك ان مجموعة الدول العربية تتوجس خيفة من ان يؤدي استخدام القواعد الجوية البريطانية التى تؤسس فى المنطقة كلها ، والتى يمكن أن تستخدمها أمريكا أيضا ، الى التدخل فى الشؤون المحلية . وانزعجت مصر على الأخص من تقصير الدول الأربع فى عدم استشارتها قبل التقدم بمشروع قيادة الشرق الأوسط، ومن علاقة المشروع بالاقتراح البريطانى الذى لا يرضى مصر بشأن السويس والسودان وسائر شؤون معاهدة ١٩٣٦ . ولذا رفضت مصر المشروع رفضا قاطعا ، وفسخت المعاهدة ، ثم بادرت الدول العربية بقيادة مصر الى تعزيز منظمة الضمان الجماعى ، وربما قصد بذلك اتخاذ تدابير وقائية ضد اسرائيل ، لا ضد الاتحاد السوفياتى .

ولا شك أن الدول العربية ستحاول ، هى وفنلندا والسويد والهند وبورما والهند الصينية ، أن تتحاشى توريط نفسها مع أحد الجانبين فى الحرب الباردة ، كما انها ستحاول أيضا تقوية حضارتها ، وقابليتها فى الدفاع ، واستقلالها السياسى فى نطاق جامعة الدول العربية لدول الشرق الأوسط ، وهيئة الأمم المتحدة لسائر الدول المذكورة هنا . غير أن نجاح دول الشرق الأوسط فى مثل هذه الحيادية يبقى شيئا مشكلا بسبب ما للشرق الأوسط من أهميات استراتيجية واقتصادية عظيمة .

والذى يبدو ان مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ان لم يكن المشرفون عليه انصرفوا كلية عن التفكير فيه ، فانهم أطرحوه ، وأعلنوا سنة ١٩٥٢ عن منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التى تنتظم الدول الأربع صاحبة المشروع الذى رفضته مصر ، مضافا اليه استراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا ، على أن يكون مقر قيادة الشرق الأوسط جزيرة قبرص ، وهى احدى الممتلكات البريطانية منذ سنة ١٨٧٨ .

جعفر خياط

# تطبيق مشاريع التنسى فى الشرق الأوسط

تألف  
فيلكس بوشنسكى ووليم دياموند

ترجمة  
جعفر خياط





## كلمة المحرر

الحوادث التى وقعت خلال السنين الثلاث التى مضت على كتابة هذا المقال لم تؤثر فى الأسس التى عالج بها المؤلفان هذا الموضوع . غير ان عدة مشاريع طرأ عليها بعض التعديلات ، والغرض من الملحوظات الموجزة التالية أن يصبح المقال شاملا لأحدث التطورات التعميرية فى هذا المجال .

ففى حوض النيل تجرى دراسات فيما يسمى بخزان السد العالى الذى سوف يتكون باثشاء سد يقع على مسافة أميال جنوبى خزان سد أسوان الحالى ، وسوف تكون لهذا الخزان سعة هائلة للخرن، وهى ١٣٣ مليون قدم ، بحسب ما تقوله بعض المصادر ، كما انه سوف يضبط مياه الفيضان ، وينظم رى المزروعات ، فضلا عن خزن القوة المائية . وسيقوم هذا السد مقام الخزانات الأخرى التى سبق ان وضعت تصاميمها، لكنه سوف لا يؤدى الى الاستغناء عن الحاجة لخرق قناة تحويل السد التى تجرى الآن أعمال تمهيدية أخرى من أجلها . ويتقدم الآن العمل فى سد أوين تقدما مطردا .

وفى لبنان استؤنف العمل فى مشروع الغاب للصرف والرى ، وفى مشروع استثمار حوض الليطاني . وتوصى بعض المطبوعات التى نشرت حديثا باستثمار المياه وجميع موارد القوة المائية الموجودة فى لبنان <sup>(١)</sup> على نسق مترابط الحلقات والمنافع أما فى وادى الأردن فمشاريع التعمير والاستثمار تجرى الآن بالقرب من حدود الهدنة بين الأردن واسرائيل ، والمشاريع التى أعدها للحكومة الأردنية سير مردخ ماكدونالد <sup>(٢)</sup> وهيئات

1 — Maurice Gemaye : La Planification des Eaux Libanaises, Beyrouth, 1951.

2 — Sir Murdoch MacDonald & Partners. Report on the Proposed Extension of Irrigation in the Jordan Valley. (London, 1951).

النقطة الرابعة الأمريكية مبنية في الغالب على الاستفادة من نهر يرموك قبل اتصاله بالأردن. وفيما عدا الأعمال الانشائية التي تجرى في مشروع وادي الثرثار بالعراق ، يتضمن التقدم الحاصل في شؤون التعمير اجراء بحوث وأعمال أخرى تختص بعدد مشاريع الري، وهذه هي التي سيقوم بتمويلها مجلس التعمير العراقي .

ومنذ عدة سنوات قامت الحكومة الأمريكية على مشروع وادي التنسي ، واسمه الرسمي (Tennessee Valley Authority)، وذلك لضبط واستغلال مياه الحوض النهري المعروف باسم هذا الوادي الشاسع بأواسط الولايات المتحدة الأمريكية ، للزراعة والري والصرف ، وحفظ التربة من التعرية ، وتنظيم التحريج ، وتوليد القوة الكهربائية . وصرفت حكومة الولايات المتحدة ، ولا تزال تصرف ، على هذا المشروع المتراكم الأطراف ملايين الدولارات ، وأوضحت نتائج هذه الجهود التعميرية واضحة لזائر هذه المنطقة . واستعان المؤلفان باسم هذا المشروع الحيوى وفكرته — على قول المترجم في حاشية اقتبسناها هنا — للبحث في مختلف مشاريع التعمير واستثمار المياه في الشرق الأوسط .

منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شيء ، فان معظم سكانها يعيشون من الزراعة . والأعمال الزراعية هى المهن الرئيسية وأهم موارد الدخل ، وفيما عدا النفط فى ايران وبلاد العرب ، والفحم واللجنات ومعدن الكروم فى تركيا ، وأملاح الفوسفات فى مصر ، والترابة (السمنت) فى جميع المنطقة ، ليس فى أراضى الشرق الأوسط ترسبات معدنية معروفة ذات أهمية . وبينما تكون هذه المعادن وغيرها أساسا لنشوء صناعات محلية ، فليس من المحتمل أن يشهد الشرق الأوسط يوما ما تقدما دوليا فى ميدان الصناعة ، عدا الصناعات التى تختص باستخراج المنتوجات المختلفة من السلع الزراعية ، أى المواد الزراعية والمنسوجات معا . ومما لا ريب فيه أن نمو هذه الصناعات المحلية متوقف على رفع مستوى المعيشة فى الشرق الأوسط ، على أن يتمشى هذا النمو مع تحسين فى شئون الزراعة والتوسع فى الانتاج الزراعى . والواقع ان الضغط المتزايد على الأرض ، بسبب النمو السريع فى عدد النفوس فى منطقة لا يتعدى فيها النظام الزراعى انتاج المحاصيل لسد مستويات الكفاف ، يجعل للزراعة أهمية فى المقام الأول ، ويجعل الحاجة لتقدمها شيئا مستعجلا .

على أن هناك عوامل شتى تحول دون تحسين الزراعة وتوسيعها فى الشرق الأوسط ، ومن هذه عوامل أساسية فى التربة والجو وبعض هذه الصعوبات لا ينبغى أن يستعصى على جهود الشرقيين. غير أن أشد هذه الصعوبات وأكثرها استعصاء هو انعدام وجود الماء ، ففىما عدا أجزاء معينة من تركيا ومرتفعات بلاد الحبشة وجنوب السودان وسواحل بحر قزوين فى ايران ، يعد الماء العامل الرئيسى الذى يقيد الامكانيات الانسانية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . فاذا بدا الماء وافرا كما هى الحال فى الأراضى التى تخرقها الأنهر الكبيرة ، فليس هناك فضلة كبيرة من هذه المياه تزيد عن الحاجة الحالية ، بحيث تكون كافية لسد حاجة

الزيادات السكانية التى سوف يتأكد حصولها فى النصف التالى من هذا القرن العشرين . (١) وفى الكتاب الذى عنوانه علوم الشرق الأوسط صور المؤلف وردنجتون هذه الحال تصويرا واضحا فى قوله انه يوجد فى الشرق الأوسط موردان جوفيان ، لهما أهمية عظيمة هما الماء والنفط ، وللماء المرتبة الأولى فى الأهمية . (٢) وبرهن وردنجتون ببراعة على أهمية الماء للفرد ، فى مؤتمر يضم الخبراء الزراعيين فى المنطقة . بالقول ان حوادث القتل التى تقع فى الشرق الأوسط بسبب الماء تكاد تبلغ فى عددها حوادث القتل الواقعة بسبب المرأة ، وهو قول فيه شئ كثير من الصحة . (٣) وعلى هذا يصح أن يقال ان الماء وليس النفط هو الذهب السائل فى الشرق الأوسط .

ولا غرو فالشرق الأوسط منطقة جافة توجد فيها بواد شاسعة يقل فيها المطر سنويا حتى يصل الصفر ، وهى تتصف بوجه عام بموسم جاف طويل ، وموسم قصير يسقط فيه المطر بكمية غير كافية للزراعة المجدية . ولذلك فإن ٤٪ فقط من أراضي الشرق الأوسط بأجمعه تخضع للزراعة (٤) على حين ينتشر السكان فى المنطقة كلها انتشارا مشتتا ، لكنهم يحتشدون حول الآبار وفى الوديان ، وبالقرب من الأنهر التى تستنزف المياه الجوفية ، أو تنصرف إليها مياه المرتفعات التى تغذيها الأمطار ، وهى مرتفعات واقعة فى حواشى منطقة الشرق الأوسط . وينتج عن ذلك ان أجزاء من الشرق الأوسط تعاني ازدحاما خطيرا فى السكان ، على حين تكون مسافات شاسعة من الأراضي الخصبة — ومن البادية — غير مأهولة . والحقيقة

---

(١) وردنجتون : علوم الشرق الأوسط ، ص ٣٨ . ( لندن ، ١٩٤٦ ) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) مركز تموين الشرق الأوسط ، التقرير الزراعى رقم (٦) — محاضر جلسات المؤتمر المنعقد حول التقدم الزراعى فى الشرق الأوسط فى القاهرة بتاريخ ٧-١٠ فبراير / ١٩٤٤ . ( القاهرة ١٩٤٤ ) . ص ١٩٠ .

(٤) منظمة التغذية والزراعة (F.A.D.) تقرير الدورة الرابعة للمؤتمر المنعقد فى واشنطن فى ١٥-٢٩ يونية ١٩٤٨ ، واشنطن ، ١٩٤٩ .

هى انه توجد الآن فى الشرق الأوسط أراض ذات فائدة أكثر مما يمكن استغلاله والاستفادة منه ، أما لعدم وجود الأيدى العاملة أو لقلة المياه التى يمكن أن تتيسر ، وذلك بعد استخدام مياه جميع الأنهر وموارد المياه الجوفية المعروفة استخداما تاما .

ولست مشكلة المياه مشكلة جديدة فى الشرق الأوسط ، فتاريخ مصر هو قصة النيل نفسه ، والمدونات التاريخية والأثرية للشرق الأوسط كله تشير الى مدى استغلال موارد المياه والسيطرة عليها والاستفادة منها . ويرى عدد غير يسير من الخبراء ان هذه الجهود القديمة وفرت للشرق الأوسط الوسائل لاعاشة عدد أكبر من عدد السكان الذين يوجدون فيه الآن ، مع عدم حصول تبدل هام معروف فى الجو أو قلة فى كمية الأمطار الهاطلة . كما ان رأى يجمع كذلك على ان سوء استعمال الانسان للماء والأرض بقطع أشجار الغابات ، وعدم تنظيم شؤون الرعى ، وبالسماح بحصول التعرية ، وسائر اشكال الهدم والانذثار ، كل ذلك عامل فعّال فى تحويل كثير من الأصقاع الى بواد ، وفى تضاؤل المساحات المزروعة . وكانت هذه التطورات تعتبر خلال القرون الماضية جزءا من أسلوب العيش فى الشرق الأوسط ، على ان التقدم الفنى فى جهات العالم الأخرى خلال السنوات الأخيرة ، وازدياد الشعور القومى فى الشرق الأوسط بالذات ، أديا الى وجوب القيام على تحسين مستويات المعيشة فى هذه المنطقة ، وبذل الجهود البشرية للسيطرة على الماء ، واجتناب سوء الاستعمال الذى مارسه الانسان ممارسة أدت الى تقليل انتاج الشرق الأوسط . واختص هذا الموضوع بدراسة غير قليلة ، غير انه لا تزال هناك فجوات واسعة فى المعلومات الفنية الضرورية للاستفادة التامة من مياه الشرق الأوسط <sup>(١)</sup> .

ويوضح ضرورة استكمال هذه الدراسات ان موارد المياه فى الشرق

---

(١) راجع ماكتبه وردنجنجتون فى المرجع المشار اليه سابقا .

الأوسط شحيحة بالقياس الى مساحة البلاد ، وأن من هذه الموارد الشحيحة نسبيا يجب أن تستمد حاجات ما يقرب من تسعين مليونا من الناس ، وهى حاجات مختلفة متنوعة . ومن المعلوم ان استهلاك البشر والحيوانات لا يتطلب غير كميات قليلة من الماء ، ولكنه يجب أن تتضح أرجحية هذا الاستهلاك على كل شىء آخر . ثم ان استعمال الماء لرى المزروعات يأتى ثانيا فى الأهمية ، لأن معيشة ٦٠ الى ٨٥ بالمائة من السكان تأتى من الأرض <sup>(١)</sup> . ويجب أن يحفظ الماء لمعظم الأغراض الزراعية فى مستوى عال ، ثم يطلق بحسب الحاجة ، على حين يتطلب استعماله لتوليد القوة انحدارا سريعا مطردا . وعلى هذا فان ما تتطلبه الزراعة لا يتفق على الدوام مع ما يتطلبه توليد القوة ، ومتى وجد هذا الاختلاف يكون أمر توليد القوة شيئا ثانويا فى أهميته ، بالقياس الى حاجة الشرق الأوسط الى الماء <sup>(٢)</sup> . ومن حسن الحظ ان المنطقة تتوفر فيها كميات وافرة من النفط ومقادير غير يسيرة من ترسبات الفحم، وهى رخيصة الثمن فى الأحوال المؤاتية . والواجب الأساسى الرابع للماء — أى النقل — لا يتناسب مع الأحوال فى داخلية الشرق الأوسط الا قليلا ، حيث الملاحة النهرية فيما عدا نهر النيل ، والقسم الأسفل من دجلة والفرات ، شىء عديم الأهمية . وليس من المأمول أن يؤدى أى تطور معقول فى الأنهر الأخرى الى جعل الملاحة على مقياس واسع شيئا عمليا . ولذا فان مشكلة تقدير حاجات الماء ، للاستهلاك البشرى والزراعة ، وتوليد القوة ، بالقياس الى الكميات المحدودة فى الأنهر والآبار والأمطار الساقطة ، هى مشكلة أساسية بالنسبة لتعمير الشرق

(١) ذلك أن المياه التى تخزن للرى يمكن أن تصبح كذلك مصدرا للأسماك ، وهذا استعمال للماء كثيرا ما يهمل شأنه ، والواقع أن صناعة الأسماك يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة لسكان الشرق الأوسط الذين لا يستهلكون كثيرا من المواد الزلالية .

(٢) انظر ١٠ ج. مورى : بعض المشاكل الاقتصادية المحلية فى الشرق الأوسط ، فى مجلة الشؤون الدولية ، ص ٢٣٢ ( ١٩٤٧ ) ص ١٢ — « يجب أن يؤكد أن طلبات الماء المرجحة فى المنطقة هى الطلبات المتبقية للأغراض البشرية ، ولتنمية المواد الغذائية ؛ وبذا يجب أن يبقى استعمال الماء للقوة شيئا يأتى فى الدرجة الثالثة » .

الأوسط وتقدمه . ذلك أن رفاهية السكان الحاليين والحاجات المستقبلية تجعل الاستفادة من المياه المتيسرة في أقصى ما يمكن من الاقتصاد والتدبير شيئا أساسيا (١) .

استأثرت بخيال الناس في العقدين الماضيين من السنوات فكرة استثمار الأنهر بأجمعها ، فادى ذلك الى عقد آمال كبيرة على ضبط الأنهر في الشرق الأوسط ، لزيادة الانتاج والقوة الانتاجية ، وتخفيف ضغط ازدياد السكان ، باستيعاب عدد أكبر منهم ، مع تحسين الأحوال الاقتصادية بوجه عام . ولم يطلق اسم سلطة وادى التنسى على مشروع استثمارى خاص فى الولايات المتحدة فحسب ، بل أصبح رمزا لما يستطيع النهوض به لرفع مستوى المعيشة فى الشرق الأوسط كله ، بتطويع الماء واستعماله . والواقع أن مشروع وادى التنسى شرارة الآمال الجديدة ، لاستثمار الموارد الطبيعية واستغلالها فى واد نهري بأجمعه ، ولاعتبار أى نهر من الأنهار لا مقدارا من الماء يجب أن ينحصر فى مكانه ، بل جهازا عظيما لقوة كامنة نافعة يمكن تسخيرها لمجموعة كبيرة من الفوائد البشرية . (٢) ثم ان الحاجة للماء والفكرة المنطوية على مشروع وادى التنسى نشأ عليهما حافز جديد لدراسة أنهر الشرق الأوسط دراسة شاملة . ولذا يجرى الآن استقصاء عن امكانيات استثمار الأنهار وأحواضها ، للسيطرة على الفيضانات ، وتوسيع المساحة المزروعة بالرى ، وتوليد القوة الكهربائية من مساقط المياه . ولا تزال دراسة استغلال الأرض فى أول أدوارها ، وهى دراسة يجب أن تسير جنبا الى جنب مع بحوث ضبط المياه والسيطرة عليها لاستثمار الكهرباء ، لكن بداية ما حصلت فعلا .

ومما تجدر الاشارة اليه ، فضلا عن المشاريع التى تمت والثى

---

(١) راجع تقرير منظمة التغذية والزراعة المشار اليه هنا سابقا ، ص ١٥ .  
(٢) راجع كتاب الغذاء والمجاعة ، للكاتبه ورد سيرد فى الفصل الذى عنوانه تحدى التعرية . ( نيويورك ، ١٩٤٠ ) . وأضحى مشروع وادى التنسى نموذجا للشرق الأوسط عند ما تعين المستر جوردن كلاب رئيس مجلس مشروع وادى التنسى رئيسا لاحدى بعثات هيئة الأمم المتحدة فى الشرق الأوسط .



سوف تستمر دراستها ، أن هناك عقبات خطيرة تقف في طريق استثمار المياه بصورة شاملة ، بالإضافة الى العقبات الناشئة عن الأحوال الطبيعية . ومهما يكن من استطاعة الفن والعلم في تذليل العقبات بمرور الوقت بعد درسها دراسة مناسبة ، فان يبدو ان القيود التي يفرضها الانسان على نفسه بالتعاون مع الأحوال الاقتصادية القائمة تزداد رسوخا في المنطقة بسبب ذلك التعاون . ولا شك أن أشد هذه القيود وضوحا هي الحدود الوطنية التي تحجز بلاد الشرق الأوسط بعضها عن بعض ، فهناك عدد قليل من التقسيمات الطبيعية — الجيولوجية السياسية في الشرق الأوسط . والأنهر الرئيسية كلها يعود أمرها لبلدين أو أكثر من البلاد . وعلى هذا فان استثمار حوض نهري بكامله تقف في طريقه العقبات الناشئة عن الخصومات الوطنية (١) . وأكثر تأثيرا من هذه العقبة ما هنالك من النظام الاجتماعي المتأخر لقيامه على قواعد ليست من مبادئ علم الاقتصاد ، مثل نظام تملك الأرض الذي يخلد بقاء طبقة الفلاحين الفقيرة المثقلة بالديون دون أن تتيسر لها الوسائل أو الحوافز لتحسين ملكياتها الصغيرة المجزأة المهدة ، ودون أن يكون المالك الكبير المتغيب ، وهو الذي يهيمن على معظم أراضي الشرق الأوسط معنيا بالاجراءات والتدابير التي تؤدي الى تحسين حالة مستأجرى أراضيهم ، وهؤلاء يكونون أكثرية سكان الشرق الأوسط . يضاف الى ذلك أن ليست هناك في وجود الأحوال الحاضرة وسائل لتكوين رأس المال المحلي الضروري لسد تكاليف المشاريع الباهظة ، كما لا تتيسر بوجه عام رءوس الأموال الأجنبية بالطرق الاعتيادية .

ثم ان عدم وجود المعلومات الفنية والمهارة عقبة أساسية في ذلك

---

(١) اعترفت بهذه الحقيقة منظمة التغذية والزراعة في مؤتمرها الرابع ، اذ طلبت الى حكومات الشرق الأوسط أن تهتم لبعض الأنهار والنهيرات للوصول الى اتفاقيات دائمة تختص بموارد المياه ، وطلبت الى هذه الحكومات أن تتعاون في استثمار موارد المياه المشتركة واستغلالها . المرجع السابق ، ص ١٨ .

الشأن (١) . والخلاصة ان العقبات الناشئة عن هذه الحقائق ، لا المصاعب الطبيعية ، هي التي تعرقل استثمار المياه في الشرق الأوسط .

ولا يحيط البحث التالي احاطة شاملة بإمكانات استثمار المياه في الشرق الأوسط ، لأنه معنىً فقط بالمشاريع التي تشبه مشاريع وادي التنسي ، ويمكن أن تؤدي الى تهيئة الفرص للانتاج الزراعى على مقياس واسع . كما انه لا يمكن أن يكون هذا البحث كاملا في هذا المجال الضيق ، لأن امكانيات أخرى يمكن أن توجد بازدياد المعلومات عن موارد مياه الشرق الأوسط ، وبازدياد الدراسة العلمية عن طبائع أنهاره وأحوالها . وعلى هذا فالبحث التالي وصف موجز لعدد من المشاريع الكبيرة ذات الأغراض المتعددة ، لاستثمار المياه التي تكون في الوقت الحاضر موضوع البحث الجدى في الشرق الأوسط ، والتي سبق أن بدىء ببعضها من قبل .

### حوض النيل

يشمل حوض النيل مساحة تزيد على مليون ميل مربع ، ويحتوى على أجواء تفوق في تنوعها أجواء أى نهر آخر من أنهار العالم (٢) ، فهو يحتضن أوغندا وقسما من تنجانيقا والكونجوالبلجيكية ، وكنيا والحبشة ، ومعظم السودان وأراضى مصر المزروعة . لكن درجة اعتماد هذه البلاد

---

(١) راجع تفصيل هذه المشاكل العامة في كتاب السيدة دورين ويرنر وعنوانه الأرض والفقر في الشرق الأوسط ( لندن ١٩٤٨ ) ، وكتاب تطور الزراعة في الشرق الأوسط لمؤلفه ب. ل. كين ( لندن ١٩٤٦ ) ، ونشرة منظمة التغذية والزراعة المشار اليها من قبل ، ص ١٥-٢٩ . وهناك ناحية من نواحي تملك الأرض تلفت النظر ، وهى النظام المعقد لحقوق الماء الذى ينفرد به الشرق الأوسط . راجع المرجعين السابقين وما كتبه ر. ف. جارددين في كتابه الضبط المحلى لموارد المياه في الشرق الأوسط ، مع اشارة خاصة الى الناحية القانونية « ، نشرة مركز تموين الشرق الأوسط المشار اليها سابقا ، ص ١٨١-١٩٠ .

(٢) للحصول على وصف أوفى لحوض النيل راجع ما كتبه دجلاس كراى بعنوان الجغرافيا والسياسة في وادي النيل ، وهو منشور في مجلة الشرق الأوسط ، السنة الثالثة ( ١٩٤٩ ) ص ٢٦٠-٧٦ .

على النيل تختلف باختلاف مواقعها فتغزر الأمطار الهائلة في مرتفعات الحبشة حول بحيرة تانا ، ويبلغ معدلها زهاء ستين بوصة في السنة . وتسقط في البلاد المحيطة بمنطقة البحيرات التابعة لمجاري النيل الاستوائية كميات مماثلة من الأمطار ، وهذه تتوزع في شيء من التساوى على طول أيام السنة . وفي السودان تهطل الأمطار هطولا متفاوتا ، فتتناقص بالتدريج في الاتجاه الشمالى حتى تبلغ في الخرطوم — أى درجة العرض ١٥ — حوالى الثمانى بوصة في السنة . وفيما ما بين عطبرة والدلتا المصرية شمالا ، ينعدم هطول المطر تقريبا ، ويعتمد سكان هذه المنطقة الذين يبلغ عددهم ما يقرب من عشرين مليوناً — أو ثلثى سكان حوض النيل بأجمعه — على مياه النهر لسد حاجاتهم طول السنة . وعلى هذا فمن الطبيعى ان تعطى مصالح مصر مقدارا من الأرجحية في القرارات التى تتخذ بشأن تنظيم جريان النهر .

ومن الخطأ الشائع ان الزراعة المصرية لا تزال تتبع الأساليب القديمة البائدة ، اذ الحقيقة أن ثورة زراعية وقعت في القرن الماضى ، فأثرت في انتقاء المحاصيل للزراع ، كما أثرت في أساليب الري والعناية به . ذلك أن القطن حل محل الحبوب لدرجة ما ، ليصبح أعظم المحاصيل قيمة ، واتسعت زراعة الأرز في المساحة والأهمية الاقتصادية ، وهناك أمل في ازدياد هام في انتاج الخضروات والفواكه . والأهم من ذلك حصول الانتقال من رى الحياض الى الري المستديم ، لأن طريقة الحياض التقليدية ، التى لم تكن تسمح الا بزراعة محصول واحد في السنة ، ولم تستطع تهيئة الوسائل الكافية لمعيشة السكان المتزايدين ، استعاض عنها بنظام الري المستديم وبهذا النظام بطل انغمار الحقول بالماء ، وصار من الممكن امدادها به طوال أيام السنة ، وزراعة عدة محاصيل خلال سنة واحدة . ولايصال الماء الى الحقول يجب أن يضخ من النهر ، ولا بد من رفع مستوى التربة بواسطة القناطر . وفيما عدا هذه القناطر الكثيرة التى أنشئت على النيل وفي الدلتا ، توجد الآن خزانات ثلاثة لخزن الماء خلال موسم الفيضان السنوى ، وهى خزان أسوان

الذى يطلق عليه أحيانا عنق مصر ، والذى تبلغ سعته خمسة بلايين من الأمتار المكعبة ، وخزان جبل الأولياء وسنار اللذان برغم بنائهما داخل حدود السودان يخضعان لإدارة مصرية ، ويخزن أولهما بليونين ونصف من الأمتار المكعبة ، وثانيهما ستة أعشار البليون .

وهذه الخزانات ، فضلا عن نظام الري المستديم الذى تمّ بسببها ، جعلت من الممكن الحصول على قابلية هائلة فى الإنتاج الزراعى المصرى . وفى السكان كذلك . لكن هذه الخزانات لم تستطع دفع خطر الفيضان المفرط ، كما أنها لا تستعمل مياه النيل استعمالا كلياً . ولتسخير النيل بوجه أتم بدأت دراسات لإنشاء مرافق إضافية للخرن ، ووضعت الخطة لذلك منذ مدة من الزمن . وسيكون الغرض من الاضطلاع ببعض الأعمال الانشائية الجديدة ، مثل خزان السد العالى ، ان يزداد الاستيعاب الحالى للتخزين السنوى الذى يقوم به خزان أسوان فى مصر ، وخزان جبل الأولياء وسنار فى السودان . وإذا لم تتم هذه الأعمال الانشائية ، فيتحتّم على الخزانات القائمة فى البحيرات ، حول منابع النيل الأبيض والنيل الأزرق أن تحتفظ بالماء الزائد خلال سنوات الفيضان العالى ، لتستعمل خلال سنوات الفيضان المنخفض ، وبذا نطمئن الى الخزن المائى الطويل المدى . ولما كان تعاقب الفيضانات العالية والمنخفضة لا يمكن التكهن به ، اتخذ القرن أساسا للحساب فسمّى خزن المياه على هذه القاعدة باسم الخزن « القرنى » . وأخيرا صممت قناة تحويل السد ، لاجتناب التبذير الحالى الذى يضيع فيه مقدار ( ٥٠٪ ) من مياه النيل الأبيض ضياعا فى مستنقعات السد .

ويتألف فى الوقت الحاضر معدل النيل المائى المتيسر بين بداية شهر فبراير ونهاية شهر يوليه ، بموجب قياسه فى أسوان ، ما يزيد على ١٥ بليون متر مكعب من جرى النهر الاعتيادى ؛ يضاف الى هذه الكمية حوالى ثمانية بلايين متر مكعب من الماء المخزن فى الخزانات الثلاثة الموجودة ، غير أن مجموع هذا المعدل يقصر عن سد حاجة مصر والسودان

المنتظرة بين شهرى فبراير ويوليه ، وهى التى تبلغ زهاء ثلاثين بليون متر مكعب . ومن المؤمل أن تسد الخطة الموضوعة للنيل هذه الحاجة الاضافية ، بأن يضاف الى مجموع الثلاثة والعشرين بليون متر مكعب الحالية حوالى ثلاثة بلايين متر مكعب من خزان السد العالى ، وحوالى خمسة بلايين متر مكعب من بحيرة البرت أو بحيرة فكتوريا ، وحوالى بليونين متر مكعب من بحيرة تانا . ومن المقدّر ان خزن الماء فى البحيرات ، وفى خزان السد العالى ، سيجعل من الممكن زراعة ثلاثة ملايين فدان اضافية فى مصر والسودان . يضاف الى ذلك ان القوة التى سوف تتولد بالقرب من هذه الخزانات ، وفى أسوان كذلك ، سوف تزود البلاد بمنبع من منابع التقدم الصناعى .

والبلاد الرئيسية التى سوف تفيد من هذا المشروع هى مصر والسودان ، وسوف يستطيع كل منهما زيادة انتاجهما الزراعى زيادة غير يسيرة . أما الحبشة وكينيا وأوغندا والكونغو البلجيكية ، فيمكنها أن تفيد من انشاء محطات لتوليد القوة الكهربائية المائية على خزانات البحيرات<sup>(١)</sup> غير ان صبغة المشروع الدولية تتطلب عقد معاهدات قبل القيام بانشاء هذه المحطات ، وقد حصل شئ من التقدم فى هذا الاتجاه ، بالمفاوضات التى جرت بين بريطانيا ومصر والسودان ، وهذه تشمل على اتفاقيات حول المشاكل الفنية والمشاركة المالية . وفى سنة ١٩٤٩ جرى التوقيع على اتفاقية رسمية بين البلاد التى يعنىها الأمر بشأن سد شلالات أوين ( أوغندا ) ، ويجب أن يتم الاتفاق مع الحكومتين البلجيكية والحبشية حول المشاريع التى تمس المناطق التى تخصهما .

وسوف ينشأ خزان السد العالى فى مكان ما بين ملتقى نهر عطبرة ، وهو آخر روافد النيل ، وبين الحدود المصرية السودانية فى وادى حلفا . ويجرى النظر الآن فى موقعين ، أحدهما بالقرب من مروي ، والآخر فيما يقرب من

---

(١) بالنظر للمسافة البعيدة بين مصر وهذه الأماكن يصعب على مصر أن تستفيد من هذه القوة ، لكنها تنوى انشاء محطة للقوة الكهربائية المائية بالقرب من خزان أسوان .

شلال دال . وسوف يزيد هذا الخزان فى المعدل المائى المتيسر للرئ بين  
أوقات الفيضان ، لكنه — بذاته — سوف لا يؤمن مستقبل مصر ، لأنه  
سوف يهىء خزن المياه فى مواسم الفيضان لاستعمالها فى مواسم  
المنسوب الوطنى ، كما تفعل الخزانات الحالية ، وإذا كان الفيضان غير عال  
فى سنة استثنائية فسوف لا يتوفر الماء للخزن (٢) .

ولأجل اعداد خطة لخزن طويل الأمد ينظر الآن فى سلسلة من المشاريع  
لانشاء خزانات بحيرات أفريقيا الوسطى — فكتوريا والبرت وكيوجا —  
وعلى بحيرات تانا فى الحبشة . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٩ اتخذت خطوة  
رئيسية لانجاز بعض هذه المشاريع ، حيث أعلنت مقالة لانشاء سد  
على شلالات أوين فى مخرج بحيرة فكتوريا ، وسوف يسمح ذلك بترام  
مئى بليون متر مكعب اضافية من الماء ، وسوف يتضمن ذلك انشاء محطة  
لتوليد القوة الكهربائية . والمأمول كذلك ان تتحول بحيرة البرت الى  
خزان للخزن القرنى أو الدائم ، بانشاء سد فى نيمولى الكائنة على  
مسافة ٢٣٥ كيلو متر شمالى البحيرة داخل حدود السودان ، أو فى  
موتير الواقعة فى أوغندا ، والمنتظر أن يكون استيعاب بحيرة البرت النهائى  
١٤٥ بليون مكعب .

وفى ما عدا امكانية الخزن العظيمة لهذه البحيرات ، تتضح امكانيات  
توليد القوة الكهربائية من اختلاف الارتفاع الموجود بينها ، وهو يبلغ  
حوالى ١٧٠٠ قدم .

ثم ان انشاء مثل هذه الخزانات العظيمة يضمن نقل الماء دون ضياع  
مفرط ، لأن النيل الأبيض يفقد خمسين بالمئة من حجمه بالتبخير وتتح  
النباتات النامية فى مستنقعات السد الكائنة جنوبى نيمولى . وللحيلولة  
دون هذا الضياع ، وضعت الخطة لحفر نهر لتحويل المياه ، وأطلق عليه اسم  
ممر جوتلى ، وهو اسم القرية التى يسير فيها . وسوف يبلغ

---

(١) راجع التفصيلات فيما كتبه هرست وبلاك وسميكة فى الكتاب  
الذى عنوانه حوض النيل . وزارة الأشغال العمومية المصرية ، المجلد ٧ .  
(القاهرة ، ١٩٤٦ ) .

مقدار المياه التي يحملها حوالى ٥٥ مليون متر مكعب فى اليوم ، على حين مجرى النهر القديم قادرا على حمل حد أقصى قدره ٤٥ مليون متر مكعب من الماء ، خارج موسم الطغيان ، وهى كمية تكفى للسماح باستمرار الملاحة (١) . وهناك مشاريع بديلية تتضمن ضخ الماء من مستنقعات السد ، عوضا عن انشاء نهر لتحويل المياه .

أما مشروعا بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وكذلك ممر الجوفلى ، فهى تؤثر فى المقام الأول فى نهر النيل الأبيض الذى يستوعب حوالى سبعة مجموع المعدل المائى لنهر النيل ، وينصرف انصرافا متساويا طوال أيام السنة ؛ ومن المعلوم أن النيل الأبيض لا يستعمل فى الوقت الحاضر للرى بمقياس واسع فى السودان . وهناك تصميم لمشروع مماثل للخنز الدائم « القرنى » ينشأ فى بحيرة تانا على النيل الأزرق ، والمعروف أن النيل الأزرق يأتى منه حوالى أربعة أسباع مياه النيل ، ويأتى السبع الباقى من عطبرة ، ولذا يكون النيل الأزرق فى المقام الأول مصدرا لفيضان النيل . ولا يخدم النيل الأزرق مصر وحدها بل السودان كذلك ، وعلى الأخص مشاريع الاستثمار السودانية فى الجزيرة الكائنة جنوبى الخرطوم . وتقع بحيرة تانا فى حوض فوق الهضبة الحبشية ، وهنا يكون مقدار الأمطار مساويا لمقدار التبخر تقريبا ، كما فى بحيرات النيل الأعلى . وعلى هذا فإن انشاء خزان فى بحيرة تانا سوف يستغل تصريف النيل الأزرق ، ويتم عملية خزن المياه فى بحيرتى ألبرت وفكتوريا . وهناك بالاضافة الى ذلك امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية ، لأن النيل الأزرق يهبط هبوطا غير يسير .

ويبدو أن شلالات تس أيسات التى تبعد عن بحيرة تانا مسافة غير كبيرة هى على الأخص الموضع المناسب لتوليد القوة ، غير انه المؤسف ان توليد القوة الكهربائية من النيل الأزرق ربما يتعارض مع عملية الخزن الدائم « القرنى » ، ولا بد له أن يقتصر على المدة المنحصرة بين ديسمبر ويونيه .

(١) راجع تفصيلات ذلك فى كتاب مشاريع النيل الأعلى . مشروع قناة الجوفلى ، وزارة الأشغال العمومية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

ويوجد بصورة مستقلة تماما عن مشاريع تنظيم النيل مشروع مصرى  
صرف لتوليد القوة الكهربائية المائية ، وهو يهدف الى الاستفادة من الفرق  
فى المستوى بين البحر الأبيض المتوسط ومنخفض القطارة الكائن فى  
منتصف الطريق تقريبا بين وادى النيل وحدود برقة . وخدمت المستنقعات  
المالحة فى هذا المنخفض جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت  
محورا للدفاع عن الأراضى الضيقة المنحصرة بين ساحل البحر والمنخفض .  
وفضلا عن قيمتها الاستراتيجية ، تعد هذه البقعة فى الوقت الحاضر أرضا  
مواتا تماما ، فاذا اقتيدت مياه البحر الأبيض المتوسط بقنوات وأفاق  
الى المنخفض ، فسوف يصبح فى استطاعة المجرى المنحدر من علو  
متى قدم تقريبا أن يولد قوة كهربائية تكفى لتغذية قسم كبير من البلاد  
المصرية ، كما ان تبخر مياه البحر المتراكمة فى المنخفض سوف تجعل  
من الممكن نشوء صناعة متسعة للملح (١) .

## وادى الغور

فى موازاة ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، من تركيا الى خليج  
العقبة ، يمتد خندق جيولوجى أو واد غائر تقع أعلى نقطة منه فى لبنان  
بالقرب من بعلبك القديمة ، كما تقع أخفض نقطة منه فى منخفض البحر  
الميت العميق . وتجرى الأنهر الثلاثة — العاصى والليطانى والأردن —  
معظم جريانها فى هذا الوادى مع روافدها ، وهى مصدر التجهيز المائى  
الرئيسى للبنان وفلسطين ، ولأقسام من سوريا والمملكة الأردنية . ومع  
ان هذا الأنهر تحمل فى مجراها مقدارا من الماء أقل بكثير مما يحمله النيل ،  
أو أنهر العراق الكبيرة ، فأهميتها تزداد بكونها تجرى فى بلاد محتشدة  
بالسكان احتشادا كثيفا (٢) .

---

(١) وردنجتون ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) وردنجتون ، المرجع السابق ص ٦٢ .



وربما كانت أعظم صفة تتصف بها المنطقة المحيطة بوادي الغور هي الاختلاف الشديد في الجو ، وهو الاختلاف الناتج عن التباين الكبير في الارتفاع ، وتنوع الحضارات التي ظهرت بين سكانها الذين لا يزالون يمثلون خليطا من الأقوام والأمم والديانات . وينمو النخيل والموز وقصب السكر في بعض أجزاء هذه المنطقة ، كما يمكن أن توجد الفواكه الحمضية على طول الساحل بأجمعه ، حيث يجود الزيتون والكروم والتفاح في سفوح الجبال ، كما تزرع مجموعة من المحاصيل الحقلية تتراوح بين الحبوب وبنجر السكر والبطاطا في الجهات العالية من البقاع . ويعيش في هذه البلاد خليط من المسيحيين واليهود ، والدروز والمسلمين السنة والشيعية ، بين خرائب المعابد الوثنية . غير أن زراع بساتين الأشجار الحمضية الحديثة ، ومزارعي فلاحية المصاطب ، وهم الذين يزرعون الكروم والزيتون في السفوح الجبلية ، يشتغلون في جوار الرعاة البداءة الذين تؤثر ماعزهم وضأنهم في عملية تعرية التربة ، باتلاف الأشجار والشجيرات ، وبذا يعيقون الجهود المضنية التي يبذلها جيرانهم المستقرون . وفي أحوال كهذه يحدث انه على حين يتيسر عدد كبير من الأفكار المتضاربة حول استثمار منابع المائية الموجودة ، لم يقم من المشاريع الكبيرة الا القليل لاستغلال الأنهر بمجموعها استغلالا مترابلا . ولا يخفف من صعوبة هذا الوضع ولو بعض الشيء كون هذه المنطقة يتقاسمها عدد من الدول المستقلة ذات السيادة ، بل ازداد التعقيد بتقسيم فلسطين ، وشدة الخلاف الذي أعقب الحرب الأخيرة بين العرب واليهود . وينطبق كل هذا بلا شك على حوض الأردن أكثر مما ينطبق على النهرين الواقعين أبعد من ذلك شمالا في الوادي .

وينبع نهر العاصي في لبنان الشمالي ، بين سلسلتى لبنان الغربية والشرقية ، في وادي البقاع الخصيب . ويتراوح مقدار الماء الذي يجري في هذا النهر بين ستة وسبعة عشر مترا مكعبا في الثانية ، وهو يجري شمالا في أراض لبنانية مسافة نحو الثلاثين ميلا . وفي هذا القطاع من مجرى العاصي وضعت خطة لتحويل شيء من مياهه للرى ، ولاستغلال مساقطه

فى توليد القوة الكهربائية ، بإنشاء محطة صغيرة لهذا الغرض . وتزداد قيمة هذا المشروع اذا ربطت المحطة بشبكة اسلاك المنطقة كلها ، بعد أن تنشأ محطة الليطاني الأكبر فى الجنوب ، لأن تصريف الليطاني اذا قل خلال الصيف الى ما يقرب من عشرة بالمئة من تصريفه الشتوى يبقى العاصى أكثر مثابرة فى التصريف ، لأنه يستمد جزءا من مياهه من ذوبان الثلوج .

وعندما يعبر نهر العاصى الحدود السورية يدخل بحيرة حمص ، وهى فى الحقيقة خزان اصطناعى تكون بتشيد قناطر فى موقع سد رومانى قديم . ومن هناك يجرى العاصى متجها نحو الشمال حتى يدخل أرض تركيا ، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط . ويمكن القيام بعدة مشاريع على طول مجرى العاصى الرئيسى فى سوريا ، مما تدرسه الآن الحكومة السورية . وأكثر هذه المشاريع فائدة مشروع تخفيف مستنقع الغاب الذى يتألف قاعه من تربة خصبة فى أسفل سلسلة جبال العلويين ، وهناك أيضا مشروع صرف ( بزل ) حوض الرج الواقع أبعد من ذلك شمالا . على أن مشاريع العاصى ، ومثلها مشاريع الليطاني ، تتطلب مقدارا غير يسير من الأعمال الترابية التى يساعد على انجازها كثرة الأيدى العاملة الرخيصة الأجور ، بالنسبة لأحوال الشرق الأوسط . وعلى هذا يبدو الآن تحقيق هذه المشاريع شىء مفر ، لأن البلدين معا يتوفر فيهما عدد كبير من الأيدى العاملة العاطلة عن العمل بوجود اللاجئين العرب من أهل فلسطين .

وينبع الليطاني ، كما ينبع العاصى ، من مسيل مياه بعلبك ، لكنه يسلك فى انسيابه مجرى معاكسا يتجه نحو الجنوب مخترقا وادى البقاع . ثم يدور الليطاني فيتجه الى الغرب ، ليصب فى البحر الأبيض المتوسط ، بالقرب من البلدة الفينيقية القديمة صور . ويقع منبع هذا النهر على ارتفاع يبلغ ثلاثة آلاف قدم ، وينحدر انحدارا معتدلا مسافة خمسين ميلا من منبعه ، فضلا عن الخمسة والعشرين ميلا الأخيرة قبل أن يصل

المصب . وعلى هذا تكون الأراضي التي يخترقها نهر الليطاني في هذين القطاعين — وعلى الأخص في القسم الأعلى من حوضه — صالحة للرعى . أما قطاعه الأوسط فهو شديد التحدر ، وهو يصلح أن يكون موقعا لتوليد القوة المائية <sup>(١)</sup> . ويتراوح تصريف النهر عند قياسه في المنصورة بالقرب من المنبع ، بين ٣٣ مترا مكعبا في الثانية في شهر يناير وثلاثة أمتار مكعبة في أغسطس . ويقل الماء الضروري لتوليد القوة الكهربائية حتى عن هذا الحد الأدنى خلال أشهر الصيف ، عندما تتم الاجراءات لانجاز مشاريع رى أخرى ، ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبة الا بخزن المياه بمقياس واسع في الشتاء . ويتطلب هذا الأمر اجراء استقصاءات جيولوجية مفصلة ، ليتسنى تعيين أنسب موقع أو موقعين ينشأ فيه أو فيهما سد واحد أو سدان ، دون أن يحصل تأثير على نظام الرى في أعالي النهر . والمعروف أن المكثات التي سوف تعمل لتوليد هذه القوة المائية يمكن أن تبلغ قدرتها خمسين ألف كيلو واط .

والسلسلة الثالثة الممكن ربطها بشبكة القوة الكهربائية المستحصلة من نهري العاصي والليطاني تكون محطة توليد القوة الكهربائية من تساقط المياه من بحيرة يمونة ، وهي احدى ملحقات الليطاني . وعند ذلك يكون مجموع القوة الناتجة سنويا من محطات التوليد الثلاث حوالى ٤٨٠ مليون كيلواط في الساعة ، وستزيد هذه القوة عن الاستهلاك الحالى للقوة الكهربائية في لبنان بأكثر من ثمانى مرات . وتقرن مثل هذه المشاريع عادة بأعمال الاستثمار الأخرى ، وهذه سوف تؤدي لزيادة استهلاك القوة في الداخل زيادة وافرة ، أو بمشاريع تصدير القوة الى البلاد المجاورة .

وينبع نهر الأردن من جداول اللدان والحاصباني وبانياس ، وهذه يتكون مأوها من العيون ، ومن أنهر البريغيت التي تنشق من سفوح جبل

---

(١) راجع ي . عبد العال : الليطاني ، دراسة هيدرولوجية . (بيروت ، ١٩٤٨) .

الشيخ في لبنان ، وتلتقى في مستنقعات بردى العائدة لبحيرة الحولة . ومن هناك تخرج هذه الجداول ، فتكون الأردن الذي يجري الى بحيرة طبرية ، وفي الأميال التسعة بين بحيرتي الحولة وطبرية يهبط الأردن مقدار ٩٠٠ قدم . وفي أسفل بحيرة طبرية مباشرة يتصل نهر الأردن باليرموك الذي ينبع في سوريا ، فيكون الحدود بينها وبين الأردن لمسافة ما . والأردن اذ يجري عابرا الى البحر الميت المنخفض عن سطح البحر حوالي ١٣٠٠ قدم ، ينخفض مستواه انخفاضا رقيقا مسافة خمسة وستين ميلا ، لكنه يتعرج تعرجا كثيرا فيقطع في الواقع مسافة مئتي ميل .

ويتحكم الآن في الحصيلة المائية من نهر الأردن امتياز شركة الكهرباء الفلسطينية ، وهي تمتلك حق استعمال الماء لأى غرض آخر ، ولو انها تستعمل هذا الحق بتبصر <sup>(١)</sup> . فعند اتصال اليرموك بالأردن يحتفظ بالمياه بواسطة سد ، ثم يسمح لها بالهبوط من علو يقارب الثمانين قدما ، وذلك لتوليد القوة الكهربائية التي تبلغ حوالى تسعة أعشار جميع استهلاك فلسطين .

وفي الهوة الموجودة تحت السد يكون عمق نهر الأردن منخفضا عن قاع الوادى ، فيجعل استعمال المياه للرى شيئا غير اقتصادى في الوقت الحاضر . ولذا تقتصر الافادة من الأردن في جنوب البحر الميت على بضع مضخات أهلية ، تستهلك معظمها تكاليف باهظة ، بالنظر للعلو الشاهق الذى يجب أن يرفع اليه الماء ليصل الى مستوى الوادى <sup>(٢)</sup> .

وأعظم المشاريع ذات الأغراض المتعددة للافادة من مياه نهر الأردن مشروع يقرن عادة باسم و . ك . لاودرميلك ، لأنه هو الذى سمي هذا

(١) لايشمل هذا الامتياز منابع الاردن وروافده التي يأتى أغلبها من خارج فلسطين ، حيث أنشأت سوريا مثلا محطة صغيرة لتوليد القوة الكهربائية على اليرموك .

(٢) راجع ورذنجتون : المرجع السابق ، ص ٥٣ . وانظر ما كتبه وولتر كلى لاودرميلك في الفصل الثالث من كتاب فلسطين ، أرض الميعاد . ( نيويورك ، ولندن ١٩٤٤ ) .

المشروع باسم سلطة وادي الأردن ، تقليدا لاسم مشروع وادي التسي في الولايات المتحدة ، ولأنه هو الذي وضع تفاصيل التنفيذ للحكومة الأردنية .

وتنحصر أهداف هذا المشروع في تحويل مياه الأردن الى مستوى خزان شركة الكهرباء الفلسطينية الكائن في أسفل بحيرة طبرية ، بحفر قناة أو قناتين يرتفع مستواها أو مستواهما ، بحيث تصبح واحدة في كل جانب من جانبي الوادي ، ليسهل انسياب الماء بالجاذبية الى الأراضي القابلة للري والزاجورس . ولما كان هذا المشروع سوف يوفر من الماء أكثر مما يحتاجه وادي الأردن ، فان قسما من النهر يمكن أن يحول من فوق بحيرة الحولة ، لارواء سهل صفد وسائر الوديان القريبة . ولأجل المحافظة على مستوى البحر الميت ، والاستمرار على توليد القوة الكهربائية ، مع التوسع فيها بطريق النهر ، سوف تتخذ التدابير ليجري الماء من البحر الأبيض المتوسط في قنوات واتفاق يرجح ان تبدأ من خليج حيفا الكائن على بعد خمسة وعشرين ميلا فقط . ويتوقع المستر لاودر ميلك ان هبوط المياه الفعلي لتوليد القوة الكهربائية المائية في عدد من محطات التولد في الوادي سينتج حدا أدنى يتراوح بين ٧٦٠٠٠ و ١١٠٠٠٠ كيلو واط . وتلتحق بمشاريع الري وتوليد القوة هذه خطط لحفظ الماء ، وضبط الفيضان ، والصرف ( البزل ) ، وتنظيم الرعي ، والتحريج (١) .

ومع ان دراسات كثيرة أجريت في مختلف نواحي سلطة وادي الأردن ، لا يزال هناك كثير مما يجب أن يدرس . والمشروع بأجمعه موضوع لنشرات ومطبوعات عديدة ، والكثير مما كتب قابل للنقاش والجدل ، بالنظر للمصالح المتعارضة الكثيرة . فبغض النظر عن المشاكل الطبيعية والعقبات الثانوية ، مثل ضرورة تسوية الأمر مع أصحاب الامتياز الحالي ، فان هذا المشروع الجبار تعرضه صعوبتان رئيسيتان . أما

(١) لاودرميلك : المرجع السابق ، الفصل الحادي عشر .

الصعوبة الأولى فهي أن التكاليف باهظة جدا ، لا بالنظر لأن مياه البحر يجب أن تقاد في انفاق تحفر في صخور مسامية ، بل بالنظر لأن الوديان العديدة التي يتحتم على جداول الري الجانبية اختراقها تمر بمنحدرات الوادى أيضا . ثم ان الفائدة الاقتصادية للمشروع لا تزال بحاجة للبرهنة عليها ، ولعل أعقد من هذه الصعوبة التي هي من صنع يد الانسان والنتيجة عن جريان الأردن في واد تشترك فيه عدة دول ، ان منابعه تنفجر في لبنان وسوريا ، كما كان النهر نفسه يكون الحدود بين فلسطين والأردن ، وهو الآن يجرى في أراض تسيطر عليها المملكة الأردنية من جهة واسرائيل من جهة أخرى. ومشروع في مثل هذه الضخامة لا يمكن أن يضطلع به ويسير بصورة ناجحة الا بحصول التعاون التام بين سكان المنطقة بأجمعها ، فضلا عن حكوماتهم ، وليس من المستطاع اتمامه الا بعد حصول مقدار من الوحدة الاقتصادية في المنطقة كلها على الأقل .

وفيما خلا المشاريع المختصة بهذه الأنهر الثلاثة ، هناك عدد كبير من المشاريع الصغرى، وأهمها مشاريع توليد القوة الكهربائية من أنهر ابراهيم والبارد ، وسائر الأنهر الصغيرة التي تنبع من منحدرات لبنان الغربية . وهناك مشروع تحويل قسم من اليرموك الى جدول يجرى نحو الجنوب، لارواء بعض أجزاء المملكة الأردنية ، وهو مشروع يتعارض مع مشروع سلطة وادى الأردن ، ومشروع تجفيف مستنقعات الحولة الكائنة في شمال فلسطين وريها فيما بعد ، ومشروع ارواء النقب بالماء المحول من الينابيع ، ومشروع نهر العوجة الذي يجرى الى البحر الأبيض المتوسط فيما يقرب من تل أبيب .

## تركيا

تسقط الأمطار بكميات وافرة في مناطق تركيا الساحلية ، وخاصة سواحل البحر الأسود ، وفي مرتفعاتها الشرقية كذلك . أما الهضبة الوسطى المنبسطة ، وهي التي تعزلها عن البحار سلاسل الجبال العالية ، فتقل فيها الأمطار عن عشرين بوصة في السنة ، بل يبلغ مقدار المطر في

معظمها أقل من خمس عشرة بوصة ، وفي قسم منها — أى فى قلب الهضبة — أقل من ثمانى بوصات . ومما تتصف به الأناضول الوسطى ان الأراضى المزروعة تتألف من أشباه دوائر هندسية متقطعة مراكزها الآبار ، وانصاف أقطار مسافة يمكن أن يقطعها الثور فى يوم عمل واحد . وتتصف السواحل الغربية والجنوبية بالموسم الجاف الطويل الذى يتصف به جو البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فبينما لا تعاني معظم البلاد التركية قلة الماء بدرجة خطيرة ، ينبغى إيجاد الوسائل للمحافظة على المياه المتيسرة ، والافادة منها فائدة تامة حتى يكون من الممكن توسيع الرقعة المزروعة ، وزراعة محاصيل أكثر ، والحصول على غلات أحسن ، وغذاء أفضل لاستهلاك البشر والحيوانات .

وتوجد امكانيات ممتازة لاستثمار المياه فى تركيا ، فهناك أسباب تدعو للاعتقاد بأن البلاد فيها موارد عظيمة من المياه الجوفية ، لكنها لا تزال بحاجة الى دراسة منتظمة . أما موارد الماء الواضحة للعيان فهى الأنهر الواقعة جميعها تقريبا اما فى الهضبة الوسطى ، أو فى جوانب حواجزها الجبلية المقابلة للرياح ، وهذه تجرى جنوبا الى البحر الأسود أو بحر ايجه أو البحر المتوسط . وتظل كثير من انهار تركيا على جريان دائم ، وتتضاءل بعضها أو تجف خلال الصيف ، لكنها تحمل فى مواسم معينة مقدارا من المياه يكفى لجعل الفائدة الزراعية منها شيئا ممكنا . وكميات الماء التى تحملها بعض هذه الأنهار وافرة غزيرة ، وهى فى نزولها السريع من الجبال الى البحر تفيض على الدوام ، وكثيرا ما تدمر قسما من أغنى أراضى تركيا الزراعية ، وتجعل جزءا منها فى احتياج دائم للصرف . وفى كثير من الحالات يجعل سقوط المياه الشديد من المرتفعات توليد القوة المائية امكانية أكيدة ، ويشير هذا المطمح بنجاح عظيم فى بلاد متعطشة للقوة الكهربائية . ومع ان بضع مناطق فقط فى تركيا تتوفر فيها سوق جاهزة للقوة الكهربائية ، عدا مناطق استانبول وازمت وأنقره وازمير وأطنة ، فهناك عدد كبير من مراكز السكان والصناعة الكبيرة يمكنها أن

تقيد من أى مقدار من القوة الكهربائية ، وفى وسعها كلها أن تستعمل القوة المائية استعمالا مفيدا ، عوضا عن القوة الحرارية الغالية التكاليف .

وفى السنوات العشرين المنصرمة أدت الحاجة العاجلة للسيطرة على فيضان الأنهر ، فضلا عن الحاجة للقوة الكهربائية والرى الاضافى ، الى وفرة الدراسات الفنية وتعدد المشاريع . وكثير من هذه المشاريع قيد الدرس الآن ، بل ان بضعا من هذه المشاريع سبق ان تمت دراسة . وتتوفر جميع الدلائل على ان الحكومة التركية مزمنة على أن تسير قدما فى تحقيق خططها ، على أن هذه الخطط لم تعالج علجا كافيا حتى الآن ، كما ان ملاساتها الاقتصادية والزراعية لم تقدر تقديرا تاما بعد . يضاف الى ذلك أنه يعوزها الترابط ، لأن المشاريع فى بعض الأحيان يضطلع بها من دون الالتفات الى امكانيات المنطقة أو حاجاتها بوجه عام ، ويكون العمل الذى سبق فى بعض الحالات غير متلائم مع الاستثمار الشامل لحوض النهر كله . وفى حالة واحدة فقط أجرى استقصاء استثمارى لحوض نهري بكامله ، مع ان استقصاء ثانيا مثل هذا توضع له الخطة الآن . ثم ان أعمال التحريج ، ومكافحة تعرية التربة ، يبدو أنها أهملت ، بسبب الانصراف الى تنظيم حالة الأنهر . الواقع أنه لم تتخذ مطلقا أية اجراءات فعالة فى تركيب لمكافحة التعرية ، ومعنى هذا أنه على حين أضحت فكرة مشروع وادى التنسى معروفة فى تركيا ، يبدو ان مفهومها المعبر عن استثمار حوض أى نهر من الأنهار بأجمعه لم يبدأ تقديره الا حديثا .

وفىما يلى بيان موجز عن امكانيات عدد من الأنهر التى تبشر بحصول منافع شاملة من استعمالها ، بانتظام وحكمة ، فضلا عن اجراءات ضبط الفيضان التى تقتضيها .<sup>(١)</sup> ويجب أن يكون ملحوظا ان جميع الأنهار

(١) راجع وصفا موجزا لمشاريع الحكومة التركية فى ما كتبه ن . تانيه ، بعنوان أعمال هيدروليكية كبيرة فى تركيا ، فى مجلة الأشغال ، لسان حال جمعية هندسة الأشغال الفنية العامة والأسمت المسلح ، ديسمبر ١٩٤٨ ، ص ٦١١-٦١٨ . انظر كذلك ما نشره مكتب الاستعلامات التركى بعنوان « مشاريع استثمار الكهربائية المائية فى تركيا » فى مجلة « تركيا اليوم » رقم ٢ ، ( نيويورك ، ١٩٤٩ ) .



عدا أبعدھا شرقا ( الفرات ) تجرى بكاملھا فی داخل حدود تركيا ، وبذا تنبثق إحدى عقبات استثمار المياه بالقياس الى بلاد الشرق الأوسط المجاورة لها .

ومشروع وادی سیحان هو أكثر مشاريع استثمار المياه تقدما في تركيا ، وسيحان أحد الأنهر الثلاثة ( بردان وجيحان وسيحان ) التي تجرى نحو الجنوب من جبال طوروس ، فتخترق منطقة تشقورا أووا الرسوبية الخصبة ، وهي إحدى المناطق الزراعية الغنية في تركيا ، وتكون مثلثا مقلوبا يشير الى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . ومع ان الأنهر الثلاثة جميعها تفيض أحيانا ، فان سيحان يحدث أشد الفيضانات خطورة وأكثرها اتساعا ، فيدمر سنويا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية على جانبيه ، ويقضى على حياة الكثيرين ، ولذا فان منع الفيضانات وحده يعد سببا كافيا لبذل الجهود في سبيل السيطرة على سيحان . لكن منافع غير يسيرة يمكن أن تستخلص بالاضافة الى ذلك من رى السهول الكائنة على جانبى هذا النهر ، ومثال ذلك السد الغاطس الذى أنشئ على نهر سيحان على مسافة ست كيلو مترات فوق آطنة ، وكذلك الجدولان الرئيسيان للرئ . لكن مجموعة الجداول الثانوية والثالثية التى شقت حتى الآن تخدم جزءا من الجانب الأيمن فقط ، وتزود ماء الرى لمساحة ١٧٠٠٠ هكتار فقط . فاذا تيسرت الوسائل لحزن المياه ، فسوف يكون من الممكن ارواء ١٥٦٠٠٠ هكتار ، أو جميع سهل آطنة فى الواقع .

ومع ما للزراعة من الأهمية الأولى فى تشقور أووا ، فالمنطقة تيسر فيها أيضا أعمال التوسع والنمو لصناعات صغيرة ، وخاصة صناعات النسيج وحفظ الأغذية . ويعد عدم وجود القوة الكهربائية عاملا كبيرا فى الجبلولة دون حصول النمو الصناعى فى هذه المنطقة ، وهى بأجمعها تعاني الآن نقصا كبيرا فى القوة ، لأن ما يجرى توليده كله تقريبا يعتمد على مكائن حرارية صغيرة تستعمل كل نوع من الوقود . ثم انه يمكن تسخير مقادير

المياه الغزيرة المنهجرة في سيحان لتطمين الحاجات الحالية من القوة ، وما ينتظر أن تتطلبه المنطقة منها لعدة سنوات قادمة .

ولسد حاجات منطقة تشقور أووا وضعت الخطة لانشاء سد متعدد الأغراض على أحد منحنيات سيحان ، على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريبا فوق آطنة ، وتتضمن التصاميم انشاء سد بعلو يكفى للتوفيق بين متطلبات الري وتوليد القوة المتعارضة . وسيكون من ذلك خزان لضبط جميع الفيضانات التي تزيد على الألف متر مكعب في الثانية ، والتي لا بد من انشاء ضفاف عالية على طول النهر في أسفل السد لتنظيمها . وبذا تتحقق امكانية الري التامة في المنطقة ، ويتسنى توليد حوالى ٢١٠ كيلو واط في الساعة من القوة الابتدائية في السنة ، بعد اقامة مصنع للقوة تبلغ سعته ٦٧٥٠٠ كيلو واط . وقد سبق للمصرف الدولي أن أبدى اهتماما بهذا المشروع ، وأرسل خريف ١٩٤٩ مشاورا لدراسة التصاميم في أمكنتها المقترحة <sup>(١)</sup> .

ولم تنظم حتى الآن مشاريع مماثلة لنهرى بردان وجيحان الكائنين على جناحي تشقور أووا الأيمن والأيسر ، على ان سدا ومجموعة من الجداول كانت موجودة على بردان ، لارواء حوالى ٢٠٠٠٠ هكتار من الأرض في سهل طرسوس . وقد تنصب يوما ما التأسيسات الكهربائية المائية فوق السد أو بقربه ، ويجرى الآن انشاء سدة طولها ٤٥ كيلو مترات على ضفاف جيحان لدرء الفيضانات ، على ان خطة موحدة لمنطقة تشقور أووا كلها تتناول موارد الأنهر الثلاثة بأجمعها لم توضع بعد .

---

(١) منح المصرف الدولي في ١٨ يونية ١٩٥٢ قرضا لتركيا مقداره ٢٥٢ مليون دولار ، لتمويل تكاليف العملة الخارجية التي يحتاجها مشروع سيحان . ويتضمن المشروع انشاء سد ترابى ، وانشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية ينصب فيها مولدان كهربائيان تبلغ قوة كل منهما ١٨٠٠٠ كيلو واط ، فضلا عن مولد ثالث ينصب فيها فيما بعد ، وشبكة لنقل القوة الى اطنة وطرسوس ومرسين ، واكمال أعمال ضبط الفيضان ، وشق الجداول اللازمة للري التي كان العمل جاريا فيها في الوقت الذي منح فيه القرض .

وفيما عدا هذه الأنهار الثلاثة يوجد نهر سقاريا الذي ينبع في القسم الغربي من هضبة الأناضول ، ثم يجري متجها الى الغرب والشمال نحو البحر الأسود مسافة ٧٥ ميلا شرقي البوسفور . ويجري نهر بور سوق ، وهو الرافد الأكبر لنهر سقاريا نحو الشرق مخترقا كوتاهية واسكيشهر قبل أن يتصل بسقاريا ، كما يجري أحد روافده الغربية بالقرب من أنقرة . ويشتمل حوض مجموعة الأنهار هذه على قسم من أحسن مناطق زراعة الحبوب في تركيا ، والخطة لاستثمارات مائية متعددة الأغراض تتناول مجموعة أنهر سقاريا — بور سوق غير أن الهدف الأول من هذه الخطة يقتصر على توليد القوة ، لأن هذه الأنهر واقعة في منتصف الطريق تقريبا بين أنقره واستانبول ، وهي صالحة لتوليد موارد كهربائية مائية في أمكنة استراتيجية يمكن أن تجهز القوة اللازمة لأرقى المناطق الصناعية في تركيا . والحقيقة ان هذه المواقع أصبحت مراكز هامة في شبكة أسلاك كهربائية يؤمل مدها ، لتربط بلاد الأناضول الشمالية الغربية سويا ، وتمدها بالقوة اللازمة . أما الصرف والرى ومكافحة الفيضان ، فهي كلها ذات أهمية ثانوية في ضوء امكانيات القوة الكهربائية للمنطقة .

وأنشئ على هذه المجموعة النهرية سابقا سد من أحدث سدود تركيا وأكثرها اتقانا ، وهو سد نهر تشوبوق بالقرب من أنقرة ويجري الآن انشاء سد ثان في اسكيشهر على نهر بور سوق ، لتكوين خزان يسع ١٥٥ مليون متر مكعب . وسوف يقوم هذا السد بمنع وقوع الفيضان الدوري ، وبتيسير رى سهول اسكيشهر كذلك . ولم تبذل بالنسبة لنهر سقاريا نفسه الا جهود متواضعة حتى الآن ، لاتخاذ ما يلزم للرى والصرف في أعاليه على ان مشروعين رئيسيين وضعا لهذا النهر وأولهما في صارى ير ، ويتضمن انشاء سد ومصنع للقوة الكهربائية المائية سعته ٧٥٠٠٠ كيلو واط ، ويستطيع توليد حوالي أربعمئة مليون كيلو واط في الساعة سنويا <sup>(١)</sup> ، وثانيهما في

---

(١) هذا السد ومحطة توليد القوة الكهربائية يجري انشاؤها الآن .

جاغلازق ، ويتضمن انشاء سدين يشغلان مصنعا واحدا سعته ٣٦٠٠٠ كيلو واط ، لتوليد ١٢٠ - ١٥٠ مليون كيلو واط في الساعة . وتستدعى تصاميم الحكومة التركية ربط مصانع القوة هذه بغيرها من مصانع القوة التى تشتغل بالفحم والليجنات ، لتكوين شبكة تضم تركيا الشمالية الغربية ، فتزود على هذه الشاكلة القوة لمناجم الفحم الكبيرة فى زونغلداق ، والمنطقة الصناعية الممتدة بين استانبول وأزميت ومركزى أنقرة وقرق قال الصناعيين <sup>(١)</sup> . وينتظر أن تنتج عن هذه المشاريع حصيلتان ثانويتان كبيرتان ، لأن انشاء السدود سوف يدرأ الفيضان عن وادى سقاريا الأسفل ، كما يؤمل أن تجعل مسافة ستين الى مئة ميل من مصب النهر صالحة للمراكب الصغيرة من حمولة ٢٠٠ الى ٥٠٠ طن .

ومن أنهار تركيا نهر كديز الذى يجرى غربا حتى يصب فى بحر ايجيه شمالى أزمير مباشرة ، ويعد واديه موردا كبيرا لقطن تركيا وتبغها وفواكهها ونقلها وزيت زيتونها . ولقد حسب الحساب بصورة واضحة فى التصاميم الموضوعة لحوض هذا النهر لشؤون الرى والصرف ومكافحة الفيضان وتوليد القوة من الماء . وعلى هذا النهر بنيت سابقا عدة سدود وجداول تحويلية ، فالسد المقام أولا على نهر كديز . والآخى المقام فى جامليكا على قوم تشاى ، يساعدان على تنظيم فيضان كديز الأسفل الذى يهدد بخطرته سهول منمن ومغنيسيا الغنية ، حيث تجرى المياه التى يصدها هذان السدان فى جداول الى بحيرة مرمرة . ويبنى الآن سد غاطس آخر على كديز فى جنوب البحيرة مباشرة ، وسوف يربط أيضا بالبحيرة بواسطة جدول خاص . وعلى مسافة من أسفل النهر أقيم سداً كبير لتحويل المياه فى أمير عالم ، كما شيدت سلسلة من الضفاف ومجموعة من الأقنية لارواء سهل منمن بأجمعه . وبالإضافة الى اتمام هذه الأعمال الانشائية ، فان أكبر عمل يراد انجازه فى حوض كديز هو انشاء سد كبير

---

(١) يكاد العمل ينتهى فى هذه الشبكة لتوليد القوة الكهربائية فى هذه المنطقة الشمالية الغربية ، لان السلطات التى يهمها اتمام هذا العمل جهزت العملة الخارجية اللازمة .

جديد بالقرب من أو الألى أن الهدف الأكبر لهذه الأعمال كلها هو مكافحة الفيضان وضبطه ، ولو أن إنشاء السد الجديد سوف يتضمن نصب تأسيسات كهربائية مائية يكون فى وسعها توليد ١٥٠ مليون كيلو واط فى الساعة سنويا ، وسوف تستعمل هذه القوة للرى بالمضخات فى المناطق القريبة من مجنيزيا ، وفى منطقة أزمير الصناعية .

على أن المشاريع التى أنجزت والتى وضعت لها الخطط اللازمة حتى الآن فى حوض كديز اضطلع بها على انفراد ، دون أن ترسم الخطة لاستثمارها بصورة مترابطة ، ويشبه وضع كديز فى هذا الشأن جميع المشاريع الاستثمارية الأخرى فى تركيا . على أن كديز ينفرد عن الأنهر الأخرى بأنه أول حوض نهري تبذل فيه الجهود الآن لوضع خطة استثمارية موحدة من جميع الوجوه ، وقد باشرت الشركة الأمريكية التى احتفظ بها للقيام بهذا العمل سنة ١٩٤٩ ، وهى تأمل أن تنتهى من وضع تقريرها أوائل سنة ١٩٥٠ (١) .

ويجرى نهر المندرس الكبير ، كما يجرى نهر كديز ، من الهضبة الغربية الى بحر ايجيه ، مخترقا أراضي تنتج كثيرا من منتجات تركيا الزراعية ، وهو يمر كذلك بمركز صناعى هام هو مركز نازلى . والمنطقة بأجمعها فى حاجة الى حمايتها من الفيضان ، كما أن الرى والصرف سوف يزيد كثيرا فى المنافع التى تجنى من المنطقة . ويمكن أن تربط الامكانيات الكهربائية المائية فى وادى المندرس الكبير بامكانية نهر كديز ، وبذا تتكون شبكة مشتركة تخدم منطقة بحر ايجيه .

والمشاريع التى يؤمل إنجازها فى هذا الحوض لا تتناول نهر المندرس الكبير نفسه فقط ، بل تتناول أيضا روافده ، وهى كوفى تشاى ونددلاس وآق تشاى وتشين تشاى .

---

(١) انتهت شركة ناين - تيبب أبوتس الهندسية فى نيويورك من الأعمال التمهيدية ، وقدمت تقريرها الى الحكومة التركية فى ١٩٥٠ . ولاعتقاد الحكومة بأن هذا المشروع يستحق الترجيح والاولوية على غيره من المشاريع فإنها أخذت تسعى للحصول على مساعدة من الخارج لتمويله .

وبدأ العمل في هذا الحوض بصرف المناطق المجاورة لايتشكلى ، وتنشأ الآن الضفاف حول بحيرة ايتشكلى . وهناك سد على بعد عدة أميال فوق نازللى ، حيث يحول الماء الى جدولين في جانبي النهر لرى سهل نازللى . وقد أنشأت مجموعة صغيرة من الأقنية في أعالي النهر ، لارواء سهل دنزلى ، كما تنشأ الآن ضفاف واقية عبر سهل صوكاى حيث يتصل النهر بالبحر .

وتستهدف الحكومة التركية حماية هذا الحوض كله ، لكن بعض الأعمال الانشائية التى سبق ان أنجزت ليست سوى مشاريع منعزلة متفرقة . على ان الحكومة برهنت أخيرا على عزمها في مسح الحوض بكامله ليكون وحدة استثمارية، ومن أجل ذلك أجرى مسح تمهيدى لهذه الغاية.

## مشاريع تركية أخرى

كانت أربعة حياض نهريه أخرى على الأقل موضع البحث في دوائر الحكومة التركية ، ومع ان أى حوض نهري من هذه الحياض لم يدرس دراسة علمية منظمة ، فان بعض المشاريع الجزئية تمت بأعمال انفرادية . وأنجز العمل في بعضها لتصبح فيما بعد أجزاء من مشاريع استثمارية عامة . مثال ذلك حوض صو صورلو للصرف ، وهو الواقع جنوبى بحر مرمرة مباشرة ، ويحتوى على مياه بحيرتى مانياس واو لوباد وأنهر صو صورلو ونيلوفر وخوجة تشاى وكمال باشا مع روافدها . والحاجتان الرئيسيتان في هذه المنطقة هما الصرف ومكافحة الفيضان ، وتمت بعض الأعمال لانشاء الضفاف والسدود على طول نهري صو صورلو وكمال باشا ، وفيما حول بحيرة مانياس . ومع ان هذه المنطقة من المناطق التى يكثر فيها الرى في تركيا ، فان بعض مشاريع الرى تمّ انجازها وتحققت فائدتها ، وبعضها الآخر رسمت الخطة لانشائه . ومن المأمول أيضا أن يتمّ ما يلزم لتوليد القوة ، وجعل الملاحة ممكنة في القسم الأسفل من نهر صو صورلو .

ويجرى نهر قزل أيرمق ويشيل أيرمن من الهضبة الوسطى ، فيخترقان مضائق صخرية عبر حاجز بوتتيك الى البحر الأسود ، على جانبي ميناء سامسون الهام . وتكونت دلتاوات غنية في مصبى هذين النهرين ، لكنها دلتاوات مرزغية تتعرض للفيضان . وسبق ان بدأ العمل في منشآت صغيرة للصرف والرى في هذه المنطقة ، لكن أعمالا أكثر من هذه يؤمل انجازها في المستقبل . ثم ان امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية صارت معروفة في هذه المنطقة كذلك ، لكن الخطط المفصلة لم توضع لها بعد .

ويكون الفرات الأعلى وروافده في الأناضول الشرقية أطول مجموعة نهريّة في تركيا ، اذ ينبع بين أعلى الجبال الموجودة في البلاد ، ثم يهبط بسرعة الى سهول تركيا الجنوبية الغربية ومنخفضات سوريا . ومما لا شك فيه ان امكانيته لتوليد القوة الكهربائية المائية عظيمة ، لكنها بقيت غير مدروسة حتى الآن ، والمشاريع الوحيدة المضطلع بها في العصر الحاضر هي المشاريع التي تساعد على الرى والصرف في سهل أرزنجان .

## الهضبة الايرانية

ليست قلة الماء التي تعانيها ايران ناشئة من الأحوال الجوية فقط ، بل من تكوينها الطبيعي كذلك . ففى ما بين ذراعى المساحة التي تشبه رقم ٧ ، وهما الذراعان اللذان تكونهما جبال البرز في الشمال وسلسلة الزاغور في الغرب تقع الهضبة الايرانية التي يبلغ معدل ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم ، فوق مستوى سطح البحر . وتبدأ هذه الهضبة وعرة ، ثم تنبسط بالتدريج فتكوّن بادية عظيمة تؤلف ما يقرب من ربع مساحة البلاد . ويبلغ مقدار المطر السنوى في منطقة البوادي أقل من خمس بوصات ، وهو يزيد في معظم الهضبة على ١٢ بوصة ، وأكثر سقوطها في أشهر الشتاء . على ان مناطق بحر قزوين الساحلية تغزر فيها الأمطار طول أيام السنة ، فيبلغ معدلها حوالى خمسين بوصة ، كما ان ايران الغربية يكثر فيها تساقط الثلوج والمطر خلال أشهر الشتاء . غير أن هذه الأمطار

المتكونة من جبهات جوية تتحرك من الجنوب الى الغرب تستهلك نفسها عادة ، لأنها تنضب عند الحواجز الجبلية العظيمة . وعلى هذه الشاكلة لا يقل المطر داخل ايران فحسب ، بل تعود معظم المياه فتجرى من الجبال الى مجموعات الصرف الخارجية ، ولا يمكن أن يستفاد منها الا فى رقعة صغيرة من ايران ، قبل أن تعبر الحدود أو الممرات الى البحار مباشرة . وهذا وضع لا يختلف عن الوضع الموجود فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، حيث تعوّق سلسلتا جبال لبنان جريان معظم الرياح الممتلىء بالرطوبة قبل أن يصل الى سوريا .

وقلة هطول الأمطار لا تعوض عنها الأنهر التى تجرى قادمة من خارج ايران ، حيث تجرى كميات من الماء الى الداخل فى مجار سطحية ترد من أفغانستان . ثم ان الأحوال الطبيعية لا تساعد كثيرا على الافادة من المياه الجوفية ، لأن معظم ايران — ما عدا زاويتها الجنوبية الغربية — يظلّ فيها مستوى الماء الجوفى واطنا ، بحيث لايسمح بضخ الماء بقوة الثيران من الآبار ، كما يجرى فى الهند ، أو فى وادى النيل . وبالنظر للصعوبات التى يتضمنها استيراد المكثات ، وتشغيلها وصيانتها فى بلاد غير متقدمة فى العمران ، فان عدد المضخات التى تشغلها المحركات لا يزال محدودا . غير ان براعة الفلاحين وخبرتهم أدت الى ابتداع القناة التى تزيد مساحة الأرض التى تروىها على المساحة المرواة بأية وسيلة أخرى . وتتألف القناة من اسطوانة أفقية مجوّفة تدفن فى قاعدة الجبل حتى تصل الى الطبقات الحاملة للماء الضحل ، فتنتقل الماء بالجاذبية الأرضية الى أسفل ، حيث يستهلكه الناس والحيوانات للرئى والسقى . ويعتمد الناس والزراع فى هذه المناطق من ايران اعتمادا تاما على مثل هذه القنوات ، مع العلم بأن عشرة بالمئة من المياه الجوفية فقط تستخرج بهذه الطريقة .

ومن الممكن أن يزداد تجهيز ايران المائى ازديادا جوهريا ، بانجاز مشاريع الماء الحديثة . والواضح ان توظيف المال لهذا الغرض ضرورة كبرى لأى تحسين فى مستويات الصحة الشخصية والصحة العامة ، ولتقدم



الزراعة التي تعد عمادا لاقتصاديات البلاد . ويتطلب خزن الماء السطحي ، فضلا عن استخراج المياه الجوفية على وجه أتم ، مصاريف جسيمة وتصميما مترابطا ، وفي بضع السنوات الأخيرة بدأ العمل في التصميم لذلك كله بمساعدة فنيين أجانب ، وأخيرا وضعت الحكومة الإيرانية «مشروع السنوات السبع للتعمير<sup>(١)</sup>» والغرض منه أن يزداد الانتاج ومقدار المنتوجات المصدرة ، مع انتاج ما يحتاجه السكان داخل البلاد ، واصلاح شأن الزراعة والصناعة ، واستغلال الموارد المعدنية وخاصة النفط ، وتنمية المواصلات ، وتحسين الصحة العامة ، والقيام بكل شيء ضروري لتعمير البلاد ، ورفع مستوى المعيشة بين السكان ، وتقديم الرفاهية العامة ، وخفض تكاليف المعيشة<sup>(٢)</sup> . وخصصت الحكومة الإيرانية من مجموع النفقات التي تبلغ ٢١ بليون ريال مبلغ ٦٥٠ مليون دولار بسعر التحويل الرسمي ، أى ٢٥٪ للزراعة ، وفي النية صرف ٨٪ ، أى ١٨٥٠ بليون ريالا على شؤون الري وانشاء السدود .

ويبدو من المعلومات المتوفرة<sup>(٣)</sup> ان مجموع معدل ما يتوفر من الماء سنويا في ايران يزيد على ٤٥٠ بليون متر مكعب ، يضيع منه في الوقت الحاضر بالتبخير والانسياح من الأنهر حوالى ثلاثة أرباعه . ولتحسين هذه الحال سوف يكون من الضروري الافادة من الماء المضاع بالانسياح من الأنهر ، وفتح منابع جديدة باستخراج المياه الجوفية ، للحصول على كميات أوفى مما يجرى الآن بواسطة القنوات واعادة استعمال بعض المياه

(١) من الأحوط أن لا يؤكد كثير على عدد السنين المقرون باسم المشروع، فبينما أعلن عن المشروع لأول مرة أوائل ١٩٤٧ ، حين اتخذ شكله القانوني باقراره في البرلمان الإيراني في ١٥ فبراير ١٩٤٩ ، ليس من العجيب أن يمتد هذا الجهود الواسع النطاق الى مدة أطول .

(٢) المصرف الملى الإيراني . النشرة رقم ٩٨ ( فبراير - مارس ١٩٤٩ ) ، المجلد ١٦ ، ص ٢٨٠ .

(٣) يرغب المؤلفان في الاعراب عن شكرهما للسفارة الإيرانية في واشنطن، لسماحها لهما بالاستفادة من « تقرير عن مشروع السبع سنوات لمنظمة المشاريع التابعة لحكومة ايران الامبراطورية ، شركة مشاوري ما وراء البحار » ( نيويورك ١٩٤٩ ) .

التي تتسرب من مشاريع الري الموجودة في أماكن مرتفعة ، لرى الأراضى التي يقل ارتفاعها . ويؤمل بهذه الوسائل أن تسد الحاجة السنوية من الماء ، ومقدارها حوالى ٥٠٠ بليون متر مكعب فى السنة . وسوف يستهلك مقدار ٩٧٪ من هذا المقدار للأغراض الزراعية ، والباقى ما تتطلبه المدن والمرافق الصناعية وقدره بليون متر مكعب ، كما أن حوالى ثمانية بلايين متر مكعب سوف تحفظ مستوى الماء الكافى للملاحة فى نهر قارون الذى يحمل خارج ايران حوالى ٢٤ بليون متر مكعب فى السنة . وتخصيص كميات عظيمة من موارد الماء للزراعة أمر تبرره القابلية الانتاجية العظيمة التى يؤمل حصولها ، اذ تدل أوثق الاحصاءات المتيسرة على انه يوجد بالإضافة الى الأحاد عشر مليون فدان من الأراضى المزروعة بالمحاصيل والتسعة والعشرين مليون فدان من الأراضى البور ، حوالى اثنين وثمانين مليون فدان أخرى قابلة للزراعة أيضا .

وفىما يلى نورد خلاصة عن أهم امكانيات تسخير موارد الماء الايرانية واستثمارها : كما وضعت فى مشروع السنوات السبع . وأول هذه الامكانيات يأتى من نهر قارون وهو أهم نهر فى ايران ، فى الجبال الممتدة غربى أصفهان . وفى مجراه الأسفل يتعرج قارون فى سهل خوزستان متجها نحو الجنوب ، ويجرى كله فى ايران ، لكنه يعد من الوجهة الجغرافية جزءا من مجموعة نهري دجلة والفرات اللذين يشاركهما فى منطقة مصبهما — أى شط العرب . ولا يستعمل قارون فى الوقت الحاضر استعمالا كافيا لرى السهول الرسوبية التى تهددها الفيضانات دوريا ، وأوصى مهندس بريطانى سنة ١٩٤٤ بإنشاء سد واق بالقرب من شستر ، حيث يخرج النهر من الجبال . وبذا يكون من المستطاع خزن كمية من الماء تقارب أربعة بلايين متر مكعب ، وسوف يقلل هذا الخزان من خطر الفيضان الذى يتعرض له سهل خوزستان ، بل سوف يؤدى كذلك الى تقليل المساحة التى تغمرها المياه الفائضة من نهري دجلة والفرات سنويا ، بالتخلص من الصعوبات التى يسببها قارون بتصرفه غير المسيطر

عليه . وسوف تكون للسد امكانية لتوليد القوة الكهربائية المائية ، ومقدارها ثلاثين ألف كيلو واط . وهناك قيد النظر الآن — بالإضافة الى هذا الخزان — عدة مشاريع لرى خوزستان . ومن الاقتراحات أيضا ان قسما من النهر يمكن تحويله الى منطقة المستنقعات فيما وراء الأهواز ، لترسيب غرينه واستعمال مياهه لتكوين أراض جديدة لزراعة الأرز (١) . ثم ان التقليل المقترح لجري النهر سوف لا يؤثر على امكان الملاحة فيه ، كما ان كميات الغرين المترسب في الدلتا العراقية سوف تقل ، وهى الكميات التى يتحتم فى الوقت الحاضر ازالتها بأعمال الكرى الباهظة التكاليف .

وهناك فى طور الانشاء الذى سبقت الاشارة اليه فى ايران مشروع آخر، وهو أصغر بكثير من سائر المشاريع الإيرانية ، ويتناول بعض منابع قارون . ففى غرب أصفهان — على مسافة ٤٥ ميلا — توجد رابية ضيقة تقسم حوضين لتجمع المياه ، ويوجد فى غرب الرابية أحد منابع قارون ، كما يوجد فى شرقها نهر زيانده رود الذى يضيع نفسه فى البادية الإيرانية، ولكن بعد ان يغمر بالمياه منطقة زراعية غنية تقع حول أصفهان . ويحفر الآن نفق يخترق هذا المسيل ، لتحويل بعض مياه قارون لزيادة مياه زيانده رود . ومن شأن هذا المشروع أن يزيد فى أهمية المشاريع المعدة لحفظ مياه زيانده رود نفسه ، واستغلالها بوجه أحسن ، ولذا وصت الحكومة الإيرانية باعطاء أرجحية فائقة فى ميزانية مشروع السنوات السبع للدراسات والاستقصاءات الممهدة لهذه الأعمال .

وفى ايران يضيع عدد من الأنهر الصغيرة هباء فى المستنقع والبحيرة المالحين الكائنين جنوبى طهران ، وأكثر هذه الأنهار أهمية قاراج وجاجيرود ، وهى التى تجرى من جبال البرز فى شمال طهران ، وهى برغم تصريفها المتواضع ذات أهمية للاستثمار المتعدد الأغراض ، بما فى ذلك تجهيز الماء الصالح للشرب والقوة الكهربائية للعاصمة الإيرانية ،

---

(١) وردنجتون : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

مع رى الأراضى الزراعية القريبة . وتغذى الثلوج بهر قاراج فى الربيع وأوائل الصيف ، ولذا يجرى فى الجهات العالية ذوات الجو الجاف وهو خال نسبيا من الغرين ، اذا قورن بمعظم الأنهر الايرانية ، كما ان هبوطه بمقدار ألف قدم تقريبا فى مسافة ستة عشر ميلا فقط يجعل توليد القوة شيئا ناجحا . وكان قازاج منذ سنين يجهز طهران بمعظم مائها الذى يجرى حتى العصر الحاضر فى مجرى مكشوف غير مبلط داخل العاصمة الايرانية . وبالإضافة الى عدم صلاحية هذه الطريقة ، يكون ماءقاراج غير كاف خلال قسم من السنة ، وسيبقى كذلك حتى يدبر أمر خزن المياه . أما نهر جاجيرود الأصفر فدراسته منتهية لتوليد القوة وزيادة التجهيزات المائية لرى سهل قرامين ، وهو بقعة تبلغ سعتها حوالى ربع مليون فدان من الأراضى المزروعة القيمة بالقرب من طهران . وترتبط هذه الامكانيات بمشاريع مماثلة على نهر لار الذى يتفجر على مقربة من جاجيرود ، لكنه يجرى الى بحر قزوين .

وتوجد تحت النظر عدة مشاريع أخرى للرى ، وهى تختص بمختلف أنحاء ايران ، ومنها حوضا نهري كور ومندي .

## وادی دجلة والفرات

النصف الشرقى من الهلال الخصيب المعروف فى التاريخ واد عظيم واحد يرويه نهران هما دجلة والفرات، وفى مجراهما الطويل من تركيا الى الخليج الفارسى يكون هذان النهران مع الأراضى التى يخترقانها امكانيات زراعية هائلة ، بالقياس الى غيرها من امكانيات الشرق الأوسط كله . والنهران كلاهما ينبعان فى تركيا ، لكنهما تنصرف اليهما مياه قسم من سوريا ، وحدود ايران الغربية ، وجميع القسم المسكون من العراق . وبعد ان يجرى الفرات مسافة ٤٢٠ ميلا فى سوريا ، و ٧٥٠ ميلا فى العراق ، وبعد أن يجرى دجلة مسافة ٧٧٠ ميلا فى العراق ، يلتقى النهران أخيرا فى القرنة ، حيث يبدأ شط العرب الى الخليج الفارسى . وهما يخترقان

خلال قسم كبير من مجراها مناطق من أشد مناطق العالم حرارة ، وأكثرها جفافا .

وهناك بلا شك مجال للاستفادة من هذين النهرين ، وخاصة الفرات ، في تركيا للزراعة وتوليد القوة معا . على ان الخطط لاستثمار دجلة والفرات في تركيا لم تتجاوز حتى الآن مرحلة البحث والتدقيق ، والحقيقة هي انه لا يعرف الا شيء قليل عن ذلك الجزء من مجرى هذين النهرين . وأى تنظيم أو خزن يجري في المستقبل لمياه النهرين في تركيا ، ولمنابع روافد دجلة العظيمة الأربعة في إيران ، سوف يؤثر تأثيرا خطيرا على مقدار المياه في النهرين وجريهما في الأقسام الوسطى والجنوبية منهما ، أى في سوريا والعراق . وعلى هذا فان استغلال دجلة والفرات على الوجه الأتم يتطلب عقد اتفاقية دولية تمهيدية بين البلاد الأربعة التى يعينها الأمر ، <sup>(١)</sup> على ان دراسة غير يسيرة أجريت في الوقت نفسه حول امكانيات استثمار دجلة والفرات في العراق وشمال شرق سوريا <sup>(٢)</sup> ، وهو ما يتعلق بالبحث التالى .

ذلك أن السهل الرسوبى الذى يجرى فيه دجلة والفرات يشبه وادى النيل المصرى ، فهنا أيضا تكون الأمطار غير كافية للزراعة التى تعتمد على الرى من الأنهر منذ عصور ما قبل التاريخ ، وفى كلا الواديين يتذبذب التجهيز المائى بين الفصول . على انه توجد فروق هامة بين العراق ومصر ، لأن دجلة والفرات معا يحملان مقداراً من المياه يقل عما يحمله النيل ، وتتوفر مياههما فى وقت غير مناسب — أى وقت زرع المحاصيل الصيفية . وينشأ ذلك عن كون النيل ينبع من جبال استوائية فيتجه شمالاً ، بينما يجرى النهران فى اتجاه جنوبى من أجواء معتدلة . يضاف الى ذلك انه يصعب رفع

(١) أشار السيد عبد الامير الازرى ، معاون مدير الرى فى العراق فى ١٩٤٤ ، بأن أى استثمار زراعى واسع النطاق يجرى خارج العراق ، ويستمد الماء من الفرات خلال موسم هبوطه ، سوف يؤثر على مصالح البلاد تأثيراً خطيراً . انظر تقرير مركز تموين الشرق الأوسط المشار اليه سابقاً ، ص ١٨٠ .

(٢) محافظة الجزيرة والقسم الشرقى من محافظة الفرات .

مستوى الماء بسدات في أراضي ما بين النهرين المنبسطة أكثر مما يصعب في وادي النيل الضيق . وتتج عن ذلك أن الري في السهل الرسوبي العراقي اعتمد في السنوات الماضية على رفع المياه الى أعلى بالمضخات ، كما ان مشاريع منع الفيضان الجديدة تستند أحيانا على الاستفادة من المضخات الموجودة بقرب الأنهر . وبينما أدت قلة الأراضي القابلة للزراعة في مصر فضلا عن احتشاد السكان أن تصبح الزراعة كثيفة سنة بعد أخرى فان المقدار العظيم من الأراضي القابلة للزراعة في العراق ، ونسبة السكان الى الأرض .. انعكس تأثيرهما في شيوع الزراعة المتسعة حتى في الأراضي المعتمدة على الري . ولذا تفشت الملوحة في مساحات واسعة من الأرض بالقرب من الأنهر ، لانعدام وجود الصرف ( البزل ) وأضحت هذه الأراضي بائرة <sup>(١)</sup> تماما .

وعلى الرغم من هذا يمتلك العراق أعظم احتياطي من القابلية الانتاجية في الزراعة في الشرق الأوسط ، لأن حوالي ثلاثين مليون دونم ( فدان ) من أراضي العراق فيها قابلية كامنة للزراعة . ومن مجموع الأراضي فيه يوجد ١٩ر٨ مليون دونم في منطقة الري ، ولا يزرع من هذه المساحة الآن الا سبعة ملايين دونم ، كما ان ٣ر٤ ملايين دونم فقط تزرع بالفعل في كل مرة <sup>(٢)</sup> . ومن المعروف ان مليوني فدان في سوريا يمكن أن تخضع للزراعة اذا استعملت مياه الفرات وروافده استعمالا مناسباً <sup>(٣)</sup> . وتدل هذه الأرقام على أقصى حد من امكانية الأراضي المحيطة بدجلة والفرات، وأما المقدار الذي يمكن الاستفادة منه عمليا ، فسوف يكون أقل بالنظر

---

(١) راجع ويرنر : المرجع السابق ، ص ١٠٢ ، وكذلك وردنجتون : المرجع السابق ، ص ٤٨-٥٠ . انظر أيضا ما كتبه فرانك م . ايتون بعنوان « زراعة الري على طول النيل والفرات » في مجلة ساينتيفيك أمريكان ، مجلد ٥٩ (١٩٤٩) ، ص ٣٤-٤٢ .

(٢) ويرنر : المرجع السابق ، ص ٩٩-١٠٠ . وهناك بالإضافة الى ذلك عشرة ملايين دونم في العراق من الأراضي التي تسقيها مياه الأمطار لا يزرع منها في الوقت الحاضر غير مليون ونصف فقط .

(٣) تقرير الولايات المتحدة - البعثة الزراعية الى سوريا . (واشنطن، سنة ١٩٤٧ ص ١٣) .

لعدم وجود الماء . غير ان الوصول الى هذه الأهداف يتطلب أعمالاً متسعة ، للخرن والصرف ومكافحة الفيضان والرى .

ويجرى الفرات فى سوريا خلال واد متسع يسمح بتحقيق امكانيات الرى الواسعة النطاق كما يسمح بذلك نهر الخابور وهو الرافد الأكبر للفرات. واذا لم تنهيا وسائل الخرن لهذه المياه ، فان تحويلها فى سوريا سوف يتعارض مع استعمالها فى العراق . وعلى هذا فان أحد مشاريع الفرات الذى يمكن تحقيقه فى سوريا هو انشاء سد وخران فى يوسف باشا ، حيث يمكن أن يخزن حوالى مليون ونصف متر مكعب من الماء لارواء ٣٠٠٠٠٠ هكتار تقريبا ، وسوف يجهز الخزان أيضا بمقدار ٣٠٠٠٠٠ كيلو واط على الأقل لتوليد القوة الكهربائية . وهناك مشروع آخر لرى الجزيرة ، باستغلال الخابور استغلالا أكثر فائدة مما هو حاصل فى العصر الحاضر .

وفى العراق تؤخذ معظم مياه الفرات الآن للرى من فوق سدة الهندية، حيث يتغير قاع النهر بسبب الترسيب ، وتحدث الفيضانات سنويا بصورة منتظمة . وفى هذا القسم من البلاد تخدم الفيضانات غرض رى الحياض ، لكن هذه المنطقة وسائر المناطق تحدث الفيضانات فيها أضرار بالمرروعات ، حتى انها تهدد بغداد بالخطر . وأكبر عمل انشائى وضع للفرات فى العراق هو مشروع الجبانية الذى بدأ العمل فيه قبل الحرب العالمية الأولى ، لكنه بقى معلقا مدة تزيد على العشرين سنة ، وهو مشروع لمكافحة الفيضان . والمشروع يعتمد على الاستفادة من بحيرة الجبانية التى هى عبارة عن منخفض فى البادية ، بالقرب من ضفة النهر اليمنى غربى بغداد . وسوف يشمل هذا المشروع عند انتهاء العمل فيه على سد للتحويل يقام على الفرات ، وعلى جدول ينقل الماء الى البحيرة ليخرج منها الى منخفضين جنوبى الجبانية ، حيث يمكن خرن كميات أخرى من الماء فيهما . وستكون سعة الخرن فى الجبانية بعد أن يتم انشاء الخزان حوالى ثلاثة بلايين متر مكعب ،

وسوف يساعد هذا الخزان على ضبط فيضانات الفرات ، وتوسيع رقعة  
الرى الى مليون ونصف دونم أخرى ، مع اضافة مياه الفرات فى موسم  
الجرى الواطى .

ومنابع مياه دجلة أعلى من منابع مياه الفرات ، كما ان الأمطار الهائلة  
عند منابعه تتحدر انحدارا أكثر . ولدجلة بالاضافة الى ذلك أربعة روافد  
كبيرة فى العراق ، وهى تجرى بانحدار كبير الى واديه . وعلى هذا فان  
فيضانات دجلة أكثر خطورة وأصعب تكهنا بها من فيضانات الفرات ، وهى  
بذلك تهدد بغداد على الدوام . على انه من حسن الحظ أن تكون معظم  
روافد دجلة داخل العراق ، مما يؤدى الى توفر فرص أحسن للسيطرة  
التامة على مياه دجلة فى مرحلة أبكر ، بإنشاء مشاريع تقع فى بلاد واحدة ،  
هى العراق . وهناك الآن على دجلة سدة كبيرة واحدة هى سدة الكوت  
التى أنشئت أسفل النهر سنة ١٩٣٩ ، وهى ترفع مستوى الماء بحيث  
تسمح بارواء مساحة كبيرة من الأرض . ومجرى دجلة فى أسفل الكوت ،  
مثل الفرات فى أسفل الهندية ، كلاهما غير مستقر وغير قابل للتحديد دائماً .

ثم ان أهم مشروع لضبط الفيضان على دجلة ، وهو مشروع وادى  
الثرثار ، يشبه مشروع الحبانية على الفرات ، ولكن مقياس أوسع  
بكثير . ذلك أن وادى الثرثار يمتد بموازاة دجلة من الغرب ، ويجرى  
فيه الماء خلال مدة قصيرة من السنة ، بمنخفض طويل يمكن أن يستعمل  
خزاناً طبيعياً يحتفظ بمياه فيضان دجلة ويعيدها الى النهر فى أوقات  
هبوط مستوى الماء فيه . ويتطلب هذا المشروع انشاء سد لتحويل المياه  
الى النهر ، وحفر جدولين ينقل أحدهما المياه الى الوادى ويعيدها الثانى  
الى النهر . ومثل هذا الترتيب سوف يسمح بتوليد القوة الكهربائية  
المائية ، وتوسيع المساحة المزروعة فى جوار المشروع . وبحفر مخرج الى  
الفرات يمكن أن يستعمل خزان الثرثار لتزويد كل من دجلة والفرات  
بالماء فى أوقات هبوط مستوى الماء فيهما .

وللسيطرة على مياه دجلة ، ولزيادة سعة خزن المياه ، وضعت الخطط  
لإنشاء سدود للخزن فى أعالي دجلة وروافده ، مثل نهر دىالى . وبذا سوف



يؤدي انشاء سد ديالى الى تخفيف الضغط على جريان دجلة بالقرب من بغداد ، واقتاذ وادي ديالى نفسه من شر الفيضان ، كما ان ذلك سوف يسمح بتوسيع رقعة الزراعة على طول ديالى وباقامة مكائن لتوليد قوة مقدارها ٣٠٠٠٠ كيلو واط ، على مسافة ٦٥ ميلا من بغداد .

ومما ينظر فيه من المشروعات أيضا سد الفتحة على دجلة ، على مسافة ٦٥ ميلا شمالى سامرا . وسوف يتكون من ذلك خزان يشبه فى سعته خزان الشرائر فضلا عن سد نجمة على الزاب الكبير ، وسد دمبر على نهر العظيم ، وسد دوكان على الزاب الصغير . والهدف الرئيسى لهذه المشاريع فى مجموعة نهر دجلة هو ضبط الفيضان ، لكن قابلية الخزن التى تنشأ عنها ، وجداول الرى التى يؤمل فتحها ، سوف تساعد على وضع مساحات كبيرة من امكانيات العراق الزراعية موضع الاستعمال ، كما ان الاستغلال للماء فى هذه المساحات يتوقف أيضا بطبيعة الحال على انشاء المبازل الكافية لازالة الملوحة فى قسم كبير من اراضى العراق الرسوبية ، ويساعد على نشوء نظام زراعة الرى المتسعة الخاصة به .

ولو ألقينا نظرة على خارطة دجلة ومشاريع الاستثمار التى يؤمل تحقيقها على روافده ، وعلى النهر نفسه ، نجد أوجه شبه مدهشة بنهر التنسى ووسائل تنظيمه . والواقع أن ضبط دجلة والفرات المجاور له على الوجه الأتم سيولد انقلابا فى حياة المنطقة لا يقل عما حدث بفضل مشروع وادي التنسى فى المنطقة التى يجرى فيها . ويصح الشئ نفسه لسائر مشاريع الاستثمار المائى المتعددة الأغراض التى أشرنا إليها هنا ، وبفضل المناهج لاستغلال الماء والأرض والمحافظة عليهما يستطيع الشرق الأوسط أن يتقدم نحو تحقيق امكانياته الاقتصادية ، وتأمين مستوى كاف من العيش لسكانه . وسوف لا تزول الموانع المتنوعة التى تقف فى سبيل هذه المناهج بسهولة ، وربما يستغرق انجاز الكثير منها عقودا من السنين ، غير ان خطوات أولى بطيئة يمكن أن تتخذ الآن ، لتحقيقها بالدراسة الكافية والوسائل العلمية المتواضعة .

جعفر خياط

# دروس من الشرق الأوسط

تأليف  
روجر سولتو

ترجمة  
عمر فروخ



يجب في المقام الأول أن نعرف مدلول اسم الشرق الأوسط ، واني في هذا المقال أحصر كلامي في البلاد التي تتكلم اللغة العربية ، وتطلّ على الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، أى البلاد التي كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية : سورية ولبنان وفلسطين والعراق ، والتي أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى تحت الانتداب ، ولم تحرمها أحوالها السياسية أن تظل متحدة في النواحي الاجتماعية والثقافية . واني لا أزال بعد نحو عشر سنين من الاختبار في التدريس بين طلاب تلك البلاد أسأل نفسي في دهشة عما اذا كان ما تعلمته أنا لم يكن أكثر مما علمته . واني لأعتقد أن هذه الدروس التي تعلمتها تستحق أن يشاركني فيها زملائي ، من الباحثين في التاريخ والسياسة في الغرب .

ان أول ما يسترعى انتباهنا في هذا المقام ان ما نسميه شرقيا أو نعدّه كذلك ، لا يمثل الخصائص الشرقية المعروفة في التطور الاجتماعي والثقافي العام ، وهو التطور الذي تشترك فيه معظم الحضارات . وبلغ هذا التطوّر في الشرق ، على وجه التقريب ، ما بلغه الغرب في أعقاب العصور الوسطى، مع مظاهر آخر تذكرنا من ناحية ببدء الثورة الصناعية ، وتعيد الى ذاكرتنا من ناحية ثانية عصر النهضة الأوروبية .

فهل معنى هذا اذن أن الشرق الأوسط متخلف خمسة قرون عن الغرب ، أم أن الغرب متقدم عليه هذا العدد من القرون ؟ على أن الفصل في هذا الأمر ليس سهلا أبدا ، وينبغي أن نعود بذاكرتنا أولا الى القرون الأولى من العصر المسيحي ، حينما كان الشرق الأوسط جزءا أساسيا من الامبراطورية الرومانية ، ويتمتع في ظلها بجميع ما أضفته الحضارة اليونانية الرومانية على أجزاء تلك الامبراطورية سواء بسواء .

على أن تهقر الحضارة ، وهو من دلائل ما نسميه سقوط الامبراطورية الرومانية ، كان أخف تأثيرا على الشرق منه على الغرب ، ولذا ظلت

ببساطة ترى نفسها صاحبة الحق في المجد الرومانى ، وكادت أن تؤسس سلطانتها في جميع المقاطعات التى انبسط عليها سلطان روما من قبل . ولكن خيبة جستنيان وما تلاها من تقويض للحكم البيزنطى في المشرق على أيدي العرب ، من غير أن يستتبع ذلك تفهقر الثقافة أو الاقتصاد فيه ، أدى الى بزوغ حضارة اسلامية شقت طريقها في عرض افريقية الى الأندلس ، حيث بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها ، على حين كان الغرب في أحلك أيامه ، في القرن التاسع والقرن العاشر والقرن الحادى عشر للميلاد . ولو أن عربيا معاصرا لشارلمان أو لألفريد الكبير أو لوليم الفاتح نظر الى الأوروبيين — هذا اذا رأى أنهم خليقون بنظرة اليهم — لألفاهم شعوبا فطرية تجهل فن البناء والنظافة الصحية ، وتجهل الطب والفلسفة ، وكل شيء يجعل هذه الحياة خليفة باسمها . كان أولئك الأوروبيون يسكنون أراضي باردة رطبة قاحلة ، ويعيشون عيشة تجعل كل تقدم صحيح مستحيلا ، وتقضى بأن يظل أولئك الأقوام أبدا على مستوى أدنى من المستوى الذى تتمتع به الشعوب التى ورثت نعمة الشمس المشرقة وثقافة المشرق .

أما الآن فانقلبت الآية . فالرجل الغربى هو الذى يزدري اليوم انخفاض المستوى للحياة الشرقية ، ويأسف لحال العامل الشرقى ، ولما يتناوله من أجر ضئيل ، ولما هو فيه من حياة تاعسة . ولكنه يعود فيقول : ماذا ننتظر من بلاد يندر فيها سقوط الأمطار ، وتملأ الأرض فيها امحالا شديدا ؟ ان مثل هذه الأحوال تجعل كل تقدم صحيح مستحيلا ، ثم هى تقضى على الشعوب التى تسكن تلك البلاد بأن تكون أبدا متأخرة وراء الأمم الراقية الموهوبة التى تتمتع بالجو المعتدل .

ونحن لا نحتاج الى أن تؤكد الجانب السطحى من هذا المنطق ، سواء أكان مبنيا على الجو أو على الخصائص والعادات الموروثة . وليس ثمة من ينكر أثر الجو في الحضارة ، وان مما لا ريب فيه أن الرومان والعرب الأولين أفادوا من مصادر للرطوبة جفت الآن ، وأدى جفافها

الى محل أراضى كانت من قبل خصبة ، لأن وجود خرائب لمدن كبيرة مثل جرش وتدمر فى وسط ما نسميه اليوم صحراء ، دليل على ما نذهب اليه . ولكن أثر الجوِّ يغفل عن قدرة الانسان على مقاومة عوامل بيئته ، اذ أنه يتجاهل مظاهر كثارا، مثل تحول الطرق التجارية ، والعثور على مصادر جديدة للمواد الخام ، وفتح الأسواق الجديدة ، واختراع الوسائل الحديثة للانتاج والنقل . وبكلمة أخرى ، لم يكن ثمة عامل دائم فى تأخر الغرب فى العصور الوسطى ، ولا فى عظمة الشرق فى تلك العصور نفسها . كما أنه ليس ثمة ضرورة تقضى بأن يظل الشرق الحديث متأخرا ، أو أن يبقى الغرب عظيما كما هو اليوم . ان ما كان مرحلة فى حياة أحدهما يمكن أن يكون فى حياة الآخر أيضا مرحلة فقط .

ومن الحقائق الثابتة ، على كل حال ، أن الازدهار العظيم للحضارة العربية تبعه أولا تقهقر فجائى سريع ، ثم تلا ذلك أيضا قرون من الانعزال والركود الجزئى من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية ، فى وقت كان الغرب فيه يمد آفاقه مدا سريعا لا يكاد يقف عند حد . أما سؤالنا هنا فهو : لماذا حدث ذلك ، وكيف حدث ؟ والأجوبة عليه من التاريخ لا تزال ضئيلة وغامضة الى حد يدعو الى خيبة الأمل .

أما أحد هذه الأجوبة فهو بلا شك ، أن الحضارة العربية لم تتقهقر فحسب ، بل تقوضت على أثر غزوات المغول والفتح العثماني . ومع أن المغول والأتراك اعتنقوا الاسلام ، فحرصوا من أجل ذلك على أن يظل عدد من المظاهر الاسلامية نابضا بالحياة ، فانهم أساءوا فهم الأحوال السياسية والاقتصادية التى قامت عليها الثقافة العربية اساءة تامة . مثال ذلك أنهم أقاموا تقسيمات سياسية خلقت حواجز اقتصادية مصطنعة ، فعطلوا بذلك حركة التجارة . ثم انهم أثقلوا كواهل رعاياهم بالضرائب الباهظة ، حتى أن مدنا بأسرها حل بها الخراب ، بعد أن عجزت عن دفع الضرائب . أما احتكار القمح وسواه من الحاجيات فانه رفع مستوى الأسعار ، وترك الشعب فى فقر مدقع ؛ ثم ان الحروب والدمار والأوبئة لم تنقطع قط .

غير أن هذ كله صحيح فى ما يدل عليه فقط ، ولكنه لا يكاد يفى فى تعليل القضية من جميع نواحيها . وعلى الرغم من بحوث الاستاذ توينبى الرائعة ، فان المشكل المتعلق بالاسباب التى تؤدى الى تقهقر الدول والحضارات ، ثم الى سقوطها ، لا يزال ميدانا بكرا ينتظر مؤرخى الغد . ما السبب فى أن المجتمعات المختلفة يجرى تطورها حسب درجات مختلفة من السرعة ؟ لماذا وقف نمو الصين فجأة بعد قرون عديدة من التقدم ؟ لماذا استطاعت اليابان أن ترقى بمثل هذه السرعة بعد قرون كثيرة من التأخر الاقتصادى ، وكيف تم لها ذلك ؟ ما الأسباب الحقيقية لتقهقر الرومان ، ولاتتكاس أوروبا فى عصورها المظلمة ؟ أفيجب علينا أن نفسح فى هذا كله مجالا لعنصر الاتفاق ، على ما يرى هنرى پار فى كتابه الذى عنوانه التأليف فى التاريخ ، كما نفسح مجالا لعنصر الشخصية الانسانية التى تقتحم المناسبات ثم تحول مجراها بتلك القوة الخفية التى هى قوة الفرد ذى الفطرة الفائقة ؟

أما الآن فيجب علينا أن نعود أدراجنا قليلا الى النقطة الأساسية ، أى الى الشبه بين المظاهر الرئيسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية العربية وبين المظاهر التى وضحت فى العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى . ما الخصائص التى كانت لحضارتنا نحن فى العصور الوسطى ؟ ان أولى الخصائص الأوربية بلا ريب هو تمازج المجتمع الدينى بالمجتمع المدنى الى حد كان يصعب فيه تمييز أحدهما من الآخر . ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية أشرفت وقتذاك على جميع ميادين الحياة التى تشرف اليوم عليها الدولة : المستشفيات ، والاسعاف ، والتعليم ، واستقبال المسافرين . أما المحاكم الكنسية ، فكانت تفصل فى الزواج والوصية والارث والربا ، والزندقة . وكان الانتماء الى الكنيسة أمرا لا مفر منه من يوم الولادة ؛ ثم ان الحرمان من الكنيسة كان موتا معنويا ، ان لم تقل موتا طبيعيا . بعبارة أخرى لم يعرف الناس فى العصور الوسطى ( فى الغرب ) شيئا من المدرك المدنى للمجتمع .

ان هذا الوصف يمكن أن ينطبق انطباقا كليا على الأحوال الحاضرة في العالم العربي ، اذ الفرد في العالم العربي اليوم جزء غير منفصل سياسيا واجتماعيا من الجماعة الدينية التي ولد فيها . ثم أن لكل مذهب مثلا تشريعه الخاص بالطلاق ، والارث ، وسائر الأحوال الشخصية . والدولة تعترف بهذه الأنواع من التشريع ، وتقرها في محاكمها اذا دعت الى ذلك ضرورة <sup>(١)</sup> . وكذلك الانتخاب في العالم العربي يجرى على الأسس الطائفية ، والنواب عموما موزعون بالنسبة الى القوة العددية للطوائف <sup>(٢)</sup> ، وكل انسان يذهب الى الاقتراع على أنه فرد من طائفة معينة .

ومراكز الدولة أيضا موزعة بين الطوائف بنسبة عددها ، بصرف النظر عن الكفاءات التي يتمتع بها أصحابها . والاديرة لا تزال تستقبل المسافرين ، وجميع المدارس تخص عمليا هذه الطائفة أو تلك ، حتى ان اشراف الحكومة على المدارس التي تسمى مؤسسات رسمية يبلغ حدا لا يحلم به أشد المتعصبين في الغرب <sup>(٣)</sup> . فلو أن رجلا كاثوليكيا من أهل العصور الوسطى بعث اليوم في العالم العربي ، لألف الحياة في مجتمعاته الفة تامة . وفي الحق ، ان الاسلام كما يذكر الأستاذ جب في كتابه الذي عنوانه الى أين يتطور الاسلام ؟ ، مجتمع متكامل مبني على أساس ديني يشمل جميع مظاهر الحياة الانسانية ، وان الذين عاشوا في العصور الوسطى كان بإمكانهم أن يفهموا ذلك ، بل فهموه فهما تاما ، وها نحن أولاء اليوم نعالج مجتمعا لا يزال قلبه ينبض بهذه المدارك الموروثة من العصور الوسطى . ومن هذه المدارك ان الانشقاق بين الاسلام والنصرانية كان

---

(١) تقدم الينا مرة اقتراح بأن الحل الوحيد لمشكلة الطلاق ، والذي يمكن أن ينال رضا الناس هو أن يتقيد الزوجان بقوانين الكنيسة ( أي المذهب الديني ) التي عقدت زواجهما . على أن ما يبدو فكرة مثالية في هذا الاقتراح هو القاعدة المتبعة في العالم العربي .

(٢) يقدم الكاتب على ذلك مثلا نواب بيروت وتوزيعهم الطائفي ، ولكن هذا التوزيع تبدل الآن .

(٣) هذه الاحكام ربما تصدق على الجمهورية اللبنانية وحدها .



فى العصور الوسطى أقل كثيرا مما صار اليه فيما بعد ، فمن أسباب ذلك أن المجتمعين كليهما كانا يقومان على أسس تكاد تكون واحدة ، والآراء السائدة كانت تتجه تقريبا اتجاها واحدا . ولقد كان لهما كليهما ، والى حد بعيد أيضا ، استشراف الهى واحد لهذا العالم . أجل ربما كانا عدوين ، ولكن كل واحد منهما عرف على الأقل خصمه ، وكانا كلاهما يتحاربان بوسائل روحية ومادية واحدة . ثم أن الأستاذ جب يخطو بمناقشته هذه خطوة واسعة حينما ينبه على أن الاسلام انتشر من قلب جزيرة العرب الى العالم الهلنستى وارث الحضارة اليونانية والرومانية ، وان معظم فتوحاته كانت فى ذلك العالم . وهكذا تسربت الثقافة اليونانية الى الحياة العقلية فى الاسلام شيئا فشيئا ، حتى أن علم الالهيات فيه مدين لأرسطو . وهكذا نشأت جميع الثقافة الاسلامية فى أساسها غربية المنزع ، وهى من أجل ذلك أقرب إلينا من ثقافات الهند والشرق الأقصى . واذا نحن سمينها شرقية فانما نكون أخطأنا التسمية ، لأنها ليست شرقية باطلاق ، ولكنها شرقية فى امتدادها المحلى ، أى أنها الفرع الشرقى للحضارة الغربية .

أما ما سبق قوله فى الصلة بين الفرد والكنيسة ، فليس فى الحقيقة الا مظهرا واحدا من مشكلة أوسع نطاقا ، وهى صلة الفرد بالمجتمع عموما . وفى الحق انه من الصعب أن نتكلم عن الفرد فى العصور الوسطى ، فان الانسان فى تلك العصور لم يوجد الا مضافا الى جماعة صغيرة : من اقطاع ، أو نقابة ، أو كهنوت ، أى من جماعة تملئ عليه حياته اليومية ، وتكون له مرة سجنا ومرة ملجأ . وهذا نفسه يصدق على الفرد العربى ( اليوم ) ، الا أن جماعته يغلب عليها أن تكون اجتماعية لا اقتصادية ، وهى القرية حيننا والاسرة دائما . هنالك مثلا التملك للعقار باسم الاسرة ، وهنالك الاتفاق بين الاسرة على زواج الأفراد منها ، وهنالك الحياة الجماعية للأسرة فى منزل واحد ، وهنالك رقابة الاسرة على الفتاه ، وهنالك تفوذ الاسرة فى السياسة ، وفى كل ما يتصل بالسير فى طريق

الحياة في هذا العالم . وليس ثمة مدرج من مدارج الحياة يستطيع الفرد العربي أن ينفلت فيه مما هو معروف باسم تضامن الاسرة ، وهو أحد العوامل التي تشل الحياة الشرقية .

وهنا لك ، بكل تأكيد ، جانب آخر لهذا التضامن في الاسرة . فإذا كانت الاسرة الشرقية اليوم — كما كانت الجماعة في العصور الوسطى — سجنًا فانها تكون وسيلة من وسائل الغوث في أيام العنف الاجتماعي ، أو أيام الضيق الاقتصادي . الواقع أن الأسرة تجتري المعجزات في ميدان الوفاء والتضحية ، فترسل الشاب النابه (الفقير) من أفرادها الى الجامعات ، أو تدفع عنه أسوأ كوارث البطالة والمرض . والتضامن في الاسرة هو أحد العوامل التي تتيح للعمال أن يعيشوا في مجتمع اقتصادي عيشة طيبة ، ولو كان ذلك المجتمع لا يزال في دور التطور . ويندرج جدا أن يترك فرد في مثل المجتمع في الشرق يصارع الحياة وحده ، وفي هذه الحقيقة يجب أن نبحت عن سبب المقاومة التي يبديها كل شعب اذا أظلمت الأزمات ، وفي ذلك الشعور من الاعتزاز بالاسرة والتضامن فيها يكمن العلاج الرئيسي لكل قنوط <sup>(١)</sup> .

وفي التعليم أيضا لا نرى أن الشرق الأوسط تقدم الى ما فوق الطور الذي بلغه الغرب في العصور الوسطى . ان التعليم الذي قامت عليه الكنيسة في تلك العصور جعل غايته تخريج القسس ، واعداد طبقة محدودة من الموظفين . أما التعليم العام فلم يكن من الناحية العلمية موجودا ، ولذا كان المرء في العصور الوسطى اما أميا تماما . أو ملما بمبادئ من التعليم الذي لا بأس به . وهذا نفسه يصدق اليوم على بعض مناطق العالم العربي ، بل يصدق على كثير منها لسوء الحظ . هنالك عدد كبير من المدارس الثانوية ، وبقدر ما تستطيع البلاد أن تتحمل على الأرجح ، لاعداد البلاد بالأطباء والمحامين والموظفين الرسميين . على أن العالم

---

(١) من تقرير رفعه المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان ، عام ١٩٣٤ الى لجنة الانتدابات .

العربى ينقصه الرجال الفنيون والصناع البارعون ، أما الأمية فانها واسعة الانتشار ، ونسبتها تختلف ما بين ٤٠٪ وبين ٩٥٪ باختلاف البلاد ، وباختلاف الجنس ما بين ذكور واثاث .

غير أنه أتيح لنا — فى ما يتعلق بذلك — أن نصصح ظن كثيرين من الغربيين . انا نحن الغربيين نفهم الأمية على أنها مستوى من الجهل قريب من العجز العقلى ، وهذا يصدق على عدد من الأميين فى الغرب ، ولكنه لا يصدق على البلاد التى تكون الأمية فيها نتيجة لفقدان الفرصة المتاحة أمام الناس لتحصيل العلم . ولو أن أحدا قضى وقتا قصيرا فى مجتمع تنتشر فيه الأمية انتشارا لا يرجع الى تقصير السكان أنفسهم ، لرأى بعينه الى أى حد تستطيع الحياة والاحتكاك بالرجال وبالحوادث أن يعلموا بلا كتب ، وهذا اذا كان الذكاء الفطرى والرغبة فى العلم موجودين . ومن الحق أن نقول ان أحدا ليعجب اذا لم ير — فى مثل هذه الحال — عددا من الأميين يبلغون من المقدرة على التفكير الشخصى أكبر من المقدرة التى يبلغ اليها أولئك الذين يحتاجون الى ورقة مكتوبة ترسم لهم فيها كيف يجب أن يفكروا ، لا فى السياسة فحسب ، بل فى الفن أيضا ، وفى الأدب ، وفى الفلسفة ، وفى الدين . وكذلك لا يجوز أن ننسى أهمية الكتب فى مجتمع تغلب فيه الأمية ، لأن الكتب فى مثل هذا المجتمع لا تقدر حق قدرها فقط ، بل تدور أيضا بين الناس ، ثم تصبح شبه مراكز يجذب اليها القراء والسامعون . وفى مثل هذا المجتمع يصبح الفرد الذى يعرف القراءة ناشرا للآراء وللتسلية ، ومن المشاهد المألوفة فى الشرق الأوسط جماعات من الناس يصغون فى ساحات المقاهى الى شخص يقرأ لهم بصوت مرتفع . ولقد كان قرب بيتنا قرآن يقرأ لجيرانه قصصا تاريخية . وينبغى أن نذكر هنا أن تغييرات كبيرة ، لا تقل فى ناحتها الثقافية عنها فى ناحتها السياسية ، حدثت عندنا فى غرب أوربا أثناء انتشار الأمية ؟ ما عدد الذين كانوا يقرأون ويكتبون فى أوربا أيام الاصلاح الدينى ، أو زمن الحروب الأهلية فى انجلترا ، أو قبيل الثورة الكبرى فى فرنسا ؟

أجل ، انه ليس لدينا احصاءات لذلك في تلك الأعصر، ولكننا نعلم يقينا أن الأميين في فرنسا في عام ١٨٣٠ كانوا ثلاثة أخماس السكان ، أما في انجلترا فكان عدد الأميين في عام ١٨٤٠ خمسى السكان ، أى ثلث الرجال ونصف النساء . ونحن آخر من ييخس الكتب والجرائد والمدارس قيمتها ، ولكن يجب ألا نمزج بين التعليم الصحيح وبين قراءة الكتب أو الشهادات الجامعية .

ثم هنالك مقارنات أشد غرابة تبدو لنا ، اذا نحن انتقلنا من ميدان الاجتماع الى ميدان الاقتصاد . ما الخاصة الأساسية التى كانت للحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى ؟ انها الفقربلا ريب ! ولكن هذا لا يصدق على العصور الوسطى وحدها . ومثال ذلك أن المؤرخين وصفوا الفساد الذى نتج من الترف والثروة فى العالم القديم ، ولكن الأستاذ فرارو استرعى انتباهنا فى كتابه تاريخ روما بقوله ان مستوى المعيشة كان فى العصور القديمة منخفضا جدا . ان قصور القدماء كانت فى الحقيقة أبنية بسيطة قليلة النور ، ولا تعرف التدفئة الا نادرا . أما ما دبتهم فترجع شهرتها الى ما كانت تضم من كثرة الطعام ، لا نوعه الفاخر . ثم أن القيود التى فرضها أجسطوس على النفقات المتعلقة بالثياب والغذاء تدل على أن الرومانيين لم يكونوا يملكون أموالا ينفقونها فى تلك الوجوه . وعلى هذا القياس بالعصور القديمة لا يمكن أن يكون الترف فى العصور الوسطى شيئا مذكورا ، كما تدلنا الاحصاءات التى بقيت لنا من ذلك العصر . ذلك ان مجموع الصادرات التى كانت تشحن من مرفأ أوربى فى العصور الوسطى خلال عام كامل لم تكن تملأ باخرة من بواخر اليوم ، بل ان متجرا صغيرا من متاجرنا اليوم يحتوى من الأفاويه على مقدار كان يكفى أوربا كلها أشهرا كثيرة . وتطالعنا أحيانا أخبار جلابين أرسلهم التجار من ألمانيا الى البندقية ، ليشتروا ستة عشر كيسا من القطن ، وأما تفاد بضع مائة قطعة من النسيج فى عام من الأعوام فكان يدل على حسن الأحوال التجارية فى ذلك العام . ولنضرب على ذلك أمثالا من الأرقام

التالية : فى عام ١٣٤٥ م بلغت تجارة الصوف فى انجلترا ٣٢٩٦٣ كيسا ، ثمن الكيس منها ست ليرات انجليزية ، يضاف اليها نحو ١٣٠٠٠ قطعة من النسيج ثلثها فقط من نوع فاخر حقا ، و ثمنها لا يصل الى مائتى ألف ليرة انجليزية . وكان فى مدينة ريفال ، احدى مدن الهنسا ، ١٩٨ تاجرا يملكون فى عام ١٣٦٨ م اثنى عشر مركبا . أما لوبك ، وهى من أشهر مرافئ العالم ، فقد أرسى فيها ذلك العام نفسه ٤٣٠ مركبا ، وأقلع منها ٨٧٠ مركبا ، أى ان الحركة فى ذلك المرفأ لم تصل الى أربعة مراكب فى اليوم ، ما بين ذاهب وقادم . ثم ان كولشستر ، وهى مركز من المراكز الرئيسية لصناعة النسيج فى انجلترا ، كان يسكنها عام ١٣٠٠ م نحو ألفى شخص ، لا يتجاوز عدد الأغنياء الكبار منهم عشرة . وفى مدينة ردينج فى انجلترا كذلك كان ثمانية رجال فقط يستطيعون أن يتسلحوا من مالهم الخاص . ثم ان ضالة الأجور وانخفاض الأثمان على وجه العموم يدلانا على مستوى المعيشة يومذاك ، بل تعين على الذين يتطلبون الترف الحقيقى فى صدر العصور الوسطى أن يذهبوا الى القسطنطينية ، أو الى بغداد .

أما اليوم فان الفقر ، بل الفقر المدقع ، هو الصفة الغالبة فى الحياة فى بعض البلاد الشرقية ، وهو مستوى من الفقر الذى لا يستطيع أحد أن يعتقد بوجوده حتى يرى آثاره بعينه ، لا فى أيام الأزمات فقط ، بل على أنه الأساس الثابت للحياة ؛ وهذا يصدق على المدن وعلى القرى سواء بسواء . ويصحب هذا الفقر انخفاض كبير فى الأسعار ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يتناول جميع الحاجيات ، فبينما نجد الخضر والفاكهة رخيصة لا يكون الخبز غير رخيص ، وكذلك اللحم . أما أجور العمال والصناع فمتدنية بصورة مخيفة . ثم اننا لا نجد تشغيل الأحداث شائعا فقط ، وبأجور ضئيلة ، بل ان الأجور التى يتناولها البالغون أنفسهم أيضا لا تكاد تسد الحاجات الأساسية للأسرة . وهنالك بلا ريب أشخاص من ذوى اليسار فى الشرق ، ولكن الشرق بلد فقير ، اذا نظرنا فى أساس

موضوعنا ، لأن ثرواته الطبيعية قليلة ، وإذا نحن استثنينا البترول ، فإن الطلب على هذه الثروات في الخارج ليس كبيرا . ثم ان النظام الذى يقوم عليه التملك والاتاج — وهو من بقايا العصور القديمة — يجعل الحاصلات الطبيعية أقل كثيرا مما لو كانت وسائل الاستغلال تقوم على أسس صحيحة . أما نشاط السكان ، فلا يمكن أن يقوم مقام التمرين الفنى المفقود ، ولا أن يتلافى النقص الكائن فى وسائل الاتاج .

ان أحوال الاتاج فى الشرق الأوسط اليوم تشبه تماما ما كان عليه النظام الاقتصادى فى أوربا العصور الوسطى : هنالك عدد كبير من المؤسسات الصناعية الصغيرة التى هى من الناحية العملية بلا رأس مال ، وهذه يديرها كلها أحيانا أفراد أسرة واحدة ، هم أصحابها وهم رؤساء الاتاج فيها ، وهم الباعة بالفرق لمنتجاتها ، والمستهلك فى هذه الأحوال متصل اتصالا مباشرا بمنتج المصنوعات . ثم ان الصناعات محشورة فى مناطق معينة ، أو فى شوارع بعينها ، ووسائل الدعاية قليلة ، أو مفقودة . وكذلك ليس ثمة انتاج موحد ، بينما مدة العمل طويلة ، وهى تعتمد على ضوء النهار فى الأكثر . ولا يكاد المرء يتبين حدا فاصلا بين المستخدم ( بكسر الدال ) وبين المستخدم ( بفتح الدال ) . كل هذه الخصائص تصدق اليوم على كثير من بلاد الشرق ، كما كانت تصدق على العالم الأوروبى فى العصور الوسطى .

على أن الموازنة الحقيقية لا تكون بالاضافة الى العصور الوسطى ، بقدر ما هى بالاضافة الى طلائع ما نسميه الثورة الصناعية ، أو بالاضافة الى صدر عصر الآلة . ذلك أن النقابات القديمة فى العصور الوسطى حالت بين صاحب العمل وبين استغلال العامل بزيادة ساعات عمله ، أو بينه وبين استغلال المستهلك من طريق البضائع المغشوشة والأسعار الباهظة . وقامت تلك النقابات فى الماضى مقام اتحادات التجارة والصناعة فى يومنا هذا ، واحتلت مكان التشريع الاجتماعى . ولكن قبيل انتهاء القرن الثامن عشر بادت تلك النقابات ، أو انحلت على كل حال ، ثم أخذت أنظمتها

تترك مكانها لنظرية المنافسة الحرة ، قبل أن توضع قوانين تأخذ مكان هذه الأنظمة كلها . ويجب أن نذكر أن انجلترا ترددت كثيرا قبل أن تشرع قوانين تحمي الأطفال من مساوئ المنافسة المطلقة . هذا هو الطور الذي وصل اليه الشرق الأوسط اليوم ، والذي يقف فيه العامل أعزل في وجه المنافسة ، وفي وجه التقدم الصناعي . ففى بعض البلاد الشرقية ليس ثمة قانون يضع حدا لساعات العمل للبالغين ، ولا قانون للتعويض يحمي العمال من أخطار العمل ، مهما كان العامل يقظا حذرا . وكذلك ليس ثمة تأمين يساعد العمال أثناء مرضهم أو بطلتهم ، ولا أنظمة تضمن للعمال أحوالا صحية مواتية في مؤسسات العمل . ثم ان المحاولات الضعيفة لحماية الأطفال والنساء في بعض البلاد الشرقية تذكرنا بالقوانين الأوربية الأولى التي وضعت لمصلحة العمال المتدئين ، بما فيها من نكوص عن التطبيق ، لقلة الرقابة . ولقد نجد هنا وهناك صناعة سعيدة ، أو تجارة أخذت تضع لنفسها أصولا بدائية فطرية لاتحادات تجارية أو صناعية . أما الاضرابات فليست مجهولة كل الجهل في الشرق ، غير أن كره الفرنسيين <sup>(١)</sup> للجمعيات — مثل فزعنا نحن قديما من التكتلات — جعل هذه الجهود في سبيل حماية العمال وتحسين أحوالهم مضنية وبطيئة جدا . ثم ان العمال أنفسهم لا يزالون متأخرين اقتصاديا الى حد يمنعهم من أن يروا موضع الحاجة الى عمل موحد ، وخصوصا في سبيل حماية مصالحهم المتبادلة . والعمال واصلون الى ذلك بلاريب ، ولكن لا يزال ثمة ارقال <sup>(٢)</sup> كثير أمام العمال الشرقيين ، وأمام قادتهم أيضا . غير أننا يجب ألا ننسى الجانب الآخر من الصورة أبدا ، أعنى المعونة التي يحققها تضامن الأسرة وقوة التقاليد ، مثل عاطفة الضيافة التي تمنع طرد المستأجر اذا لم يدفع ايجار مسكنه . ولكن بما أن المقارنة بين الشرق الأوسط الحديث وبين العصور الوسطى الأوربية لا تصدق من كل نواحيها ، فانها لا تصدق بين

(١) كتب هذا المقال قبل أن جلا الفرنسيون عن سورية ولبنان .

(٢) الارقال السير صعودا .

الشرق الأوسط اليوم وبين طلائع عصر الثورة الصناعية في كل شيء . ولقد اتفق للشرق الأوسط أن بلغ في بعض مرافق الحياة طورا متقدما ، فمجىء السيارة مثلا قضى على نظام المقايضة ، وعلى أسباب الحياة المبنية على النقل بواسطة الدواب . وكذلك لم يبق بإمكان القرية ، ولا بإمكان المدينة الصغيرة ، أن تضع حدا لأفق الزارع أو لنشاطه، مع أنه لا يزال ثمة أماكن قليلة لا تربطها بالمدن سيارات كبيرة أو سيارات صغيرة على الأقل . وهكذا أصبحنا نجد أنفسنا في الشرق الأوسط أمام ثورة أخذنا نشعر بطلائع آثارها .

لنأخذ مثلا على ذلك مدينة حماة ، وهي مدينة صغيرة في شمال سورية . كانت حماة قبيل الحرب العالمية الثانية تعيش — هي والقرى المحيطة بها — عيشة اقتصادية من نوع ما . فالبن والحديد كانت حماة تستوردتهما من الخارج ، ولكنها كانت تصنع شيئا من نسيج القطن ، تبعه في البادية المتاخمة لها . أما فيما عدا ذلك فكل أسرة كانت تنبت طعامها ، وتنسج ثيابها من صوف خرافها ، وتنحت أدواتها لنفسها من الخشب في الأكثر ، ولا تشتري من غيرها الا بمقدار ماتبيع لغيرها ، وكل ذلك قليل جدا . أما معاملاتها المالية الضئيلة على كل حال ، فاقترنت على منطقة حماة . ولكننا نجد اليوم فيها المصنوعات اليابانية من القطن، ومن الحرير الصناعي ، ونجد الأغذية المحفوظة في العلب ترد إليها من الولايات المتحدة . ثم نجد الأواني الصينية المستوردة من تشيكوسلوفاكيا ، وسواها من البضائع الموحدة الصنع . أما الذي لا نجده في حماة ، فأننا واجدوه في حلب . واما الصناع المحليون ، فإنهم لا يكادون يجدون منفذا لبضائعهم ، بينما ترى الناس من كل صوب يطلبون المزيد من المال ، فيفدون الى المدن ليحصلوا عليه . ويتضح من هذه العبارات أن الصناعة والتجارة في حماة مقضى عليها بالبوار ، بسبب ذلك التطور .

ان المثل الذي قدمناه يدل على وجود جذور عميقة لعوامل التطور بجانب العناصر الراكدة في الحياة الشرقية ، مما يوجد عادة في جميع



المجتمعات في جميع الأزمان ، مع العلم بأن هذه الجذور تكون عادة أعمق وأنشط في أدوار معينة دون أخرى ، وان هذه الأدوار المعينة بلغها الشرق الأوسط بلا ريب . وهكذا تكون الصورة التي رسمناها مضللة ، لو اعتبرت بنفسها فقط ، كما أنها تكون مضللة أيضا لو جعلناها صورة للعصور الوسطى . الواقع أن عوامل التطور واضحة في الحياة الاقتصادية في الشرق الأوسط ، وهي أشد وضوحا في عالم التفكير . والشرق الأوسط الآن في حال من التخمر يمكننا أن نلخص الكلام عليها بالرجوع مرة ثانية الى الاستشهاد بالأستاذ جب حيث ، يقول : « فاذا نحن قبلنا أن المجتمع الانساني لا يزال على تكوينه الذي كان له في العصور الوسطى ، فاننا نرى أن تسرب الآراء اليه أثار في العالم الاسلامي كله حالا من القلق والتوتر النفسى تسترعى انتباهنا بلا ارادة منا ، وتذكرنا بالأزمة التي مرت فيها أوروبا في عصر النهضة وعصر الاصلاح الدينى <sup>(١)</sup> . » غير أن التوسع في هذه الناحية الجديدة للقضية يحملنا الى خارج النطاق المحدود لهذا المقال ، ولكننا نشير هنا فقط الى أن ما ذكرناه آنفا انما هو مثال آخر للموازنة بين الشرق والغرب ، وأنه انذار للباحثين يجب أن يحول بينهم وبين أن يتخيلوا الحضارات متحاجة ، تتصف كل واحدة منها بصفات تخصها وحدها ، بدلا من أن نعترف لهذه الحضارات بأوجه شبه متقاربة جدا في تطور كل واحدة منها .

والأوجاع المتزايدة في بلاد الشرق الأوسط تجعلنا نذكر أوجاع أوروبا الغربية في عصور ماضية ، حتى أن المؤرخ ليستطيع أن يتبين الدلائل العظيمة الأهمية على الطريق الذى سلكته الحوادث في أثناء الأدوار العظمى للتطور في الغرب . وها نحن أولاء نستطيع أن نرى كم كانت أدوار التطور المختلفة تتجاوز أو تتراكب ، فالكتب المدرسية تخبرنا واثقة أن الآلة التي تدور بالماء أخذت مكان النول الذي كان يدار باليد ، وان قوة البخار حلت بدورها محل الماء ، كما أن العربى انهزمت أمام القاطرة ، وأن المركب الشراعى انهزم أمام البخرة . ويخيل للقارىء كأن الكتب المدرسية

(١) انظر جب : الى أين يتطور الاسلام (Whither Islam?) ، ص ٢٠ .

تعنى ان حلول بعض هذه الوسائل مكان بعضها الآخر تم بين عام وعام .  
على أن النقد والتدقيق في البحث الحديث ، فيما يتعلق بحلول بعض هذه  
الوسائل مكان بعض حلولاً تاماً ، تؤيده الحال الراهنة في الشرق الأوسط ،  
اذيرنا الى أى حد يمكن أن يكون استبدال وسيلة مكان أخرى بطيئاً ،  
كما يدلنا على كثرة الذين يظلون أوفياء لطرق الحياة القديمة ، وكيف  
أن أكثر الأدوات بداءة وفطرية يمكن أن تعيش جنباً الى جنب مع آخر  
ما وصلت اليه الآلات الحديثة من التحسين . فالجمال والسيارات يمكن  
أن تشاهد في شوارع بيروت ، والطيارات تحلق فوق السفن الشراعية  
التي لا تزال على أشكالها وأحجامها التي كانت عليها في العصور الوسطى ،  
والتي تنقل بين مدن الشاطئ أعظم الوسقات الثقالة التي لا يخشى عليها التلف .  
وكذلك الكهرباء تير اليوم في الشرق الأوسط دكاكين تدار فيها أنوال  
النسيج باليد ، بينما المعامل المتوسطة الحجم تنافس هذه الدكاكين ،  
فتخلق طبقة من الكادحين في المدن ذات طابع غربي واضح . ونحن نرى  
أيضاً في الحقول آلات الحرث الحديثة ، بجانب الأدوات الخشبية التي  
ورثناها من عهد عاد . وإذا كنا نحن نستغرب هذه التناقضات في الشرق  
الأوسط اليوم ، فيجب أن نذكر أنه في عام ١٨٣٣ لم يكن في إنجلترا  
آلات نسيج يدار بعضها بالماء وبعضها الآخر بالكهرباء ، بل كان فيها  
ألوف من الأنوال تدار باليد ، وعليها عمال لا يكسب أحدهم في الساعة  
الابنسا واحداً . ويجب أن نذكر أيضاً أن معامل باريس التي كانت في عام  
١٨٤٠ يستخدم كل واحد منها مائة عامل كانت قليلة جداً . ثم ان نصف  
معامل باريس في عام ١٨٧٠ كانت مؤسسات يملك كل واحدة منها شخص  
واحد . وكذلك بينما تطورت وسائل النقل في العالم ، كانت العربات التي  
تجرها الخيول لا تزال الزى الشائع في سويسرة ، وظلت هذه هي القاعدة  
المتبعة حتى نحو عشرين سنة خلت . وحتى عام ١٩٠٢ ظلت فرنسا  
تبني سفناً شراعية من الحديد ، وفضلاً عن هذا فإن أكثرنا لم يتفق  
له أن سافر في الطائرة بعد .

وهناك ناحية ثانية يمكن أن نستفيد منها من تاريخ الشرق الأوسط ،  
وهي أن ثمة عددا من الأدوار في حياة الأمم يمكن تخطيطها كلها . فالانتقال  
في السكك الحديدية دام في أوروبا مدة تبلغ قرنا كاملا أو تزيد ، بينما هو  
لم يدم في الشرق الأوسط الا جزءا يسيرا من هذه المدة . فبعد أن قضى  
الشرق الأوسط سنوات عديدة يستعمل لنقله وانتقاله سككا حديدية  
غير وافية بالحاجة <sup>(١)</sup> ، اذا به الآن لا يبنى سككا حديدية ، بل طرقا واسعة  
 للسيارات ، بينما السكك الحديدية أصبحت قاصرة على قطع المسافات  
 الطويلة جدا ، وعلى نقل البضائع الثقيلة . ومنذ نحو خمس وعشرين سنة  
أو نحوها لم يكن يقطع الصحراء الا قوافل الجمال ، ثم جاءت السيارات  
والطيارات وهي الآن تنافس الجمل في صحرائه . وهنا يمكننا أن نقول  
أن الرواد فقط هم الذين يمشون في جميع أدوار النهضة المختلفة ،  
ويرتكبون جميع الأخطاء ، وأما الذين يأتون بعدهم ، فانهم يستطيعون  
أحيانا أن يتجنبوا عددا من هذه الأخطاء . فألمانيا مثلا تأخرت عن انجلترا  
في دخول ميدان الصناعة ، ولكنها تجنبت كثيرا من المخازي التي رافقت  
توسع المدن في انجلترا . ولم يتبع بناء البيوت العمالية في ألمانيا قاعدة البيوت  
المزوزة <sup>(٢)</sup> التي هي سبة المدن الشمالية في انجلترا . ثم ان فرنسا وألمانيا  
تقدمتا على انجلترا في ميدان التعليم الابتدائي ، بفضل ما تجنبتا من  
الشروط التي تنشأ عادة اذا ظل الجمهور الغالب غير متعلم .

غير ان المطابقة بين التطور في الشرق الأوسط وبين شبيهه في الغرب  
لا يمكن أن تستمر بلا نهاية ، لأن لكل منهما أدواره وقضاياها . على أن  
قضية المياه تستأثر باهتمام الشرق أكثر مما تستأثر به قضية السكنى  
والندفة ، ومع أن الشرقي معرض للأمراض الغريبة ، فانه أشد تعرضا لحمى

---

(١) بيروت أكبر مرافئ بلاد الشام ، وهي تتصل بخط حديدي ضيق  
يبلغ طوله ثمانين ميلا ، ويقطعه القطار في مدة بين ثمان ساعات وعشر  
ساعات . أما السيارات فتحتاج الى ثلث هذا الوقت ، لتقطع هذه المسافة  
نفسها ، وأهل بيروت يفضلون الانتقال بالسيارات .

(٢) البيوت المزوزة هي التي تبنى لصيقة بعضها الى بعض ، دون  
فضاء يفصل بينهما .

الربع وللزحار <sup>(١)</sup> خاصة ، وهما المرضان اللذان يغفل المؤرخ الأوربي حسابهما في عوامل التاريخ في الشرق الأوسط . ثم ان الصحراء ، وماتعنيه من تمييز جامد ثابت بين الأرض القابلة للسكنى والأرض التى لا تقبل السكنى ، هى التى تجعل العقل الشرقى أكثر استعدادا لقبول الأمر المحتوم ، وللانحناء أمام الضرورات ، ثم تجعله من أجل ذلك أقل ثقة بالعمل الفردى ، وبقدرة الانسان على تبديل البيئة الانسانية — ولعل ذلك هو الفرق البارز بين الشرق والغرب .

كل هذه دروس هامة ، ولكن الدرس الأخير أهمها بلا ريب . وأنا أرجو الا أكون بهذه الدروس صرت على فهم لأدوار تاريخ الغرب والشرق فقط ، ولكنى تعلمت على ما أظن معنى جديدا للزمن فى التاريخ . ومع أن تدريسي للتاريخ لم يكن يتناول ما قبل عهد الاصلاح الدينى ، أو الفتح النورمانى لانجلترا على أبعد تقدير، كان لى اتصال مستمر ببقايا الحضارة القديمة التى يبدو التاريخ الأوربي أمامها طفلا صغيرا . وهذا هو الذى يجعل الانسان حذرا أبدا من أن يكون قصير النظر فى التاريخ . كنت مرة فى نينوى ، فشهدت الكشف عن هيكل عظمى مدفون فى التراب بلا تابوت ، وكان تاريخ دفنه يعود الى نحو أربعة آلاف عام ، أى أن ضربة معول واحدة حملتني الى ما قبل ثلاثة آلاف عام من الفتح النورمانى المشهور فى أصول التاريخ الانجليزى ؛ وبذا تكشفت لى ناحية من مسير الزمن تركت فى خيالى أثرا لا يمحي . وعلى الطرف الآخر من الزمن يزورنى صديق لى طيب ، فيخبرنى بأن الانسان لم يتح له بعد أن يتعود نهائيا أن يمشى مستقيما على رجلين اثنتين ، وهكذا نجد أن عظام قدميه وعموده الفقرى ، وهى التى جعلت فى الأصل لتحمل جسما يعتمد على أربع دعائم ، لم تكتسب بعد القوة الكافية لتقيم جسدا منتصب القامة . من أجل ذلك لا يزال عند معظمنا شيء من الانحراف أو الضعف فى العنق ، أو فى القدمين ، أو فى كعوب القدمين . وهكذا اذا بدت الانسانية فى يوم ما شائخة جدا ، ثم بدت فى يوم آخر فتية جدا ، فاننا نرجو ألا ينظر فى المستقبل الى

(١) حمى الربع هى الملاريا ، والزحار هو الديسنتاريا .

أخطائنا الا على أنها من طيش الشباب ، ونحن في كل من الحالين على يقين بأننا لسنا الشعب المسؤول عن ذلك ، وبأن الحكمة لن تموت على أيدينا . وأخيرا يمكننى أن أجمل هذه الملاحظات المتفرقة ، فأقول اننى رجل أوربى غربى حديث ، تعلمت درسا مزدوجا وجهه الأول هو النظر الى التاريخ من زاوية جديدة ، وأما وجهه الآخر فهو التواضع . انه لمن الحق أن ينكر أحدنا وجود فوارق بين مدنيات الشرق والغرب في وقتنا الحاضر ، ولكن يبدو أن التاريخ والاختبار الانسانى يعلمانا أن هذه الفوارق ليست أساسية ، ولا هى ثابتة مثل الخصائص الموروثة التى لا يمكن اجتثاثها من أصولها . وسواء أكانت هذه الفوارق طبيعية أو فكرية أو روحية ، فهى فوارق تمثل فى أساسها مراحل مختلفة ودرجات متفاوتات فى سرعة تقدمنا . على أن هنالك مواضع تناقض واختلاف فى عالمنا المسكين ، ونحن لا نحتاج الى أن نخلق هذه اختلافا ، ولا أن نؤكد جانبها حيث تكون طفيفة أو عارضة . ان الشرق سيبقى شرقا ، وان الغرب سيظل غربا — مع أن هذه الفكرة لا تزال تنتظر من يقوم فى الأعصر المقبلة ليقيم الدليل عليها . ولكن من المؤكد انهما يقتربان شيئا فشيئا ، وأن من المحتوم أن يستمر اقترابهما يوما بعد يوم ، ليلتقيا فى ما يمكن أن يكون ، وما نرجوه نحن أن يكون ، عالما من التعاون السعيد المثمر ، لا سيد فيه ولا مسود ، ولكن شركاء أسوياء يتمتعون بثروات ماضيهم وحاضرهم ، ويشتركون فى ما يقدمون للحضارة المقبلة .

عمر فروخ

قائمة بعض المؤلفات الأمريكية الخاصة  
بالشرق الأوسط

SELECT BIBLIOGRAPHY  
of  
GENERAL BOOKS ON THE MIDDLE EAST  
by  
AMERICAN WRITERS

1. H.R.P. Dickson : *The Arab of the Desert*. New York, 1949.
2. Carleton S. Coon: *Caravan: the Story of the Middle East*. New York, 1951.
3. Richard N. Frye : (ed.), *The Near East and the Great Powers*. Cambridge, Mass., 1951.
4. Philip K. Hitti : *History of the Arabs*. Fifth edition, New York, 1951.
5. Halford L. Hoskins : *British Routes to India*. New York, 1928.
6. Philip W. Ireland (ed.): *The Near East : Problems and Prospects*. Chicago, 1942. 266 p.
7. George Lenczowski : *The Middle East in World Affairs*. New York, 1952.
8. Roderic Mathews and Matta Akrawi : *Education in Arab Countries of the Near East*. Washington, 1949.
9. E. A. Speiser : *The United States and the Near East*. Second edition. Cambridge, Mass., 1950.
10. T. Cuyler Young (ed.): *Near Eastern Culture and Society*. Princeton, 1951.









طهران

حضارة الشرق الأوسط  
لثقافة الغربية

الفنون والآثار  
الاسلامية

السياسة الدولية  
في الشرق الأوسط

اصفهان

تطبيق مشاريع التنمية  
في الشرق الأوسط

دروس  
من الشرق الأوسط

روچر سلتو

